

الكلب الفخارى

هذه الترجمة الكاملة لرواية
Il cane di terracotta

الكلب الفخارى

Andrea camilleri

اندريا كاميليري

ترجمة/ أيمن محمود فتحي
مراجعة/ خاك طوبار

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من إيطاليا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٤

ISBN: 978-977-6299-58-3



وكالة سفنكس

7 شارع معروف النور السابع
وسط البك - القاهرة

ت/ف: ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥ ٠٠٢

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

Questo libro e' stato tradotto grazie ad un contributo alla
traduzione assegnato dal Ministero degli Affari esteri

تم ترجمة الكتاب بفضل مساهمة للترجمة مهداة من وزارة الخارجية الإيطالية

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر
أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناسر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

Sphinx Agency©2014

الكلب الفخارى

اندريا كاميليري



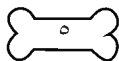
وكالة سفنكس



الفصل الأول

عند ظهور أول خيوط الفجر أعلن اليوم عن بدايته بتقلبات كبيرة، أحيانًا بضربات شمس حارة وأحيانًا أخرى بلسعات المطر الجليدي وفي كل الأحوال كان الجو لا يخلو من هبات ريح مباغتة. إنه أحد الأيام سيئة الطقس التي تعكس سوء حالها على مزاج وأفكار من يتعرض لها، مما قد يؤدي به إلى تذبذب رأيه وتغيير اتجاهه، تمامًا كما تفعل بوصلة الرياح التي تشبه شكل ديك أو راية، وتدور على الأسطح في كل اتجاه حال مرور أي نسمة ريح خفيفة.

يمثل المأمور سالفو مونتابانو تلك النوعية من البشر، وقد ورث تلك الصفة من عائلة والدته، التي كثيرًا ما كانت تمرض وتنزوي في غرفة النوم بسبب الصداع؛ لذلك كان من المفروض حدوث ضوضاء بالمنزل، وكذلك من الضروري المشي على أطراف الأصابع. في حين كان والده قويًا وحسن المظهر، يحافظ دائمًا على استقرار حالته الصحية، ثابتًا على نفس أفكاره التي كانت تلازمه سواءً أكان الطقس ممطرًا أو مشمسًا.



ربما لم يخالف المأمور فطرته في هذه المرة أيضًا؛ فقد أوقف السيارة عند الكيلو العاشر من طريق «فيجاتا-فيلا» كما أمر، ولم يلبث أن أدار محرك السيارة ثانيةً وغادر عائداً للبلدة مفسداً بذلك المأمرية المكلف بها. تمكن من السيطرة على السيارة واقترب أكثر من حافة الطريق ثم فتح درج لوح التحكم في السيارة ليلتقط المسدس والذي كان عادةً لا يحمله بجيبه، غير أن يده ظلت معلقة وثابتة كأن أحداً سحرها فشلت، استمر في النظر إلى السلاح وحدث نفسه قائلاً: «أقسم بالسيدة العذراء إنه لحق!»

في ليلة البارحة قبل سويغات من اتصال جيجيه جولوتا الذي أشاع كل هذا الصخب -وهو مزور صغير لأشياء تافهة كما أنه مالك لبیت بغاء في الهواء الطلق معروف باسم الحظيرة- في تلك الأثناء كان المأمور يقرأ رواية بوليسية لكاتب من مدينة برشلونة، وقد حيره جداً كما أنه يحمل نفس لقبه لكنه يأخذ الطابع الأسباني(مونتالبان)، ووردت في الرواية عبارة أثرت فيه بشكل خاص:

«...كان المسدس يرقد كالبرص البارد». سحب يده مشمئزاً وأغلق الدرج تاركاً البرص يكمل نومه. ماذا لو أن القصة التي على وشك البدء اتضح أنها مكيدة وفخ؟ كان يرغب في جعل السلاح بالقرب منه، لكن من أراد به شراً فسيفعله متى شاء ووقتاً شاء بطلقات كلاشنكوف وانتهى الأمر وتنتهي الحدوته كلها. الجدير بالذكر هنا هو أن جيجيه لم يتسن له -من أجل مصلحته الشخصية- أن يبيعه بثمن رخيص؛ وفاءً لذكرى السنوات التي قضياها إلى جوار بعضهما البعض في مقعد الدراسة في الصفوف الابتدائية؛ ووفاءً للصدقة التي استمرت بعدما كبرا، كما أنه لم يسمح لنفسه أن يكذب على مونتالبانو في أي شيء -أيًا كان- كي يسقطه في الفخ، فهي لن تكون مجرد أكذوبة، فإذا كان هذا الأمر حقيقياً فسيُتسبب في عواقب وخيمة ومدوية.

أخذ نفساً عميقاً وحبسه أثناء صعوده ببطء درب صخري صغير بين الأشواك الممتدة، يرفع قدماً ويضع الأخرى على طول الطريق.

كان يوجد هناك عنب حباته مستديرة وصلبة يسمى- ولا أعرف لماذا- (عنب إيطاليا) وهو الوحيد الذي يؤكل في هذه الأراضي فباقي الأصناف تستعمل لصنع النبيذ، وأيضاً تفضل زراعته توفيراً للنفقات والمجهود.

يتكون المنزل من طابقين: غرفة بالأسفل وأخرى بالأعلى ويقع تحديداً على قمة الهضبة الصغيرة ويكاد يتوارى خلف أربع شجرات زيتون عربي تُحطن به تقريباً من جميع النواحي. كان كما وصفه له جيجيه: نافذة وباب موصدان وباهتان، وفي الفناء الأمامي توجد شجرة ضخمة لنبات «الكَبَر» كما توجد شجيرات أصغر منها لنبات البطيخ البري الذي ما أن تُمس ثمرته بطرف عصا، فتتنفجر في الهواء مبعثرة بذورها، كذلك يوجد كرسي من الخوص مقعده مكسور وُضع رأساً على عقب، وإناء قديم من معدن القصدير لوضع الماء به، وقد أصبح غير صالح للاستخدام بعد أن تآكل بفعل الصدأ، وكان العشب يغطي باقي المساحة وقد تبارى كل شيء ليعطي انطباعاً بأن المكان مهجور منذ سنوات، بيد أنه كان مظهرًا خداعاً. أصبح مونتابانو بحكم خبرته في مثل تلك المواقف قادراً على إقناع نفسه -بل أنه كان على يقين- بوجود من يتربص له ويراقبه من داخل المنزل ويتعرف على نواياه من خلال ما يقوم به من تصرفات. توقف على بعد ثلاث خطوات من الباب وخلع سترته وعلقها على فرع شجرة الزيتون بطريقة لا تظهر أن بها سلاح، نادى دون أن يرفع صوته كثيراً كصديق ذاهب لزيارة صديقه:

-يا أهل البيت!

لم يجب أحد ولا يوجد أي صوت. أخرج المأمور من جيب البنطال قذاحة وعلبة من لفافات التبغ ووضع واحدة في فمه وأشعلها، واستدار بحركة نصف دائرية مستقبلاً بوجهه عكس اتجاه الريح. الآن باستطاعة من بداخل المنزل أن يراه من ظهره بسهولة بعدما رآه من

وجهه. استنشق دخان التبغ مرتين ثم ذهب باتجاه الباب وطرقه بقوة
بقبضته حتى تأذى عظم رسغه من القشرة الخشنة لطلاء الخشب.

وسأل مرة أخرى:

-هل من أحد بالمنزل؟

كان يتوقع أي شيء إلا ذلك الصوت الساخر الهادئ الذي جاءه فجأة
من خلفه:

-هنا،هنا! ها أنا ذا.. يا مونتالبانو.. سالفوتسو ها أنا جيجه.

-لقد سمعتك، اهدأ! كيف حالك يا ذا العيون الفاتنة؟

-بخير.

-هل مارست الرذيلة بفمك هذه الأيام؟ أيتحسن أداؤك دائمًا في
لعق الأعضاء التناسلية؟

-سالفو! لا تتماكر كعادتك وإلا -وأنت تعلم- لن ألعق أنا،
ولكن سأجعلك أنت من يلعق.

- أأست أنت المُعَلَّم؟ أأست أنت من يُعَلِّم أولئك العاهرات
مختلفات الجنسيات كيف يجب وضع الشفاة وإلى أي مدى يجب أن
يكون اللعق قويًا؟

-سالفو لو كان حقًا ما تقول، فلهن الفضل في تعليمي؛ فهنّ يأتونني في سن
عشر سنوات وقد تم تدريبهن، ويصبحن في سن الرابعة عشر أساطين في
العمل الممتقن؛ هناك فتاة ألبانية في الرابعة عشر قد..»

-أقوم الآن بترويج البضاعة؟

-صه! ليس لدي الكثير من الوقت للمزاح، عليّ أن أسلمك شيئًا،
أسلمك طردًا.

-أفي ذاك الوقت؟ ألا يمكنك أن تعطيني إياه صباح غد؟

-غداً لن أكون متواجداً في البلدة.

-أتدري ما بداخل الطرد؟

-أجل بالطبع، به حلوى النبيذ الإيطالي التي تحبها، صنعتها أختي ماريانينا خصباً من أجلك.

-وكيف حال عيني ماريانينا؟

-تحسنت كثيراً؛ ففي مدينة برشلونة بإسبانيا صنعوا بها معجزات طبية.

-إنهم يكتبون قصصاً جميلة في برشلونة أيضاً..

-ماذا قلت؟

-لا شيء، أحدث نفسي، لا عليك، أين سنتقابل؟

-في المكان المعتاد، خلال ساعة.

كان المكان المعتاد هو شاطئ «بونت سِكا»، وهو عبارة عن لسان قصير من الرمال عند سفح هضبة صغيرة من صخور «المارنا» البيضاء، يكاد يتعذر دخوله سيراً على الأقدام أو على الأقل يتعذر ذلك إلا على مونتالبانو وجيجيه واللذان-وهما في مرحلة الدراسة الابتدائية- كانا قد اكتشفا طريقاً وعرّاً جداً يؤدي إلى هذا الشاطئ، وبالطبع يكون مربعاً لمن يسير فيه بالسيارة. يبعد شاطئ «بونت سِكا» ببضعة كيلومترات عن الفيلا المطلة على البحر على حدود بلدة «فيجاتا» حيث يقطن مونتالبانو وهذا ما يجعل تلك الفيلا تساعد على الاستجمام، ولكن بمجرد أن فتح الباب كي يذهب إلى الموعد رن جرس الهاتف:

-مرحبًا حبيبي، ها أنا أتصل بك في موعدي، كيف كان يومك؟

-لا جديد، وأنت؟

-كالمعتاد، اسمع يا سالفو لقد فكرت طويلاً في..

-معذرة يا ليفيا لمقاطعتك؛ فلدي القليل من الوقت، بل ليس لدي وقت إطلاقاً، لقد استوقفتيني وقد كنت عند الباب على وشك الخروج.

-حسنًا كما تريد، طابت ليلتك!

أغلقت ليفيا خط الهاتف فيما ظلت السماعة في يد مونتابانو، ثم خطر بباله أنه ليلة البارحة كان قد طلب من ليفيا أن تتصل به عند منتصف الليل تمامًا؛ كي يكون لديهما وقت للتحدث طويلاً، وبات متحيرًا: أيتصل فورًا بفتاته في مدينة «بوكاداسه» أم أن يفعل ذلك عند عودته بعد لقاء جيجيه؟! وضع سماعة الهاتف وهو يشعر بشيء من تأنيب الضمير وخرج.

عندما وصل متأخرًا ببضع دقائق كان جيجيه في انتظاره يسير غاضبًا ذهابًا وإيابًا بمحازاة سيارته، تعانقا وقبّل كل منهما الآخر؛ حيث أنهما لم يلتقيا منذ فترة.

قال المأمور:

-فلنذهب لنجلس في سيارتي فطقس الليلة بارد.

بمجرد أن جلس جيجيه بادر بقوله:

-لقد وضعوني في مأزق.

-مَن هؤلاء؟

-أناس لايمكنني أن أتهرب منهم، أنت تعرف أنني -كأي صاحب

محل عمل- أبذل ما بوسعي كي أعمل في أمان الله، ولكي لا يعتمد أحد إحداث شوشرة في محل البغاء الذي أملكه. في كل شهر من شهور الله أجد شخص ما يمر عليّ ويأخذ المال.

-هل تعرف لحساب من يأخذ ذلك المال؟

-لحساب طانو اليوناني.

تعجب مونتالبانو ولم يرد إبداء ذلك لصديقه. جايتانو بينتشي المعروف بـ اليوناني لم ير اليونان ولا حتى بالمنظار، وما يعرفه عن اليونان لا يتعدى مثقال حبة من خردل، لكنه سُمي بهذا الاسم بسبب خِصلة عُرِفَ عنه بشكل واسع بين الأهالي في جميع أَرْقَة البلدة. من المؤكد أنه ارتكب ثلاث جرائم قتل وفي تلك الفترة عمل بالقرب من زعماء المافيا، لكن أحدًا لم يدر أنه يعمل في منطقة «فيجاتا» وضواحيها، حيث توجد عائلتي كوفارو وساناجرا اللذان يتنازعا على الأراضي، لكن طانو ينتمي إلى عائلة أخرى.

-لكن هل يقيم طانو اليوناني في تلك المناطق؟

-أي أسئلة لعينة تلك؟! يالك من أبله حقير! ألا تدري أنه قد عُرِفَ عن طانو اليوناني أن لو تعلق الأمر بالنساء فلا يوجد مكان محدد له؟ إنه مسيطر ومحتكر لكل عاهرات الجزيرة.

-لم أكن أعرف ذلك، أكمل حديثك!

-في حوالي الثامنة من مساء اليوم مرّ الرجل المعتاد الذي يُحَصِّل النقود؛ فهو اليوم المحدد لدفع الإتاوة. أخذ النقود التي أعطيتها له، ولكن بدلًا من أن ينصرف قام هذه المرة بفتح باب السيارة وأمرني بالركوب.

-وماذا عنك؟

-أصابني الرعب وتصببت عرقًا باردًا من شدة الخوف، فما عساي

أن أفعل؟ ركبت وانطلق هو ولاختصار الطريق اتخذ الطريق المؤدي
بلدة «فيلا» ثم توقف بعد مسيرة حوالي نصف الساعة.

-هل سألته إلى أين أنتم ذاهبون؟

-بالطبع.

-ومماذا أجابك؟

-كان أخرس كأنه لم يتكلم في حياته قط، وبعد نصف ساعة أنزلني
بمكان ليس به مخلوق وأشار إليّ بأن أسلك طريق ريفي لا يمر به
حتى ولو كلب وعند لحظة معينة - ولا أدري من أي جحيم خرج-
ظهر لي طانو اليوناني فصدّمت وخارت قوى قدماي. أدرك خطورة
الموقف؟ إنه ليس جُنْ مئّي؛ بل أن الشخص قد ارتكب خمس جرائم
قتل.

-كيف خمس؟

-ماذا؟! وأنتم كم جريمة اتضحت لكم عنه؟

-ثلاث.

-لا يا سيدي إنهم خمس وهذا مؤكد مائة بالمائة.

-حسنًا أكمل.

-أخرجت كل ما كان بحوزتي من مال، وحيث أنني كنت أدفع
الإتاوة دائماً بانتظام؛ ظننت أن طانو يريد زيادة المبلغ، وأنا لايمكنني
الاعتراض على مثل تلك الأمور وهم يعرفون ذلك، لكنني كنت
مخطئ فلم تكن المسألة مسألة مال.

-وماذا كان يريد إذًا؟

-دونما حتى أن يلقي عليّ السلام سألني ما إذا كنت أعرفك أم لا.

ظن مونتالبانو أنه أساء الفهم وقال:

-ما إن كنت تعرف من؟

-أعرفك أنت يا سالفو.. أنت.

-وأنت ماذا قلت له؟

-أجبتة وقد أبللت سروالي من الرعب بأنني أعرفك بالطبع، لكن أعرفك معرفة سطحية: صباح الخير.. مساء الخير فقط، لا بد وأنه صدّقني، نظر لي بطرف عينيه واللتان بدتا كعينين تمثال ثابتتين وميتتين بعد ذلك أمال رأسه للخلف وضحك ضحكة خفيفة وسألني إذا كنت أريد أن أعرف كم عدد الشعرات في مؤخري، أغلب الظن أنهم اثنتان على الأكثر، يقصد بذلك أنه يعرف عن حياتي بدايتها ونهايتها -والتي أتمنى أن تأتي في أبعد وقت ممكن- لذا خفضت ناظريّ إلى الأرض ولم أفتح فمي مرة أخرى، عندئذٍ أمرني بإخبارك أنه يريد رؤيتك.

-متى وأين؟

-فجر الليلة، وسأبين لك الآن المكان.

-أتدري ماذا يريد مني؟

-لا أعرف ولا أريد أن أعرف، لقد طلب مني إقناعك بأن يمكنك الثقة به كأخيك.

«كأخيك».. بدلاً من أن تهدئ تلك الكلمة مونتالبانو أصابته برعشة مزعجة في ظهره فقد كان على علم بأن أول جريمة قتل من بين الثلاث جرائم أو الخمس التي ارتكبتها طانو كانت جريمة قتل أخيه الأكبر نيكولينو؛ وقد قام أولاً بخنقه ولسبب غامض غير منطقي قام بسلخه بعناية. انغمس مونتالبانو في خيالات كثيفة، والتي ربما أصبحت أكثر كآبة بسبب كلام جيغيه الذي همس به إليه وهو

يضع يده على كتفه قائلاً:

-احترس يا سالفو هذا الشخص وحش مفترس.

بينما كان يقود السيارة في طريق عودته إلى المنزل كانت مصابيح سيارة جيجه الذي كان يتبعه تومض تكررًا ثم أصبح بمحازاته، اقترب جيجه من نافذة السيارة المجاورة لمونتالبانو وقدم له طردًا.

-لقد نسيت الحلوى.

-لقت ظننت أنها مجرد ذريعة وغطاء للقائي.

-وما ظنك بي؟ أنا شخص أعد بشيء وأخلف وعدي؟!

وانطلق وهو يشعر بالإهانة. قضى المأمور ليلة مرهقة؛ فقد كان أول ما خطر بباله هو أن يتصل برئيس المباحث وأن يعلمه بالتفاصيل حول كل التطورات التي قد تطرأ على الموضوع، بيد أن طانو اليوناني كان واضحًا في هذا الصدد؛ فمما قاله لـ جيجه: «لا يجب أن يخبر أحدًا عن الموعد ويجب أن يأتي بمفرده». لكن هذا ليس الموقف المناسب للعبة العسكر واللصوص فيتحتّم على مونتالبانو أن يؤدي واجبه بأن يبلغ رؤسائه ليقوموا باستعداداتهم بأدق التفاصيل من حيث أعمال نصب الأكمنة والضبط وربما بالمجيء بتعزيزات لازمة.

كان طانو هاربًا من العدالة منذ قرابة العشر سنوات، أذهب مونتالبانو لزيارته بكل أريحيه وكأنه صديقًا عائدًا من أمريكا؟ وألا يتحدث معه حتى عن موضوع هروبه؟ لكن هذا لا يصح؛ فرئيس المباحث لابد أن يكون على علم بما يحدث.

اتصل هاتفياً بمنزل رئيسه في مدينة «مونتلوز»، فجاءه صوت ليفيا من مدينة «بوكاديسيه» بإقليم «جنوة»:

-أهذا أنت يا حبيبي؟

لكن مونتالبانو ظل حبيس النفس لبرهة، يبدو أن فطرته لازالت تحمله على عدم التحدث مع رئيس المباحث مما جعله يخطئ في طلب رقم الهاتف.

-سامحيني، منذ قليل جاءتني مكالمة هاتفية مفاجئة أجبرتني على الخروج.

-لا عليك يا سالفو، أنا أتفهم طبيعة عملك، بل اعذري أنت على اندفاعي فقد كنت محبطة.

نظر مونتالبانو إلى ساعته وجد أنه لا زال لديه ما لا يقل عن ثلاث ساعات قبل أن يذهب للقاء طانو.

-يمكننا التحدث الآن إذا أردت.

-الآن؟ معذرة سالفو! ليس نكاية فيك ولكن أفضل ألا نتحدث الآن؛ فلقد تناولت العقار المنوم والآن أستطيع بالكاد أن أفتح عيني.

-حسنًا حسنًا، إلى اللقاء غدًا، أحبك ليفيا.

تغير صوت ليفيا فجأة وأصبحت متيقظة ومحتدة:

-ما بك؟ ما الأمر سالفو؟

-لا شيء، وما عساه أن يكون؟

-لا يا عزيزي أنت لا تُصدّقني القول، هل أنت قادم على القيام بأمر خطير؟ لا تقلقني يا سالفو.

-ما الذي أوحى لك بتلك الأفكار؟

-أخبرني بالحقيقة يا سالفو.

-أنا لن أقوم بأي عمل خطير.

-وأنا لا أصدق ذلك.

-ولماذا بحق المسيح؟!

-لأن منذ بداية ارتباطنا لم تقل لي كلمة «أحبك» إلا ثلاث مرات فقط، لقد أحصيتهم وفي كل مرة كنت تقولها لي يكون بسبب وقوع أمر طارئ.

كان الحل الوحيد هو مقاطعتها؛ فمن الممكن أن يطلع الصباح وليفيا لم تنه حديثها بعد..

-وداعاً حبيبتي، فلتنامي جيداً ولا تكوني سخيفة، وداعاً؛ لابد أن أخرج ثانيةً.

والآن كيف يمكنه قضاء الوقت؟ قام بالاستحمام، وقرأ بضع صفحات من كتاب (مونتالبان) رغم أنه لم يفهم منها سوى القليل، أخذ يتسكع من غرفة لأخرى وأحياناً يُعدّل من وضع لوحة ما، وأحياناً أخرى يعيد قراءة خطاب أو فاتورة أو مذكرة ويضع لمسته على كل ما تطوله يده، ثم استحم مرة أخرى وحلق ذقنة مسبباً جرحاً واضحاً فيها، بعد ذلك قام بتشغيل جهاز التلفاز ثم لم يلبث أن أطفأه فوراً؛ فقد أصابه بالنفور. أخيراً حان الموعد وكان جاهزاً للخروج، أراد أن يلتقم قطعة من حلوى النبيذ الإيطالي، لكنه اندهش بشدة حينما اكتشف أن الطرد الموضوع على المائدة كان قد فُتح ولم يعد في داخل علبة الكرتون ولا قطعة حلوى واحدة! فقد أكلهم دون أن يشعر بسبب التوتر، والأغرب من ذلك أنه حتى لم يستمتع بهم.



الفصل الثاني

التفت مونتالبانو بهدوء كي يكظم الغيظ الذي انتابه فجأة؛ لأن طانو قد أمسك به من كتفه على حين غرة، كتلميذ وبدون أي سابق إنذار؛ حيث أنه لم يتمكن من سماع أدنى صوت، وراح يحدث نفسه قائلاً: «واحد صفر لصالحك، أكمل»

تعرف مونتالبانو عليه فوراً -وإن لم يكن قد رآه منذ وقت قريب- حينما قارن ملامحه الآن بملامحه منذ عدة سنوات خلت، فقد نمت لحية وشارب طانو، لكن عيناه ظلتا كما هما خاليتان من أي عاطفة؛ كالتمثال تماماً كما قال جيجيه. انحنى طانو اليوناني إنحناءً خفيفاً ولم يكن في تصرفاته أدنى حركة تنم عن قيامه بأي عمل استفزازي أو سخرية، بادلته تلقائياً مونتالبانو الإنحناء الخفيف فمال طانو برأسه للخلف وراح يضحك:

-نحن نبدو كشخصين يابانيين، هؤلاء المحاربين بالسيف والدرع بماذا يسمون؟

-ساموراي.

فتح طانو ذراعيه ويبدو أنه يريد أن يعانق مونتالبانو..

-على شرف المعرفة الشخصية بالشخص المشهور المأمور مونتالبانو

قرر مونتالبانو أن يقاطع مراسم الاستقبال في منتصفها وأن يبادر هو بالحديث كي يضع اللقاء في مساره الصحيح.

-لم أكن أعرف مدى السرور الذي ستسببه معرفتي لحضرتك.

-على أي حال لقد سببت لي الكثير من السرور.

-هل يمكن لحضرتك أن تفسر لي ذلك؟

-هل يبدو لك هيئًا أنك تحدثني بصيغة الاحترام؟

-لم أجد شرطياً واحداً يحدثني بصيغة الاحترام، رغم أنني قابلت الكثير منهم.

-هل تضع في الحسبان -وأتمنى ذلك- أننا نتقابل وجهًا لوجه وأنا هنا أمثل القانون، بينما أنت طريد العدالة ومجرم خطير معتاد القتل؟

-أنا لست مسلحًا، وأنت؟

-ولا أنا..

مال طانو برأسه مرة أخرى للخلف وضحك بمِلء فيه.

-ظني بالناس لا يخطئ أبدًا أبدًا.

-سواء أكنت مسلحًا أم لا، فأنا لابد من أن أقبض على حضرتك.

-وها أنا ذا سيدي المأمور لكي تقبض عليّ، لقد التقيت بك بكامل إرادتي.

بلا شك كان صادقًا لكن تلك الصراحة الغير متوقعة هي ما جعلت مونتالبانو يتهيأ للدفاع عن نفسه، لم يتمكن من فهم ما يرنو إليه طانو.

-يمكنك أن تحضر إلى مقر الشرطة لتسليم نفسك هنا أو بـ«فيجاتا» كلاهما سواء.

-لا يا أفندم ليسا سواء، أنا أتعجب من أمرك وأنت تجيد القراءة والكتابة؛ فالكلمتان ليستا سواء؛ فأنا سأتركك تقبض عليّ ولست أسلم نفسي. فلتأخذ سترتك كي نتحدث بالداخل وسأفتح أنا الباب.

نزع مونتالبانو السترة من على فرع الزيتون ووضعها على ذراعه ثم دخل المنزل وراء طانو كان الظلام حالًا بداخل المنزل، أشعل اليوناني مصباح جازولين وأشار للمأمور بالجلوس على أحد المقاعد المجاورة لمنضدة صغيرة. كان كل ما يوجد في الغرفة: فراش قابل للطّي وفراش دون ملائنة ولا وسادة وخزانة صغير بواجهة زجاجية بداخلها زجاجات وكوؤس وخبز وأطباق وأكياس مكرونة وعلب صلصة ومعلبات، وكان بالأعلى دولاب مطبخ خشبي عليه أوانٍ ومراجل، وسُلم خشبي متهالك يؤدي إلى الطابق العلوي. لكن المأمور ثبت نظره على حيوان أخطر من البرص الذي كان ينام في درج لوحة تحكم سيارته، فقد كان هذا بالفعل ثعبانًا سامًا بمعنى الكلمة: إنه مدفع رشاش وُضِع قائمًا مسندًا إلى الحائط بجوار الفراش القابل للطّي.

راح طانو يتصرف كأبي صاحب منزل:

-هلمّ إلى النبيذ اللذيذ!

-حسنًا، أشكرك.

فمع البرد والليل والتوتر والتهام ما يزيد عن كيلوجرام من الحلوى
شعر مونتالبانو بحاجة ماسة للخمر.

قام اليوناني بصب الخمر ورفع الكأس:

-نخبك!

يعتبر النبيذ ذو أهمية؛ فأينما يوجد توجد معه البهجة ويمنح احتساؤه
الشعور بالراحة والطاقة

قال المأمور مجاملًا:

-إنه حقًا لذيذ.

-أتريد كأسًا آخر؟

ولكي لا يقع المأمور فريسة للإغراء قام بإبعاد الكأس بطريقة فظة..

-بل نريد التحدث.

-إذًا فلنتحدث، كنت أقول لك أنني أريد أن يتم القبض عليّ..

-لماذا؟

تسبب السؤال الذي قذفه مونتالبانو في إحراج طانو الذي لبث
لبرهة قبل أن يستطرد:

-أنا بحاجة للعلاج فأنا مريض.

-هل تسمح لي بالمقاطعة؟! بما أنك تعتقد أنك تعرفني جيدًا فرهما

تعرف أنني لست بالشخص الذي يمكن الاستهزاء به!

-أنا على يقين من هذا.

- فلم إذا تستهين بي وتقول تلك الترهات؟

-ألا تصدق سيادتك أنني مريض؟

-بلى أصدق، لكن الحماقة التي تريدني أن أصدقها هي أنك تحتاج لأن يُقبض عليك كي تعالج. من فضلك صح لي إن كنت مخطئاً، أنت قد تلقيت العلاج لمدة شهر ونصف في عيادة «مادونا دي لورديس» في مدينة باليرمو وبعد ذلك لمدة ثلاثة شهور بعيادة «جيتسماني» في مقاطعة تراباني حيث قام البروفيسور أمريجو جوارنيرا -على ما أظن- بإجراء عملية لك وعلى الرغم من تغير أحوالك بعض الشيء عما كانت عليه منذ بضع سنوات إلا أنك اليوم -إذا أردت- يمكنك أن تجد أكثر من مشفى مستعد أن يغض الطرف عن إبلاغ الشرطة بوجودك فيها. إذا فالمرض ليس السبب الذي من أجله تريد أن يُلقى القبض عليك.

-وإذا قلت لك أن حالتي تتدهور والوقت يمر سريعاً؟

-هذا يزيد من اقتناعي برأيي.

-اسمعي، المرحوم والدي كان رجلاً شريعاً في زمنًا كانت كلمة الشرف لها قيمتها، كان يحكي لي وأنا صغير أن عربة الخيول التي كانت تقل الرجال الأشراف كانت تحتاج إلى الكثير من الشحم لكي تدور عجلاتها بسرعة، ثم مضى جيل والدي، وعندما أصبحت أنا من يركب عربة الخيول قال لي أحد معارفنا: «وما يضطرننا إلى شراء ما نحتاج من الشحم من الساسة وعمداء المدن الذين لديهم البنوك والنساء الحسنات؟ فلنصنع نحن ما نحتاجه من شحم». لا بأس، أحسنت! ووافق الجميع، بالطبع كان هناك دومًا من يسرق الخيل من صاحبه ومن يعرقل طريق شريكه ومن يشرع في إطلاق

النار عشوائيًا على العربة أو على الجواد أو على الفارس الذي ينتمي لعائلة أخرى، كل هذه الأمور كان يمكن تسويتها فيما بيننا.

وكترت العربات ومُهدت طرق أكثر للمسير، وذات يوم جاء شخص عبقري بفكرة جميلة؛ وتساءل: «ما معنى أن نسير بعربات الخيول إلى الآن؟» إننا بذلك في غاية البطء فقال فلنسرّع من نمط حياتنا، كل العالم الآن يسير بالسيارات لا يمكننا تجاهل التقدم. لا بأس، أحسنت!

وتسابق الجميع في استبدال عربة الخيول بالسيارة، وفي الحصول على رخصة قيادة، فيما لم ينجح البعض في اجتياز اختبار مدرسة القيادة وخرج منها أو تم طرده، أصبح أحدنا لا يلبث أن يتعود على سيارته الجديدة حتى يخبرنا الصبيان الأصغر منا-والذين يغدون ويروحون بالسيارة منذ نعومة أظفارهم والذين درسوا القانون أو الاقتصاد في الولايات المتحدة أو ألمانيا- يخبرونا بأن سيارتنا بطيئة جدًا وأن في وقتنا هذا لا بد من ركوب سيارة سباق؛ سيارة فيراري أو ماسيراتي مزودة بهاتف لاسلكي وفاكس والتي تستطيع الإنطلاق كالصاروخ. هؤلاء الصبية صغار جدًا يتحدثون مع الأجهزة وليس مع الأشخاص حتى أنهم لا يعرفونك، لا يعرفون من أنت حتى لو يعرفوك سيتحدثون أيضًا مع الأجهزة بكل سرور حتى أنهم أصبحوا غير قادرين على التواصل فيما بينهم؛ يتحدثون من خلال الحاسوب، جملة القول: أن هؤلاء الصبية لا ينظرون في وجه أحد؛ فبمجرد أن يروك في مأزق مع سيارة بطيئة يقذفون بك إلى خارج الطريق دون حتى أن يترثثوا لتجد نفسك بداخل حفرة بعد أن تدق عنقك.

-وأنت لا تستطيع أنت تأتي بسيارة فيراري.

-بالضبط ولذا أفضل قبل أن أموت بداخل حفرة أن أنزوي إلى معزل.

-لكنك -فيما يبدو لي- ليس من نوع الناس الذي ينزوي بمحض إرادته.

-بل بمحض إرادتي سيدي المأمور، بمحض إرادتي، أؤكد لك ذلك، بالطبع هناك أكثر من طريقة لإقناع شخص ما بالتصرف وكأنه يتصرف بحريته وبمحض إرادته. كان لي صديق مثقف كثير القراءة، ذات مرة حكى لي القصة التي سأقصها عليك كلمة كلمة وكان قد قرأها في كتاب ألماني:

يحكى أن هناك رجل قال لصاحبه: أتراهنني أن قطتي تأكل دقيق الخردل الساخن والذي من شدة حرارته قد يثقب بطنك؟ فرد الصديق:

-إن القط لا تحب دقيق الخردل.

-ولكن أنا يمكنني أن أجعل قطتي تأكله فقال الصديق «هل ستجعلها تأكله بالضرب واللكمات؟»

-لا يا سيدي، بدون عنف ستأكله بحريتها وبمحض إرادتها.

وقبل الرهان، وجاء الرجل بملعقة مليئة بدقيق الخردل والتي بمجرد النظر إليها يشعر الشخص أن فمه مشتعل وأمسك الرجل بالقطعة و.. طاخ! قذف الملعقة على مؤخرة القطعة، والقطعة المسكينة عندما شعرت باحتراق مؤخرتها لهذه الدرجة أخذت تلحق وكأنها تلحق وتأكل بمحض إرادتها كل دقيق الخردل وهذا كله تم بدون أي عنف.

-الآن فهمت ، فلنواصل الحديث الذي بدأناه.

-كنت أقول لك أنني أود أن يقبض عليّ، لكنني أود أن يكون الأمر تمثيلي كي أحفظ ماء وجهي.

-لم أفهم.

-تعال وسأشرحك.

وأخذ يشرح طويلاً، وهو بين الحين والآخر يشرب كأس نبيذ وأخيراً اقتنع مونتابانو بأسباب الرجل ولكن هل يمكن له الثقة في طانوف؟

قد كانت هذه هي المعضلة الحقيقية. كان مونتالبانو في شبابه بارعاً في اللعب بالأوراق ولحسن الحظ صادفه طانو وهو يلعب بأوراق مزورة. فهل يصح أن يركن مونتالبانو إلى إحساسه ويثق في طانو أملاً ألا يكون قد أخطأ؟

قاما بوضع تفاصيل عملية القبض بتدقيق زائد كي يتجنباً أي شيء يعترضهما، وعندما أنهيا حديثهما كانت الشمس في كبد السماء قبل الخروج من المنزل وقبل بداية المسرحية نظر المأمور طويلاً إلى عينا طانو.

-قل لي الحقيقة!

-تحت أمرك أيها القائد مونتالبانو.

-لماذا اخترتني أنا بالتحديد؟

-لأنه اتضح لي أنك شخص يتفهم حقيقة الأمور.

بينما كان مونتالبانو ينزل مسرعاً على طول الطريق بين أشجار الكروم، تذكر أن من يبيت في نوبة حراسة مقر الشرطة هو أجاتينو كاتاريللا، وبالتالي فإن الاتصال الهاتفي الذي كان يعتزم إجراؤه للمكتب سيكون أمراً عسيراً، هذا إن لم يكن مصدرًا للكوارث والألغاز المحيرة فأجاتينو كاتاريللا بطيء التصرف، ومن المعروف أنه قد تم قبوله في الشرطة لصلته قرابة ليست بالوطيدة بينه وبين القائد المبجل كوزومانو الذي بعد أن قضى صيفاً كمدير لسجن «أوشاردونا» تمكن من إعادة توطيد علاقاته بقيادة جدد؛ كي يحصل على قطعة من التورته التي تتغير من حين لآخر بشكل عجيب؛ يكفي فقط تغيير بعض قطع الفاكهة أو وضع شموع جديدة بدلاً من تلك المستهلكة.

تعقدت الأمور أكثر لدى كاتاريللا؛ حين جاءته نزوة -الأمر الذي كان يحدث له كثيراً- بأن يشرع في التحدث بما يسميه هو الإيطالية.

حضر يوماً ووجهه تعلوه ملامح الجدية وقال:

-أيها القائد هل يمكنك أن ترشح لي طبيباً مختصاً؟

-مختصاً في أي شيء يا كاتاريه؟

-في الأمراض التناسلية.

أصيب مونتالبانو بالذهول من شدة الصدمة.

-أنت؟ مرض تناسلي؟ ومتى أصبت به؟

-أتذكر أن هذا المرض أصابني منذ طفولتي، كنت لم أتم ست أو سبع سنوات بعد.

-أي حماقات تلك التي تقولها لي؟! هل أنت على يقين من أنه مرض تناسلي؟

-على يقين تام يا قائدي، إنه يذهب و يجيء، يذهب و يجيء؛ إنه مرض تناسلي.

وهو في السيارة، في طريقه إلى كابينة هاتف يفترض أنها كانت عند تقاطع طرق «توري سانتا» (لابد وأنه قد تم فصل وإزالة السماعة وسرقة جهاز الهاتف واختفاء الكابينة نفسها)

قرر مونتالبانو ألا يتصل حتى بنائبه ممي أوجيللو لأنه بلا شك هو من سيبلغ الصحفيين أولاً، ثم يتظاهر بعد ذلك بالدهشة لحضورهم.

لم يتبق إلا فاتسيو وتورتوريلا وهما أمينني الشرطة أو كما لا يدري بأي مسمى قبيح يسميان الآن، وقد وقع اختياره على فاتسيو، فقد كان تورتوريلا منذ وقت مضى قد أصيب بطلق ناري في البطن وإلى الآن لم يتم شفاؤه؛ فمن حين لآخر يؤلمه موضع الإصابة. الغريب

أن الكابينة مازالت موجودة، والهاتف لا يزال يعمل بمعجزة وقد رد

فاتسيو على الهاتف قبل حتى أن تنتهي رنة الجرس الثانية.

-فاتسيو! أمازلت مستيقظًا إلى هذا التوقيت؟!

-أجل سيدي القائد، منذ نصف دقيقة تقريبًا اتصل بي كاتاريللا.

-وماذا كان يريد؟

-لم أفهم منه جيدًا، لقد أخذ يتحدث بلغته الإيطالية الغربية، فيما يبدو أن لصوصًا قد نهبوا متجر كارميلو إنجراسيا هذه الليلة؛ ذلك المتجر الضخم الموجود خارج البلدة، لقد ذهبوا إلى هناك على الأقل بشاحنة بها تريلا أو شاحنة ضخمة.

-ألم يكن الحارس الليلي متواجدًا؟

-بلى، كان هناك ولكنه لم يحضر الواقعة.

-هل أنت ذاهب إلى هناك؟

-أجل.

-بل دعك من هذا، اتصل فورًا بتورتيللا وقل له أن يبلغ أوجيللو وسيذهبان هما، وقل أنك لن تستطيع أن تذهب إلى هناك وألف لهما أي حكايات مثلاً: أنك سقطت من على الفراش وارتطمت رأسك، كلا، قل لهما أن رجال الشرطة جاءت للقبض عليك، أو من الأفضل أن تتصل وتطلب منه إبلاغ الفرقة العسكرية، فحتى إن كان الأمر تافهًا ومجرد سرقة حمقاء ستُسَرَّ الفرقة لذلك؛ لأننا دعوناهم للتعاون معنا. الآن اصغ لي جيدًا! ابلغ تورتيللا وأوجيللو والفرقة العسكرية، واتصل كذلك بـ'جاللو' و'جالوتسو'... أيتها العذراء!

1- و تعني الديك

2- و تعني الفرخ الصغير (المترجم)

أشعر بأنني في حظيرة دجاج- واتصل كذلك بجيرمانا وتعالوا إلى حيث ما سأخبركم أنا وتسلحوا جميعكم بمدافع رشاشة.

-اللعنة!

-أجل سيدي إنها اللعنة، إنه أمر خطير لابد أن يتم بحذر، يجب ألا يُغفل أحد حرفًا واحدًا خاصة جالتوسو الذي له قريب صحفي وأوص جاللو بألا يقود السيارة وكأنة في مدينة «انديانابوليس»؛ بدون صافرة إنذار وبدون وميض ففي العواصف والموج العالي يهرب السمك، والآن انتبه فسأشرح لك أين يجب عليك أن تذهب.

وصلوا في هدوء بعد ما يقرب من نصف ساعة من المكاملة، وكانوا يبدوون كأنهم طاقم حراسة عادية، نزلوا من السيارة وتوجهوا نحو مونتالبانو الذي أشار لهم بأن يتبعوه وتجمعوا خلف منزل شبه متهدم بحيث لا يمكن رؤيتهم من الطريق السريع.

قال فاتسيو للمأمور:

-مدفعك الرشاش معي في السيارة.

-ضعه في مؤخرتك! انتبهوا لي، إذا أبلينا بلاءً حسنًا في تلك المأمورية سنتمكن من القبض على طانو اليوناني.

بالفعل كان مونتالبانو يدرك أن رجاله حُبست أنفاسهم لبرهة عند سماع ذلك، تعجب فاتسيو الذي كان أول من رد:

-هل طانو اليوناني في تلك المنطقة؟

-لقد رأيته جيدًا، إنه هو لقد أطلق لحيته وشاربه لكنني تعرفت عليه رغم ذلك.

-وكيف تمكنت سيادتك من مقابلته؟

-فاتسيو لا تضايقني! سأشرح لك كل شيء فيما بعد. يتواجد طانو

في منزل على قمة هذا المرتفع لا يمكن رؤيته فهو محاط جيدًا بأشجار الزيتون العربي، المنزل مكون من غرفتين واحدة فوق الأخرى، في الواجهة يوجد باب ونافذة، وتوجد نافذة أخرى في الغرفة العلوية لكن من الخلف. واضح؟ هل فهتمم كل شيء؟ لا توجد طرق أخرى أمام طانو إلى الخروج سوى تلك التي أمام المنزل، وإلا سيلقي بنفسه يائسًا من نافذة الغرفة العلوية، صحيح أنه يستطيع لكن ستكسر ساقه. إذًا فما سنفعله كالآتي:

فاتسيو وجاللو سيذهبان إلى الناحية الخلفية من المنزل وأنا وجيرمانا وجالوتسو سنكسر الباب ونقتحم.

بدا على فاتسيو الارتياح..

-ما بك؟ ألا توافق؟

-أليس من الأفضل أن نحاصر المنزل ونطالبه بالاستسلام؟ نحن خمسة ضد واحد، لن ينجح في الهرب.

-وهل تضمن أن بالداخل لا يوجد أحد برفقة طانو؟

فسكت فاتسيو..

فقال مونتاالبانو مختتمًا نصيحته العسكرية الموجهة:

-انتبهوا! من الأفضل اقتناص بيض عيد الفصح عن طريق المباغثة.





الفصل الثالث

قدّر مونتالبانو الوقت فوجد أن فاتسيو وجاللو متربصين خلف المنزل منذ ما لا يقل عن خمس دقائق، أما هو فقد انبطح أرضاً على بطنه وسط الحشائش، ممسك المسدس في يده كما كان هناك حجر يضغط بشكل مزعج على فم معدته، انتابه شعور عميق بأنه مثير للسخرية فقد بدا كبطل من أبطال فيلم من أفلام حرب العصابات؛ لذلك كان يتشوق لإعطاء إشارة البدء لرفع الستار. نظر إلى جالوتسو الذي كان إلى جواره -فيما كان جيرمانا أكثر بعداً عنه إلى يمينه- وسأله هامساً:

-مستعد؟

-أجل.

أجابه الشرطي وقد بدا أنه في قمة توتره وكان يتصبب عرقاً، حزن مونتالبانو لأجله، إلا أنه لا يستطيع إخباره بأن الأمر ما هو إلا تمثيلية، صحيح أن النهاية غير مضمونة لكنها تبقى تمثيلية، فأمره المأمور:

-فلتذهب!

وكان جالوتسو انطلق من فوق (سوستة) مضغوطة إلى أقصى حد؛ فقد كاد ألا يلامس الأرض ووصل إلى المنزل بثلاث وثبات فقط، التصق بجدار على يسار الباب، رغم أنه كان لا يبدو عليه الإجهاد إلا أن المأمور لاحظ أن صدر جالوتسو يعلو ويهبط من سرعة التنفس، أمسك جالوتسو جيداً بمدفعه الرشاش وأشار للمأمور بأنه مستعد للجزء الثاني، نظر مونتالبانو إلى جيرمانا والذي لم يكن هادئاً فقط، بل كان بالفعل مسترخياً.

-سأذهب أنا.

قالها جالوتسو دون صوت فقط حرك شفتاه بشكل واضح مبرراً مقاطع العبارة، فأجابه جيرمانا بنفس الطريقة مشيراً برأسه إلى المدفع الرشاش الذي يحمله بين يديه:

-أنا سأؤمنك.

أقل ما يقال عن أول وثبة للمأمور أنها ممتازة إن لم تكن مثالية؛ فقد كانت ثابتة ومترنزة كأنها وثبة لاعب وثب مسافات طويلة؛ حيث تعلق بخفة في الهواء وكان هبوطه سلس ومنظم لدرجة تبهر راقص بالية، فيما كان جالوتسو وجيرمانا ينظران إليه من زاويتين مختلفتين وهما سعيدان بحضور قائدهما. جاءت بداية الوثبة الثانية أفضل حالاً من الأولى، لكن أثناء تعلق مونتالبانو بالهواء حدث له شيء مفاجئ مما جعله ينحني كبرج بيزا المائل بعد أن كان معتدل القامة فيما كان السقوط كحركة بهلوانية بالضبط: بعد أن ترنح فتح ذراعية بحثاً بلا جدوى عن متكاً؛ فسقط بقوة على جنبه، تحرك جالوتسو تلقائياً لتقديم له يد العون ثم توقف سريعاً والتصق بالجدار، كذلك جيرمانا نهض فجأة ثم لم يلبث أن طأطأ. حدث المأمور نفسه قائلاً: «حمداً لله أن الأمر تمثيلي وإلا لكان طانو أصابهما مثل قوارير البولينج».

أخذ مونتالبانو يبحث عن مسدسه الذي سقط من يده أثناء سقوطه، وفي أثناء بحثه كان يتلفظ بأقذع الشتائم من بين قائمة السباب الطويلة التي لديه، وجد المسدس أخيراً تحت شجيرة بطيخ بري وبمجرد أن أنزل ذراعه إليها كي يلتقط مسدسه انفجرت ثمار البطيخ وغمرت وجهه بالبذور، بشيء من الحزن الممزوج بالغضب تراجع مونتالبانو من مكانة بطل فيلم العصابات إلى شخصية من فيلم لـ أبوت وكوستيلو^١ فالآن لم يعد يشعر بأنه بطل رياضي ولا حتى راقص باليه لذلك قطع المترات القليلة التي تفصله عن المنزل بخطوات متمهلة وكان مطأطأ بعض الشيء.

تحدث كلاً من مونتالبانو وجالوتسو بدون صوت، فقط بمجرد النظر واتفقا، ابتعدا ثلاث خطوات عن الباب -والذي لم يبد أنه صليداً لدرجة كبيرة- ثم حبسا نفسيهما وصدما الباب بكل ثقلهما، اتضح أن الباب مصنوع من كرتون وورق شفاف، فرميا كانت تكفي ضربة يد واحدة لإسقاطه لذلك اندفع الاثنان إلى الداخل. نجح المأمور في التوقف بأعجوبة فيما تجاوز جالوتسو الغرفة بأكملها -بسبب الاندفاع- وارتطم وجهه بالحائط، أصيب أنفه وكاد أن يختنق بسبب الدماء المتدفقة بغزارة. أعجب المأمور بتمثيل طانو في ضوء مصباح الجازولين الخافت الذي تركه طانو مشتعلًا، وكأنه ممثل قدير فقد تظاهر بأنه تفاجأ أثناء نومه، وهبَ واقفاً وهو يصيح بالسباب وهرع إلى سلاحه الكلاشنكوف الذي كان بعيداً عن الفراش ومسنداً إلى المنضدة، كان مونتالبانو جاهزاً لأداء دور الكُمبارس كما يقال في المسرح:

-باسم القانون أمرك أن تثبت مكانك! اثبت مكانك وإلا أطلقت النار!

هكذا صاح مونتالبانو بأعلى صوته وأطلق أربع رصاصات باتجاه السقف، تسمّر طانو ورفع ذراعيه حيث أنه كان على يقين بوجود من يتربص له في الغرفة العلوية وأطلق جالوتسو عدة

طلقات متتابعة من مدفعه الرشاش باتجاه السلم الخشبي. عندما سمع جالو وفاتسيو هذه الطلقات أطلقا طلقات تحذيرية باتجاه النافذة، كان جميع من بداخل المنزل منزعجون من صوت الطلقات في الوقت الذي وصل فيه جيرمانا ليزيد الطين بلة:

-فليثبت الجميع وإلا أطلقت النار!

لم يلبث أن ينهي أمره التحذيري حتى دفعه فاتسيو من ظهره مما اضطره للوقوف إلى جوار مونتالبانو وجالوتسو والذي بعد أن وضع مدفعه الرشاش أخرج من الحقيبة منديلاً حاول به إيقاف نزيف أنفه، كان الدم قد لطح قميصه ورباط عنقه وسترته فعندما رآه جالو استشاط غضبًا:

-هل أطلق النار عليك؟! هل أطلق النار عليك ذلك الوغد؟!

فيما كان طانو لم يزل في هدوء تام في انتظار أن ينهي الشرطيون تلك القضية التي يؤلفونها، ثم ردّ جالوتسو بصوت غير واضح:

-كلا، لم يطلق النار عليّ؛ لقد ارتطمت بالحائط.

لم يكن طانو ينظر لأحد؛ فقد كان ينظر إلى طرف حذائه، حدث مونتالبانو نفسه قائلاً: «ربما يريد طانو الضحك» ثم أعطى أمرًا صارمًا لجالوتسو:

-فلتشد وثاقه!

سأل فاتسيو بصوت منخفض:

3- ثنائي كوميدي أمريكي أول ظهور لهما كان في فيلم one night in the tropics عام ١٩٤٠ (المترجم)

-أهو هو؟

-أجل إنه هو، ألا تعرفه؟

-وماذا سنفعل الآن؟

-فلتضعوه في السيارة ولتذهبوا به إلى المباحث العامة في مدينة مونتلوذا، واتصل هاتفياً برئيس المباحث وأنتم في الطريق واطرح له كل شيء وهو سيخبرك بما يجب فعله، وحاولوا ألا يراه أو يتعرف عليه أحد؛ يجب أن تظل عملية القبض في الوقت الحالي في غاية السرية، هيا انطلقوا.

-وماذا عن سيادتك؟

-سألقي نظرة على المنزل وسأفتشه؛ فلا أحد يعرف عنه شيئاً.

فاتسيو ومن معه من شرطين جعلوا طانو بينهم مقيداً وتحركوا للخروج، أمسك جيرمانا بكلاشنكوف المجرم، فقط عند تلك اللحظة رفع طانو اليوناني رأسه ونظر لبرهة إلى مونتابانو، لاحظ المأمور أن نظرة التمثال قد اختفت وأصبحت تلك العيون الآن تنبض بالحياة بل تكاد تكون مبتسمة. عندما غاب الخمس أفراد عن الأنظار في نهاية الطريق عاد مونتابانو إلى داخل المنزل لبدء عملية التفتيش، فتح الدولاب وأخذ زجاجة النبيذ التي كانت ماتزال ممتلئة إلى منتصفها ووضعها في ظل شجيرة زيتون كي يشربها كلها في هدوء. وبهذا تم القبض على المجرم الهارب بسهولة.

ممي أوجيللو الذي بدا وكأنه ليس في وعيه بمجرد أن رأى المأمور

في المكتب صب عليه لعناته:

-أين كنت؟! أين كنت مختبئ؟! وما مصير باقي الرجال؟ أليق بك أن تتصرف كعاهرة بنت عاهرة؟!

لابد وأنه بالفعل حانق؛ حيث أنه يتحدث بمثل هذه الطريقة العنيفة؛ فهما يعملان سوياً منذ ثلاث سنوات ولم يسمع المأمور من نائبه مثل ذلك السباب، كلا؛ ففي تلك المرة التي أطلق فيها ذلك الأحمق النار على بطن تورتيلا تصرف ممي بنفس الطريقة:

-ممي ماذا دهاك؟

-ماذا دهاني؟ أنا مرعوب، مرعوب!!

-مرعوب؟ ومما؟!

-لقد اتصل هنا ما لا يقل عن ستة أشخاص، كل واحد يحكي تفاصيل مختلفة لكن اتفقوا جميعاً على أصل الحكاية: تبادل لإطلاق النار أسفر عن قتلى ومصابين، هناك واحدًا تحدث عن مجزرة، وأنت لست بالمنزل وفاتسيو والآخرين خرجوا بالسيارة دون إخبار أحد بشيء، لقد كنت أظن أنني على علم بما يجري، هل كنت مخطئاً؟

-لا لست مخطئاً، لكن لا يجب أن تلقي باللوم عليّ أنا بل على الهاتف إنه ذنبه هو.

-وما علاقة الهاتف بالأمر؟

-كيف ذلك؟! بل له علاقة؛ لأن الهاتف موجود اليوم في كل مخزن تبين حقير، فماذا يفعل إذاً أولئك الذين لديهم الهاتف في متناول يدهم؟ إنهم يتصلون يبلغون بأمور حقيقية وأخرى من وحي الخيال،

وأشياء ممكنه وأخرى مستحيلة، وأمور من الأحلام كما في مسرحية إدواردو⁴ ما اسمها؟ آها، «أصوات بالداخل». إن الناس تهوّل وتهوّن من الأمور بدون أن تذكر اسم ولقب من يتحدث، يقومون بالاتصال بالخطوط الساخنة حيث يستطيع المرء أن يبلغ بأحمق البلاغات في العالم دون حتى أن يتحمل مسئوليتها، وفي ذلك الصدد يتحمس الخبراء كثيرًا في أمور المافيا ويقولون: إن التستر على الجريمة في صقلية يقل، إن معدلات التشكيلات العصابية يتراجع، إن الخوف يتناقص، وفي الحقيقة لاشيء يقل؛ فما يحدث هو أن فاتورة الشركة الإيطالية للاتصالات هي التي تزداد.

-مونتالبا لا تزعجني بثرثرتك! أصحيح وجود ثمة جرحى وقتلى؟

-لا ليس حقيقياً على الإطلاق، لم يحدث تبادل لإطلاق النار؛ لقد أطلقنا عدة أعيرة نارية في الهواء فقط، ولم يحدث إلا أن أصيب جالوتسو في أنفه، وقد استسلم ذلك الرجل.

-أي رجل؟

-هارب من العدالة.

-أعرف، لكن من هو تحديداً؟

وصول كاتاريللا وهو مهموم أنقذ المأمور من حرج الإجابة:

-أيها القائد! إن السيد رئيس المباحث على الهاتف.

فقال المأمور وهو يغوص خلف مكتبه:

-سأخبرك لاحقاً..

...

4- إدواردو دي فيليبو هو كاتب مسرحي و ممثل ومخرج وشاعر وهو أحد أعلام الثقافة الإيطالية في القرن العشرين (المترجم)

-صديقي العزيز، أتحدث إليك لأقدم أحرّ التهاني.

-أشكرك.

-سيادتك قمت بضربة موفقة، أتعرف ذلك؟

-لقد حالفنا الحظ.

-يبدو أن هذا المتهم أهمّ كثيرًا مما حاول الظهور به دائمًا.

-أين هو الآن؟

-في طريقه إلى مدينة باليرمو فهكذا أرادوا في جهاز مكافحة المافيا، لم يكن باليد حيلة. حتى أن رجالك لم يتمكنوا من التوقف في مدينة مونتولوزا فتابعوا المسير وقد زودتهم بسيارة احتياطية بالإضافة إلى سياراتي الأربع.

-لم تتمكن من التحدث إلى فاتسيو إذًا؟

-لم أتمكن ولم يكن لدي الوقت لذلك؛ فالواقعة شغلتنني عن كل شيء، لذلك سأكون ممتنًا إذا جئتنني في مكتبي كي تقص عليّ التفاصيل.

حدّث مونتالبانو نفسه متذكرًا ترجمة تعود إلى القرن التاسع عشر لحوار داخلي لهاملت وقال لنفسه: «هذه هي المعضلة» ولكنه اكتفى بسؤال رئيس المباحث:

-متى يمكنني أن أحضر إليك؟

-فليكن في حوالي الخامسة، بالمناسبة.. لقد أوصوا في باليرمو بالتعقيم الكامل على تلك المأمورية على الأقل في الوقت الحالي.

-بالنسبة لي أنا فـ..

-لا أتكلم عن سيادتك فأنا أعرفك جيدًا فالأسماك مقارنةً بك تعتبر كائنات ثرثرة، بالمناسبة اسمع..

إلى هنا توقف الحديث فقد كَفَّ رئيس المباحث عن الحديث، كما أن مونتالبانو لم يعد لديه رغبة في مواصلة الاستماع إليه. عبارة المدح (أنا أعرفك جيدًا) راحت ترن كجرس مزعج في رأس مونتالبانو.

عاود رئيس المباحث الاستطراد في حديثه مترددًا، فيما كان ذلك الجرس يرن بقوة أكبر خلال هذا التردد.

-اسمع يا مونتالبانو.

-تفضل.

-أظن أنني في هذه المرة لن أستطيع ألا أمنحك الترقية إلى درجة نائب رئيس المباحث.

-أيتها العذراء! ولما؟!

-لا تكن سخيًّا يا مونتالبانو

-سامحني في هذا السؤال، ولكن لماذا يتحتم عليّ أن أترقى؟

-يالاه من سؤال! لما قمت به صباح اليوم.

شعر مونتالبانو بالبرد والحر في نفس الوقت، كانت جبهته تتصبب عرقًا فيما كان ظهره متجمدًا فلقد أزعجه ما سمع:

-سيدي، أنا لم أقم بشيء يفوق ما يقوم به زملائي كل يوم.

-أنا لا أشك في ذلك، لكن عندما ينتشر خبر عملية الضبط تلك، ستثير جدلاً واسعاً.

-ألا يوجد أي أمل في عدم الترقى؟

-هيا اذهب ولا تتصرف كالأطفال!

أحس المأمور كأنه سمكة تونة في غرفة الموت⁵ يشعر باختناق، يفتح ويغلق فمه بلا جدوى ثم يحاول يائساً الخروج.

-لا يمكننا إلا قول إنه خطأ فاتسيو.

-ماذا قلت؟ خطأ؟!

-عفوًا، لقد أخطأت، أقصد القول بأن الفضل يعود إلى فاتسيو.

-أراك لاحقًا يا مونتالبانو.

ارتسمت على وجه أوجيللو الذي كان يتربص خلف الباب علامات الاستفهام.

-ماذا قال لك رئيس المباحث؟

-لقد تحدثنا عن الموقف الراهن.

-يا لمنظر وجهك!

-وما به؟

-إنه مُرهق.

5- غرفة الموت هو اسم يطلق على جزء من شبك الصيادين التي يبسطوها كي يصطادوا سمك التونة ويقسموا شباكهم لعدة أجزاء ليس لها قعر إلا الجزء الأخير منها وهو الوحيد الذي له قعر ويسمى غرفة الموت (المترجم)

-قد يكون عسر هضم لما أكلته ليلة أمس.

-وماذا أكلت ليلة أمس؟

-حوالي كيلوجرام ونصف من حلوى النبيذ الإيطالي.

نظر إليه أوجيللو متحيراً وشعر مونتالبانو بأن أوجيللو على وشك السؤال عن اسم الهارب المقبوض عليه، انتهز الفرصة لتغيير الموضوع، ولأن يلهي الرجل بموضوع آخر:

-هل وجدتم الحارس الليلي؟

-أتقصد حارس المتجر؟ لقد وجدته أنا، كان اللصوص قد ضربوه ضربة شديدة جداً على رأسه وكمموه وشدوا وثاق يديه إلى رجليه وألقوه به في داخل مبرد كبير.

-هل مات؟

-لا، ولكن أظن أنه ليس في وعيه؛ فعندما أخرجوه كان يبدو كالمسكة المملحة العملاقة.

-هل تصورت طريقة ارتكاب الجريمة؟

-لدي شبه تصور عنه فيما كان ضابط القوة المسلحة له تصور آخر لكن الشيء المؤكد هو أنهم استعانوا بشاحنة ضخمة لحمل كل هذه المواد ، وللتحميل لابد وأنهم جهزوا فريقاً مكوّن مما لا يقل عن ستة أشخاص يوجههم شخص محترف.

-اسمع يا أوجيللو، سأمرّ على المنزل أغير ملابسني وأعود.

عند بلدة «مارينيللا» أدرك أن مؤشر خزان الوقود أخذ يومض، توقف عند محطة وقود حيث وقع حادث تبادل لإطلاق النار منذ وقت مضى وأراد استيقاف عامل محطة البنزين ليستجوبه عن كل ما عاينه.

بمجرد أن رآه عامل المحطة -والذي لم يكن يحمل أي مشاعر كره تجاهه- حياه بصوت بارد وحاد مما جعل المأمور يقشعر بعد أن ملأ الخزان، عدّ عامل المحطة النقود ثم نظر إلى المأمور فقال له المأمور:

-ما الأمر؟ هل أعطيتك أقل من سعر ما أخذت من وقود؟

-لا ياسيدي النقود كاملة، بل كنت أريد أن أخبرك بشيء ما.

وحيث أن العامل كان يتحدث ببطء بعض الشيء فقد أثار غضب المأمور، قال له المأمور بنفاذ صبر:

-فلتقل إذًا!

-انظر إلى تلك الشاحنة.

وأشار العامل إلى مركبة ضخمة بها عربة مقطورة تقف في الساحة خلف محطة الوقود وقد تم بسط القماش المشمع جيدًا لإخفاء الحمولة، واستطرد العامل قائلاً:

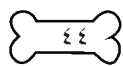
-عندما بدأت الدوام بالمحطة في ساعة مبكرة من صباح اليوم، كانت هذه الشاحنة هنا وقد مضت أربع ساعات ولم يأت أحدًا ليأخذها.

-هل تحققت من أن أحدًا ما ينام بداخل الكابينة أم لا؟

-أجل وتبين لي عدم وجود أي شخص، وكان يوجد شيء آخر غريب؛ كانت المفاتيح لا زالت معلقة في مكانها فقد كان بمقدور أي شخص مار أن يدير المحرك ويسرقها.

فقال له المأمور فجأة وبشغف:

-فلتري إياها!





الفصل الرابع

بدا مهندسًا، ذو شارب رفيع كذيل الفأر، ابتسامته سمجة، ويرتدي نظارة بإطار ذهبي، وكذلك حذاء بني اللون، وجواربًا بنية، وبذة بنية، وقميصًا ورباط عنق بنين، لقد كان بالفعل كابوس بنيًا؛ إنه كارميلو أنجراسيا مالك المتجر، فرد بأصبعه ثنية القدم اليمنى للبنطال التي كان يضعها على قدمه اليسرى وكرر للمرة الثالثة روايته الكاذبة للأحداث:

-سيدي المأمور لقد كان مجرد مزاح، لقد أرادوا أن يمزحوا معي.

راح مونتالبانو يحملق في القلم الحبر الذي كان بيده، وركز بنظرة على غطاء القلم فنزعه وأخذ يتفحصه من الداخل والخارج وكأنه لم ير في حياته شيئًا تافهًا كهذا، نفخ بداخل غطاء القلم لتنظيفه من بعض ذرات التراب الغير مرئية، نظر له مرة أخرى فلم يرض بذلك ونفخ فيه مرة أخرى ثم وضعه على المكتب، فكّ السن المعدني وأخرجه، ثم أخذ يفكر قليلًا ووضعه بجوار الغطاء، تفحص

جيدًا الجزء الأوسط من القلم الذي بيده ووضعه إلى جوار الجزئين الآخرين ثم أخذ نفسًا عميقًا. هكذا نجح مونتالبانو أن يهدئ نفسه وأن يسيطر على اندفاعه الذي تغلب عليه للحظة لدرجة أنه نهض ودنا من أنجراسيا وأن شجَّ وجهه بلكمة ثم سأله:

-فلتقل لي بكل صراحة أنا أمزح معك بهذا أم أنني جاد؟

يعرف تورتيلا -والذي كان يحضر المقابلة- بعض ردود فعل رئيسه؛ لذا بدا على تورتيلا الهدوء ، تمالك مونتالبانو أعصابه تمامًا وقال:

-فسّر لي الأمر.

-وما هو الغامض سيدي المأمور؟ إن كل شيء واضح ووضح الشمس: البضاعة المسروقة موجودة كلها في الشاحنة التي تم العثور عليها ولم ينقص منها فتيل ولا قطمير أو حتى قطعة حلوى واحدة، إذًا فبما أنهم لم يفعلوا فعلتهم لأجل السرقة فلا بد وأن ذلك كان على سبيل المزاح والسخرية.

-إنني بطيء الفهم إلى حد ما، فليتسع لي صدرك سيد إنجراسيا.. حسنًا، منذ ثمان أيام وفي موقف للسيارات في إقليم كانتيا -أي في منطقة بعيدة تمامًا عن منطقتنا- استولى شخصان على شاحنة بها عربة مقطورة تابعة لشركة سفلاتسا، وكانت الشاحنة فارغة وقاما بإخفاء الشاحنة لمدة سبعة أيام في منطقة ما من مقاطعة كاتانيا فيجاتا وحيث أنه لم يتم العثور عليها إذًا فمنطقيًا أن يكون السبب الوحيد لسرقة الشاحنة وإخفائها هو إظهارها في الوقت المناسب للمزاح مع حضرتك. سأكمل لك، ظهرت الشاحنة مساء أمس في حوالي الساعة الواحدة حينما كان لا يوجد في الشوارع إلا القليل من المارة، توقفت الشاحنة أمام متجرك وظن حارس النوبة الليلية أنها جاءت لتزويد المتجر بالبضائع حتى وإن كان مجيئها في وقت غريب. لنعلم

تحديدًا كيف تمت السرقة؛ فالحارس لم يستطع التحدث بعد، لكن الأمر الأكيد هو أنهم أبعدوه عن المعركة؛ فقد انتزعوا منه المفاتيح ودخلوا، وقام أحدهم بتجريدته من ملابسه الخاصة بالعمل وارتداها هو. بكل صراحة إنه تصرف عبقرى كما كان هناك أيضًا تصرف عبقرى آخر: هو قيام باقى اللصوص بإضاءة المصابيح والسرقة بكل تبجح، وكأنهم يعملون فى وضف النهار وكأن الليل لا يرخى سدوله، لا شك أنه تصرف عبقرى فأى شخص مار من الخارج بالقرب من المتجر ويرى الحارس وهو يرتدى الزي الخاص بالعمل، ويتابع بعض الأشخاص الذين يعملون على تحميل الشاحنة لن تخطر بباله -ولو من بعيد- فكرة أنها عملية سرقة. هذا هو سيناريو الجريمة الذى تخيله زميلى أوجيللو وهذا ما أكدته أيضًا شهادة المحارب ميزوراكا الذى كان فى طريقه للعودة إلى منزله.

بدا على إنجراسيا الشعور بالملل شيئًا فشيئًا أثناء حديث المأمور إلا أنه عندما سمع اسم ميزوراكا انتفض كالذى لدغه دبور وقال:

-ميزوراكا؟!

-أجل ذلك الموظف بالسجل المدينى.

-لكنه فاشى.

-لا أرى علاقة للإتجاهات السياسية للمحارب بالواقعة التى نحن بصدددها.

-كلا، بل لها علاقة؛ لأننى عندما كنت أمارس العمل السياسى كان ميزوراكا خصمى.

-ألم ينته عمله السياسى الآن؟

-وماذا يمكنه أن يفعل إزاء أولئك القضاة الميلانيين الأربعة الذين

عزموا على تدمير السياسة والتجارة والصناعة؟!

-اسمعي، إن ما قاله المحارب لا يعدو كونه شهادة بسيطة وموضوعية، تبرز طريقة ارتكاب اللصوص للجريمة.

-أنا أحترم ما قاله المحارب، غير أنني لا أراه سوى رجل مسنّ مسكين، ضعيف العقل فقد تجاوز سن الثمانين بقليل لدرجة أنه قد يرى القط ويقول أنه فيلاً، ثم أنه ماذا كان يفعل في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل؟

-لا أدري، سأسأله عن ذلك، أيمكننا أن نستأنف حديثنا؟

-وهو كذلك.

-بعد انتهاء عملية تحميل البضاعة من متجرك بعد ما لا يقل عن ساعتين من العمل، غادرت الشاحنة وقطعت مسافة خمسة أو ستة كيلومترات ورجعت أدراجها لتتوقف عند محطة الوقود، وظلت هناك حتى وصولي أنا. في رأيك: هل ورطوا أنفسهم في كل هذا اللغط، وارتكبوا نصف دسنة جرائم، وعرضوا أنفسهم لعقوبة السجن لسنوات فقط ليسخروا منك أو أن يجعلوك أنت تضحك قليلاً؟!

-سيدي المأمور، يمكننا أن نقضي الليل هنا؛ لكنني أقسم لك أنه لم يخطر ببالي شيء إلا أنه مزاح.

...

في الثلاجة وجد مونتالبانو معكرونة بالصلصة أعدت من أيام، وزيتوناً ذائبلاً، وزيتوناً أسوداً تنبعث منه رائحة نفاذة جداً، كما كان يوجد صنف آخر، هو أنشوجا بالبصل والخل. اعتاد مونتالبانو أن يجرب الابتكار في الطهو؛ لكن فقط ذلك الابتكار ذو الطعم المقبول مثل ذلك الذي تقوم به أديلينا الطاهية ومديرة المنزل التي تأتي مرة كل يوم كي تساعد، وهي أم لطفلين منحرفين إلى أقصى حد، أحدهما في سجن الأحداث بسبب مونتالبانو.

حتى في هذا اليوم لم تخذله أديلينا ففي كل مرة كانت تهم بفتح الفرن أو الثلاجة كان ينتاب مونتالبانو فضول داخلي مثلما كان ينتابه عندما كان صغيراً في الصباح الباكر ليوم الثاني من نوفمبر⁶ عندما كان يبحث عن السلة المصنوعة من الأماليد⁷ والتي يضع بها الموق هداياهم ليلاً، وقد اندثر ذلك العيد الآن؛ محته تفاهة الهدايا التي توضع تحت شجرة عيد الميلاد، كما محيت الآن ذكرى الموق. الموق الوحيدون اللذين لا يمكن نسيان ذكراهم بل يتم الاحتفاظ بها حية دائماً هم أفراد عصابات المافيا، بيد أن الهدايا التي سيرسلونها في ذكرى وفاتهم لن تكون لعبة القطار أو «فروتا مارتورنا»⁸؛ فقد كانت المفاجأة عبارة عن فلفل أفرنجي ضروري للأكلات التي تعدها أديلينا.

أخذ الأطباق، وزجاجة النبيذ، والخبز، وقام بتشغيل جهاز التلفاز وأعدّ المائدة. كان يروق له تناول الطعام وحيداً والاستمتاع بالقيمات في صمت وكانت من ضمن الأشياء العديدة المشتركة بينه وبين ليفيا، هو عدم التحدث أثناء تناول الطعام ففي مسألة

6- وهو يوم الموق وفيه يتذكر الناس أسلافهم وأقاربهم الذين فارقوا الحياة.

7- جمع أملود وهي أغصان ناعمة من صفصاف السلاطين تصنع منه السلال

8- حلوى تقليدية على شكل فاكهة أو خضروات نشأت في مقاطعة باليرمو في جزيرة صقلية

الطعام كان يعتقد مونتالبانو أنه أقرب إلى شخصية مايجريه⁹ منه إلى شخصية كارفالو¹⁰ - بطل روايات مونتالبانو والذي يأكل أصنافاً إذا أكلتها سمكة قرش أحرقت معدتها.

عند مشاهدته للقنوات المحلية انتابه شعور بالاشمئزاز؛ فلقد تحطمت صخرة الأغلبية الحاكمة على قانون يلغي العفو عن المحكوم عليه بعقوبة السجن ممن التهموا نصف البلدة، القضاة الذين اكتشفوا رؤوس الفساد قاموا بتقديم استقالتهم احتجاجاً، وقد هبّ نسيم الثورة الذي انعش جماهير عامة الشعب.

أتى بأول قناة من القنوات المحليتين وهي قناة «تيلي فيجاتا» وكانت بطبيعتها قناة مؤيدة للحكومة أيّاً كانت الحكومة: حمراء أم سوداء أم زرقاء. لم يشير المذيع إلى إلقاء القبض على طانو اليوناني، كل ما قاله أن بعض المواطنون الشرفاء أبلغوا مأمور بلدة «فيجاتا» عن تبادل لإطلاق النار عند بزوغ الفجر، وقد كان إطلاق النار مدوياً بقدر ما كان غامضاً في إحدى القرى التي تدعى «لانتوشي»¹¹ غير أنه قال أن عند وصول المحققين إلى مسرح الأحداث لم يجدوا شيئاً غير طبيعي، كذلك فإن مراسل قناة «ريتي ليبرا» نيكولو زيتو-والذي لم يخف أنه شيوعي- لم يذكر شيئاً عن القبض على طانو، وأشار أنه لحسن الحظ لم يتم بعد التحقق من صحة الخبر، على غير المتوقع وسط كل هذا اللغط تحدث زيتو عن السرقة الغريبة لمتجر إنجراسيا والوجود الغامض للشاحنة وبها كل البضاعة المنهوبة، يقول زيتو أن هناك

9- المأمور مايجريه هو بطل روايات وقصص قصيرة للمؤلف جورجس سيمينون وهو ذو بنية قوية وعاشق للطعام

10- شخصية روائية من تأليف الكاتب مانويل مونتالبانو وكان أكل وتسبب له الطعام في مشاكل صحية عديدة. (المترجم)

11- وتعني جوز الهند



رأي شائع بين الناس يفيد بأن الجناة تركوا السيارة في أعقاب مشاجرة بينهم حول تقسيم المسروقات؛ غير أن زيتو لم يتفق مع هذا الرأي؛ ففي رأيه أن الأمور اتخذت منحًا آخر، فبال تأكيد أن المسألة كانت أكثر تعقيدًا من ذلك، وختم الصحفي حديثه موجهاً سؤالاً إلى المأمور:

-أتوجه إليك مباشرةً أيها المأمور مونتالبانو: أليس صحيحًا أن الواقعة أكثر تعقيدًا مما قد تبدو عليه؟

عندما سمع المأمور النداء الموجه إليه شخصيًا ورأى عينا زيتو الذي كان ينظر له عبر جهاز التلفاز وهو يأكل، ارتجع الخمر الذي كان يشربه مونتالبانو إلى حلقه وغص به وأصيب بنوبة من السعال وراح يسبّ. بعد أن تناول الطعام ارتدى المايوه وغاص في المياه، كانت شديدة البرودة لكن السباحة أعادت إليه الحيوية.

بينما كان المأمور يجلس في مكتبه ويغوص في الكرسي دخل عليه رئيس المباحث فهبّ واقفًا وذهب لاستقباله وعانقه بقوة، ثم قال له رئيس المباحث:

-احك لي كيف تمت الواقعة بالضبط.

هكذا أصبح حال مونتالبانو: هو الآن لا يستطيع الكذب مطلقًا ولا أن يفتری حديثًا أمام أشخاص يثق في أمانتهم ويقدرهم، ربما لو كان بحضرة أناس أراذل أو لايعرف أخلاقهم جيدًا لاستطاع أن يقول زورًا من القول بكل ثبات، ولأمكنه أن يجزم بأنه رأى القمر مقطّعًا إلى قطع ومطرزًا.

لم يكن الأمر أنه يبجل رئيسه في العمل؛ لكن رئيس المباحث أحياناً كان يتحدث إلى مونتالبانو كوالده، لذا بهذا السؤال وضع رئيس المباحث مونتالبانو في حرج فاحمر وجهه، وتصبب عرقاً، وغيّر وضعة على المقعد أكثر من مرة كأن المقعد غير مريح، لاحظ رئيس المباحث انزعاج المأمور، لكنه أرجع ذلك إلى الارتباك الشديد التي يشعر به مونتالبانو في كل مرة عندما يُطلب منه التحدث عن عمل تم له بنجاح، فلم ينس رئيس المباحث آخر مرة في المؤتمر الصحفي وأمام الكاميرات التلفزيونية عندما تحدث المأمور -يمكن القول مجازاً- أنه تحدث بتلعثم مطوّل ومزعج، وكان حديثه متقطع بعيداً عن أي معنى مفيد للجملة وعيناه شبه مغلقتين وحدقتيهما مضطربتان بجنون.

ثم قال مونتالبانو:

-أريد نصيحة قبل أن أروي ما حدث.

-تحت أمرك.

-ماذا يجب أن أكتب في المحضر؟

-ياله من سؤال! ألم تكتب محاضراً من قبل؟! ما يُكتب في المحضر هو ما حدث بالفعل!

هكذا أجاب رئيس المباحث بشيء من الحدة والاندھاش، ولأن مونتالبانو لم يقرر بعد البدء في الكلام فتابع رئيس المباحث قائلاً:

-بالمناسبة، أنت استطعت بمهارة وشجاعة أن تستفيد من مقابلة وقعت بالمصادفة وأن تحولها إلى عملية أمنية ناجحة، هذا صحيح ولكن..

-حسنًا، كنت أريد أن أخبر سيادتكم..

-دعني أنهي حديثي!.. غير أنني مضطر أن أصرحك بأنك خاطرت

بحياتك وبرجالك بشدة وكان عليك طلب تعزيزات قوية واتخاذ الاحتياطات الواجبة، لحسن الحظ كل شيء مر على خير؛ لكن ما قمت به كان بمثابة رهان، هذا ما ودت قوله لك بكل صراحة، والآن يمكنك التحدث.

نظر مونتالبانو إلى أصابع يده اليسرى كأنهم قُطعوا فجأة، أو أنه لا يعرف ما فائدتهم، فسأله رئيس المباحث كاتماً غيظه:

-ما الأمر؟

انفجر مونتالبانو قائلاً:

-الأمر أن كل شيء مزيف؛ لم يكن اللقاء مصادفة لقد ذهبت لزيارة طانو لأنه طلب لقائي وفي هذا اللقاء اتفقنا.

مرر رئيس المباحث يده فوق عيناه..

-اتفقتم؟!

-على كل شيء.

وبعد أن حكى له كل شيء بداية من مكاملة جيجهيه حتى تمثيلية عملية القبض، في النهاية سأل رئيس المباحث:

-هل عندك شيء آخر تود قوله؟

-أجل بما أن الأمر كذلك فأنا لا أستحق أي ترقية إلى رتبة نائب رئيس مباحث وإذا ترقيت سيكون ذلك بالتزوير والخداع.

فرد عليه رئيس المباحث:

-فلتترك لي هذا الأمر، وسأقرر أنا.

فنهض ووضع يديه خلف ظهره وظل يفكر لبرهة ثم حسم أمره

والتفت:

-ما سيتم كالآتي: فلتكتب لي محضرين.

-اثنين؟!

قال مونتابانو ذلك وهو يفكر في ما يبذله من مجهود في الكتابة عموماً.

-لاتجادل، سأظهر المحضر المزور لجوايس الصحافة والمافيا أما ذلك المحضر الحقيقي فسأحتفظ به في الخزينة، ثم ابتسم وقال:

-وفيما يتعلق بمسألة الترقية التي تفزعك أكثر من أي شيء: زُرني في منزلي مساء يوم الجمعة وسنتحدث في ذلك الأمر بهدوء، أتعرف؟ لقد ابتكرت زوجتي حساء رائع مخصص لاحتسائه في الحدائق.

...

المحارب جيرلاندو ميزوراك الذي أعياه كبر سنه البالغ الرابعة والثمانين، لم يتغير طبعه فقد اندفع هاجماً بمجرد أن رد المأمور قائلاً:

-ألو

-ما بال عامل الهواتف الغبي هذا الذي حول مكالمتي إليك؟!

-لماذا تسبّه؟ ماذا فعل؟

-إنه لا يفهم لقبي، لم ينفذ إلى رأسه الحديدية تلك؛ لقد دعاني بـ بيزوراتا كعنصر المغانيسيوم الكيميائي.

توقف ميزوراك عن الحديث لبرهة مترقبًا، وغير نبرة صوته:

-أتضمن سيادتك لي بشرفك أن هذا الشخص ما هو إلا مجرد معنوه تافه؟

عندما تذكر مونتالبانو أن من رد على الهاتف هو كاتاريللا اقتنع بكلام الرجل.

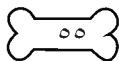
-أضمن لك هذا، ولكن معذرة! لماذا تريد الضمان؟

-لأنه إذا كان يسخر مني أو يسخر من مكائتي، أقسم بالله أن آتي في خلال خمس دقائق إلى قسم الشرطة لأشج مؤخرته..

بينما كان المحارب ميزوراكا يواصل تهديداته بالقيام بأفعال رهيبة تساءل مونتالبانو: «وماذا تمثل مكانة المحارب ميزوراكا؟» إنه لا يمثل شيء، لا شيء على الإطلاق فرسماً - كما يقال - فهو لا يعدو كونه موظفاً بالسجل المدني متقاعد منذ فترة طويلة، لا ولم يتقلد أي منصب عام، وفي حزبه السياسي هو مجرد عضو عادي، رجل ذو أمانة شديدة يعيش عزيز النفس حياة شبه بائسة، حتى لم يرد التبرج في عهد موسوليني وكان دائماً جندياً مخلصاً كما كان يقال في تلك الفترة؛ لهذا كان منذ سنة ١٩٣٥ فصاعداً يشارك في كل الحروب؛ فقد جاء إلى هذا العالم ليجد نفسه وسط أسوأ المعارك ولم يتخلف عن واحدة منها، كان يبدو وكأنه وهب صفة الوجود في كل مكان في نفس الوقت: بداية بمعركة جواداليارا في إسبانيا مروراً ببئر الجوبي في شمال أفريقيا كذلك حرب أكسوم في أثيوبيا، ثم رُج به في السجن بتكساس، وبعد رفضه للتعاون معهم أودعوه سجن أكثر قسوة يُقتات به فقط بالخبز والماء. ويختتم مونتالبانو قوله إذًا فهو يمثل بالطبع الذاكرة التاريخية، لكنه عاشها بسلامة نية ودفع ثمنها بنفسه؛ فقد أصيب بثلاث إصابات خطيرة جداً واحدة منها جعلته يعرج على قدمه اليسرى.

-إذا كان في مقدور حضرتك أن تذهب لتحارب في بلدة «صالوه» مع الألمان والجمهوريين هل كنت ستذهب؟

هكذا سأله مونتالبانو ذات يوم على حين غرة، وكان مونتالبانو يحبه على طريقته الخاصة؛ ذلك لأن وسط هذا الفيلم الكبير المليء



بالفاسدين والمفسدين والمختلسين والعصابات والمرتشين والكذابين والصوص والمنافقين والذي يضاف إليه يوميًا مشاهد جديدة بدأ الحب يتنامى في قلب المأمور تجاه أولئك الأشخاص الذين يعرف عنهم أمانة لا تتزعزع.

عند سماع ذلك السؤال شاهد المأمور العجوز وكأنه يفرغ ما بداخله، تزامنت التجاعيد في وجهه بينما كان نظره عليه غشاوة حينها فهم أن هذا السؤال طرح على ميزوركا آلاف المرات ولم يجد للإجابة من سبيل فلم يلح.

عاد صوت ميزوركا الحانق ليسأل:

-ألو، أمازلت على الخط؟

-أجل، تفضل بالحديث أيها المحارب.

-لقد خطر لي شيء لم أدل به عندما جئت للشهادة، لأنني كنت قد نسيت.

-أيها المحارب ليس لدي أي سبب للشك، أسمعك.

-لقد حدث لي شيء غريب عندما وصلت إلى ساحة المتجر؛ لكنني وقتها لم ألق له بالاً؛ فقد كنت عصبيًا ومتوترًا؛ فقد كان يوجد في الشارع بعض الأوغاد الذين..

-أيمكنك أن تقول لي ما الذي حدث؟

إذاً أفسح له المجال ليتحدث يمكن للمحارب أن يأتي بأصول الموضوع بداية من تأسيس الحركة الفاشية الإيطالية^{١٢}

-لا، ليس في الهاتف بل وجهًا لوجه؛ فالأمر جدًا خطير إذا صح ما رأيته.

12 - حركة سياسية ايطالية تأسست عام ١٩١٩ على يد بينيتو موسوليني (المترجم)

العجوز بصدد التعامل مع شخص يقول دائماً ما يجب أن يقال دون
زيادة أو نقصان

-بخصوص سرقة المتجر؟

-بالتأكيد.

-أتحدثت مع أحدًا في هذا الشأن؟

-لا.. مطلقاً.

-عليك ألا تفعل.

-أتهينني؟! إن شرك في بئر عميق، سأحضر إلى مكتبك في الصباح
الباكر.

-سؤال أيها المحارب، ماذا كنت تفعل في تلك الساعة المتأخرة من
الليل في السيارة وحدك وأنت غاضب؟ أنت تعرف أنه يجب عليك
الاحتياط في مثل سنك.

-كنت عائداً من مدينة مونتلوزا؛ فقد عُقد هناك إجتماع لمجلس
المدينة وقد أردت أن أحضر حتى وإن لم أكن أحد الأعضاء فلا أحد
يستطيع أن يغلق باباً في وجه جيرلاندو ميزوراكا؛ لابد من الحفاظ
على ماء وجه حزبنا وشرفه، لايمكنني الركون إلى حكومة بها هؤلاء
الأوغاد أبناء الساسة الأوغاد وأن أتفق معهم على إصدار مرسوم
يسمح بإطلاق سراح أولاد العاهرة أولئك الذين يلتهمون وطننا!
عليك أن تعي أيها المأمور أن...

-هل استمر الاجتماع إلى وقت متأخر؟

-حتى الواحدة بعد منتصف الليل، لقد كنت أود مواصلة الاجتماع
لكن باقي الأعضاء رفضوا؛ فقد غلبهم النعاس، يالهم من مزعجين!

-وكم تستغرق المسافة إلى بلدة «فيجاتا»؟

-نصف ساعة؛ فقد كنت أسير ببطء، إذًا فكما أقول لك...

قاطع حديثه مونتالبانو قائلاً:

معذرة أيها المحارب هناك من يتصل على الهاتف الآخر، أراك غداً.



الفصل الخامس

لقد عامَلنا أبناء العاهرة القذرة أولئك بأسوأ مما يعاملون به
المجرمين والقتلة، ألا يعرفون من نكون؟! إنهم حقاً أوباش!

لم يكن هناك من سبيل لتهدئة فاتسيو الذي عاد لتوه من باليرمو،
وكان جيرمانا وجاللو وجالوتسو يقومون بدور الكورال المنشد
ملوحين بأذرعهم اليمنى بحركات دائرية مما يدل على وقوع أمر
غير عادي..

-إنهم تصرفوا كالمجانين! كالمجانين!

مارس مونتابانو سلطته عليهم وأمرهم:

-فليزِم الجميع الهدوء ولنواصل حديثنا بنظام.

ثم لاحظ أن جالوتسو يرتدي قميصًا وسترةً نظيفان من الدم الذي كان قد سال من أنفه عندما ارتطم بالحائط، ثم سأله:

-هل ذهبت للمنزل لتبديل ملابسك قبل أن تحضر إلى هنا؟

لم يكن سؤال مونتاالبانو سؤالًا وجيهًا؛ فقد امتنع لون جالوتسو وتلون أنفه المتورم من أثر الإصابة بخطوط بنفسجية.

-عن أي منزل تتحدث؟! ألم يخبرك فاتسيو الآن؟! لقد جئنا من باليرمو مباشرة إلى هنا، عندما وصلنا إلى جهاز مكافحة المافيا وسلمنا لهم طانو اليوناني، أخذونا وأودعوا كل واحدًا منا في غرفة منفصلة، وحيث أن أنفي كان لا يزال يؤلمني أردت أن أضع عليه منديلًا مبللًا، بعد أن مكثت وحيدًا لمدة نصف ساعة، وجدت أمامي زميلًا قال لي: «إلى أين أنت ذاهب؟» قلت له أنني ذاهب لجلب قليل من الماء لأبلل به أنفي وكان رده: «لا يمكنك الخروج، عد إلى داخل الغرفة، مفهوم يا حضرة الشرطي؟» احتجزوني كأني أنا طانو اليوناني.

فوبخه مونتاالبانو قائلاً:

-لا تنطق هذا الاسم واخلض صوتك! يجب ألا يعلم أحد أننا ألقينا القبض عليه، من سيتحدث في هذا الشأن سألقي به في سجن «أزينارا».

تابع فاتسيو حديثه والاستياء يعلو وجهه:

-لقد احتجزونا جميعًا!

استكمل جالوتسو قصته:

-بعد مرور ما يقرب من الساعة، دخل الغرفة شخص أعرفه: زميل لي قد انتقل إلى جهاز مكافحة المافيا أغلب الظن أن اسمه شاكيتانو.

حدّث المأمور نفسه فوراً: «إنه بالفعل أحقّ»، غير أنه لم يتفوه بشيء.

-نظر لي وكأن رائحتي كريهة أو كأني فقير أتسول، أخذ ينظر إليّ لبرهة ثم قال: أتعرف أن بهيئتك القدرة هذه لا يمكنك أن تقابل السيد مدير إدارة الجهاز.

ظل جالوتسو مصدوماً من غرابة المعاملة، ولكنه احتفظ بانخفاض مستوى صوته على مضض:

-الجميل أنه كان يوجه لي نظرات غاضبة وكأنني أنا المذنب وخرج وهو يتمتم بكلمات، بعد ذلك جائي زميل ومعه قميص وسترة نظيفان.

قاطعته فاتسيو مستغلاً رتبته:

-الآن أتحدث أنا، كي لا أطيل الحديث، إننا منذ الثالثة بعد الظهر حتى منتصف ليلة أمس وقد تم استجوابنا جميعاً ثمان مرات من قبل ثمانية أشخاص مختلفين.

-ماذا كانوا يريدون أن يعرفوا؟

-أرادوا معرفة كيف تمت عملية القبض.

قال جيرمانا بشيء من الفخر:

-بصراحة لقد استجوبوني عشر مرات؛ واضح أنني أروي الأحداث بشكل شيق؛ فتخيلوا كأنهم في صالة العرض السينمائي.

واستطرد فاتسيو:

-عند الواحدة بعد منتصف الليل وضعونا سويّاً في صالة كغرفة مكتب كبيرة كان فيها: أريكتان وثمانية مقاعد وأربع منضدات، قاموا بفصل الهواتف وحملوها إلى خارج الحجرة، ثم أرسلوا إلينا أربعة ساندوتشات عفنة وأربع زجاجات بيرة ساخنة كالبول. أخذنا قسماً

من الراحة وعند الثامنة من صباح اليوم جاءنا رجل ليخبرنا أن بإمكاننا العودة إلى «فيجاتا»، دون أن يقول صباح الخير ودون اعتذار؛ كأنه يتحدث إلى كلاب لابد من طردهم فقط.

فقال مونتابانو:

-حسنًا ماذا تريدون الآن؟ فلتذهبوا إلى منازلكم وتستريحوا ثم تعودوا إلى هنا في آخر النهار. وأؤكد لكم أنني سأنقل ما حدث إلى رئيس المباحث.

...

-ألو، أنا المأمور سالفو مونتابانو مأمور فيجاتا، أريد التحدث إلى المأمور أرتورو شكائتانو.

-حسنًا، ابق على الخط من فضلك.

التقط مونتابانو ورقة وقلم ورسم شيئًا دون وعي، أدرك فيما بعد أنه قد رسم مؤخرة جالسة فوق مرحاض..

-معذرة، إن المأمور في اجتماع.

-اسمع، فلتخبره أنني أيضًا في اجتماع؛ إذًا فنحن متعادلين، فليقتطع هو خمس دقائق من اجتماعه وأفعل أنا نفس الشيء وبهذا يكون كلانا سعيدًا وراضيًا.

قام مونتابانو برسم قطع من الغائط مع المؤخرة التي تبرز..

-مونتابانو! ما الأمر؟ معذرة ليس لدي متسع من الوقت.

-وكذلك أنا أيضًا يا شاكيتانوف..

-شاكيتانوف؟! ما تلك الحماقات التي تقولها؟!

-عجبًا! أليس هذا اسمك؟ ألا تعمل في الاستخبارات السوفيتية؟

-لا أريد المزاح.

-وأنا لا أمزح! أنا أحدثك من مكتب رئيس المباحث الذي استاء من طريقة الاستخبارات السوفيتية التي عاملت بها رجالي، لقد أذن لي اليوم أن أرفع شكوى لوزير الداخلية.

ما حدث لم يكن له تفسير، ولكن هذا ما حدث: كأنه رأى عبر سلك الهاتف شحوب لون شاكيتانو والمعروف عنه في كل مكان أنه جبان منافق فقد صدمته كذبة مونتالبانو كضربة قضبان حديدية على الرأس..

-ماذا تقول؟! عليك أن تعرف أنني كمسؤول عن الأمن..

-حفظ الأمن لا يمنع الأدب.

قالها مونتالبانو بأسلوب حاسم مستشعراً حاله كأنه لافتة مرور مكتوب عليها: «الأسبقية لا تمنع الحذر»

-ولكنني كنت في غاية الأدب؛ لقد قدمت لهم بيرة وسندوتشات.

-آسف أن أخبرك أن على الرغم من تقديمك البيرة والسندوتشات لهم، حدثت توابع للأمر في مكان آخر، لكن على أي حال فلتهون عليك يا شاكيتانو فالذنب ليس ذنبك؛ فمن شبَّ على شيء شاب عليه.

-ماذا تقصد؟

-أقصد أنه بما أنك نشأت أحمق لا يمكن أن تشيب وأنت ذكي، أنا أطالبك بخطاب موجه إليّ مكتوب به ثناء كبير على رجالي، أريد هذا الخطاب غداً، سلام.

-هل من المؤكد أنني إذا كتبت لك الخطاب لن يرفع رئيس المباحث الشكوى؟

-سأكون أمينًا معك، أنا لا أدري ما إذا كان رئيس المباحث سيرفع الشكوى أم لا، ولكن فيما يخص أمرك، سأكتب الخطاب كي أخلي مسئوليتي، وسأؤرخه بتاريخ الأمس، أفهمت؟

هكذا نفث مونتالبانو ما بداخله من غضب وشعر بتحسن، ثم نادى كاتاريللا:

-هل الضابط أوجيللو في المكتب؟

-لا يا سيدي، لكنه اتصل لتوه وقال أنه تبقى له من الطريق مسافة تقدر بعشر دقائق وسيكون بعدها في مكتبه.

استغل مونتالبانو هذا الوقت كي يكتب فيه المحضر المزيف، أما المحضر الصحيح فكان قد كتبه في منزله ليلة البارحة، في تلك الأثناء طرق أوجيللو الباب ودخل:

-هل سألت عني؟

-هل حضروك إلى العمل مبكرًا بعض الشيء سيكلفك الكثير؟!

-معذرة، ولكن كل ما في الأمر أنني كنت مشغولًا حتى الخامسة من فجر اليوم، ثم عدت إلى المنزل وخلدت إلى النوم وهذا كل ما حدث.

-أكنت مشغولًا مع العاهرات اللاتي تعجبك؟ هؤلاء اللاتي لا يقل وزن الواحدة منهن عن مائة وعشرين كيلو جرام؟

-ألم يخبرك كاتاريللا بأي شيء؟

-لقد أخبرني أنك ستتأخر.

-لقد وقعت حادثة دامية ليلة أمس، وانتقلت إلى موقع الحادث ورأيت أن أتركك نائمًا؛ حيث أن الأمر لا يمثل أهمية كبيرة لنا.

-ربما يمثل الأمر أهمية بوجود قتلى.

-هناك قتيل واحد فقط، كان ينزل بسرعة جنونية من على طريق كاتنيا، ومن الواضح وجود ثمة عطل في مكابح السيارة، ثم اصطدم بأسفل شاحنة كانت كانت تسير في الاتجاه المعاكس، في بداية الطريق الصاعد، مسكين لقد لقي حتفه فوراً.

-أتعرفه؟

-بالطبع، وتعرفه أنت أيضاً؛ إنه المحارب ميزوراك.

...

-مونتالبانو، لقد اتصلوا بي لتوهم من باليرمو، إن عقد المؤتمر الصحفي ليس ضرورياً فحسب؛ بل أنه يجب أن يلقي اهتماماً إعلامياً واسعاً، هذا ما تقتضيه سياساتهم حيث يحضر الصحفيون من مدن أخرى وينقلوا الأخبار إلى نشرات الأخبار المحلية، أي يصبح حدثاً ضخماً.

-يريدون تسليط الضوء على أن الحكومة الجديدة لا تتهاون في الحرب ضد المافيا، بل أنها أكثر ضراوة وتحاربهم بلا هوادة.

-مونتالبانو، ما الذي يشغلك؟

-لا شيء، فقط أقرأ أوامر بعد غدٍ.

-لقد تحدد ميعاد المؤتمر الصحفي ليكون صباح غد في تمام الثانية عشرة، فقط أردت أن أعلمك بالموعد.

-أشرك سيدي الرئيس، ولكن أنا ما علاقتي بذلك؟

-مونتالبانو!! صحيح أنني طيب وودود لكن إلى حد معين، بل لك علاقة بالأمر وحيث أن لك علاقة، فلا تتصرف كالأطفال.

-وماذا يجب أن أقول في المؤتمر؟

- ألهمني صبرًا يا إلهي!! ستقول ما قد كتبتَه في المحضر.

-أي محضر منهما؟

-لم أسمعك جيدًا، ماذا قلت؟

-لا شيء.

-حاول أن تتكلم بطريقة واضحة، دون أن تأكل الكلمات، ولا تطأئي رأسك، وأيضًا بالنسبة ليديك؛ فلتثبتهما على وضع واحد ولتبقِ عليهما في مكانهما، لا تتصرف كآخر مرة عندما اقترح عليك صحفي جريدة «كوزيري» أن تبتز يدك كي تكون بحريتك.

-وماذا لو سألوني؟

-بالتأكيد سيسألك، لكي تستخدم لغتك الإيطالية الراكية، أليسوا صحفيين؟! صباح الخير!

كان مونتالبانو متوترًا جدًا بسبب ما يقع من أحداث، وما سيقع في اليوم التالي، لم يطق البقاء في مكتبه؛ فخرج ومر على المتجر الذي اعتاد التعامل معه، وطلب عبوة كبيرة من تسالي الحمص والفلول السوداني ولب القرع، ثم توجه إلى الحاجز الصخري بالميناء، وعندما وصل سيرًا على الأقدام إلى الفئار استدار وعاد أدراجه وذهب للقاء أرنستو بونفيليو شخصيًا، وهو مالك شركة سياحية وصديق قديم للمحارب ميزوراكا الذي توفي مؤخرًا.

قال له بونفيليو بصوت أشبه بالصياح:

-هل يمكنني مساعدتك؟

مونتالبانو -الذي كان يحاول إزالة قطعة من البندق الأمريكي علقت

بين سنتين- نظر إليه مندهشًا. فكرر بونفيليو غاضبًا وهو ينظر لمونتالبانو شزرًا:

-أنا أسأل ما إذا كان يمكنني أساعدك بشيء!

-شيء كماذا؟

-شيء يتعلق بصديقي المسكين الفقيد.

-هل تقبل مني؟ (قالها وهو يقدم له عبوة المكسرات).

-أجل أشكرك. (رد عليه الرجل وهو يأخذ حفنة من داخل الكيس)

استفاد مونتالبانو من هذا الفاصل في التعرف أكثر على شخصية الرجل؛ فبالإضافة إلى أنه صديق حميم للمحارب فهو أيضًا رجل يقتنع بأفكار يمينية متطرفة ولا يُعمل عقله كثيرًا.

-أتحدث حضرتك عن ميزوراك؟

-لا عن جدي.

-وماذا يجب عليّ أنا فعله؟

-واجبك هو القبض على القتلة.

-لايوجد غيرهم، أنا أتهم مجلس إدارة الحزب بالمقاطعة والذي لم يكن لميزوراك الحق في الانضمام إليه، هم من قتلوه.

-معذرة، ولكن ألم يكن الأمر مجرد حادث؟

-صحيح، لكن أنظن حضرتك أن الحوادث تحدث مصادفة؟

-هذا رأيي.

-أخطأت، صحيح أنها تسمى حوادث؛ لكن دائمًا ما يكون هناك

من يزج بالناس إليها، أضرب لك مثال كي يتضح كلامي: ممي كارابانسانو مات غرقًا في شهر فبراير من هذا العام وهو يسبح، وكم كان عمره عند وفاته؟ خمسة وخمسين عامًا، وماذا أراد بفعلته الهوجاء تلك وهو في هذه السن وبأن يسبح في مثل هذا السقيع؟ الأمر الذي لا يليق إلا بالصبية. السبب هو كما يلي: منذ أقل من أربعة أشهر تزوج بشابه من ميلانو تبلغ من العمر الرابعة والعشرين وأثناء تريضهما على شاطئ البحر سألته الشابة: «حبيبي، صحيح أنك تستطيع السباحة في هذا البحر وفي شهر فبراير؟ فأجاب كارابانسانو: «بكل تأكيد»، فتنهدت الفتاة والتي من الواضح أنها سئمت من هذا الرجل، فسألها كارابانسانو كالأبله: «ما بك؟» فقالت تلك العاهرة: «من المؤسف أنني لم أعد أراك تسبح»، ودون أن يتفوه كارابانسانو بحرف واحد قام بخلع ملابسه وقفز في الماء. هل اتضح لك ما أقصد؟

-غاية الوضوح.

-ننتقل الآن إلى السادة أعضاء مجلس إدارة الحزب بمقاطعة مونتولوزا، بعد انتهاء أول اجتماع بالسُّبَاب مساء أمس، تم عقد اجتماع آخر، أراد فيه المحارب ميزوركا ومعه القليل من الأعضاء أن يقوم المجلس بإعداد بيان ضد قرار الحكومة بتعطيل حبس المختلسين وإرساله إلى الصحف، بينما كان الباقون لهم رأي آخر، في تلك الأثناء قام أحد الأشخاص وقال لميزوركا أنه رفات بالية، وقام آخر ليؤكد أن ميزوركا يذكره بمسرح العرائس، وثالث دعاه بالعجوز الممغل. أخبرني بكل هذا صديق لي كان يحضر الاجتماع، في النهاية طلب منه سكرتير الجلسة -وهو شخص قذر ليس من أهل صقلية لقبه بيراجين- أن يتكرم بالجلوس أمام الباب فليس من حقه المشاركة في الاجتماع، وهذا صحيح لكن أحدًا لم يتجرأ على النطق بها من قبل. قام صديقي واستقل سيارته ماركة «الشينكو تشينتو» واتخذ طريق العودة إلى «فيجاتا»، بكل تأكيد كان دمه مازال يغلي، فما تعمدوا فعله هو ما جعله يفقد صوابه، وفي النهاية تأتي أنت لتخبرني أن

الأمر مجرد حادث؟!

من الخبرات السابقة للمأمور كان يعرف أن الطريقة الوحيدة التي
تمكنه من التحدث مع بونفيليو هو مخاطبته بنفس منطقه:

-هل ترى شخصية من الشخصيات التليفزيونية أنها ثقيلة الظل؟

-يوجد منهم مائة ألف، لكن مايك بونجورنو هو أسوأهم؛ عندما
أراه تؤلمني معدتي وتنتابني رغبة بتحطيم التلفاز.

-حسنًا، ماذا لو أنك بعد أن شاهدت هذا المذيع، ركبت سيارتك
واصطدمت بجدار ولقيت حتفك، ماذا يجب عليّ فعله وقتها؟

فأجاب الرجل بشكل قاطع:

-تلقي القبض على مايك بونجورنو.

عاد مونتالبانو إلى مكتبه وهو يشعر بأنه أكثر هدوءًا؛ فلقاؤه مع
منطق أرنستو بونفيليو قد أمتعه وروح عنه. سأل وهو داخل إلى
مكتبه:

-هل من جديد؟

-هناك خطاب شخصي لسيادتك جاء به ساعي البريد للتو.

قالها له كاتاريللا مشددًا على مقاطع كلمة (ش — خ — ص ي)

وجد على مكتبه بطاقة بريدية مصورة من والده وبعض إيصالات
الخدمات..

-كاتاريله، أين وضعت الخطاب؟

إنفعل الشرطي وقال:

-لقد قلت لسيادتك أنه شخصي!

-وماذا يعني هذا؟

-أي بما أنه شخصي فيجب تسليمه شخصيًا.

-حسنًا والشخص حاضر هنا، أين الخطاب إذًا؟!

-موجود حيثما يجب أن يكون؛ في المسكن الشخصي لصاحبه، لقد طلبت من ساعي البريد أن يوصله إلى منزلك في مارينيللا سيدي القائد.

أمام مطعم سان كالوجيرو خرج الطاهي صاحب المطعم ليستنشق الهواء المنعش لقليل من الوقت:

-أيها المأمور، هل ستمر دون أن تتوقف عندنا؟

-سأكل في المنزل.

-حسنًا، كما تشاء، ولكنني أعدت اليوم جمبري مشوي لن تأكله بل ستحلم بطعمه اللذيذ.

دخل مونتالبانو إلى المطعم بسبب الصورة التي رسمها له الرجل أكثر من الرغبة في الأكل بعد أن تناول الطعام، أبعد الصحن وشبك ذراعيه فوق المنضدة وأسند إليهما رأسه ونام. كان المأمور شبه مداوم على الأكل في صالة صغيرة بها ثلاث منضدات؛ لذا كان من اليسير على النادل سيرافينو أن يوجه الزبائن إلى القاعة الكبيرة وأن يترك المأمور ينعم بالهدوء. في حوالي الرابعة وقد كان المطعم أغلق أبوابه، قام مالك المطعم بإعداد فنجان قهوة مُرَكَّز وقدمه بهدوء إلى مونتالبانو الذي كان بلا حراك.



الفصل السادس

نسي مونتالبانو تمامًا أمر الخطاب الشخصي الذي أخبره عنه كاتاريللا، ولم يتذكره إلا عندما وطأت قدمه داخل المنزل؛ فقد وضعه ساعي البريد تحت الباب، من عنوان الخطاب بدا كأنه من مجهول: ((مونتالبانو-المأمور-المدينة)) ومكتوب في أعلى اليسار الملاحظة: (شخصي) وهذا للأسف ما ألهم عقل كاتاريللا المذبذب بتلك الفكرة.

بدا مجهولاً لكنه في الحقيقة لم يكن كذلك؛ فالإمضاء الذي راح مونتالبانو يبحث عنها طمعت في ذهنه كالصدمة:

المأمور المبجل،،

أغلب الظن أنني لن أستطيع الحضور إليك صباح غدٍ

كما كان مزعم؛ حيث أنه من المحتمل -ويبدو أن الاحتمال قوي- حيث يجب أن أذهب لحضور اجتماع المجلس الإداري لمدينة «مونتلوزا»، والذي سينتهي إلى فشل القضايا التي كنت طرحتها، أعتقد أن من واجبي أن أسافر إلى باليرمو كي أوقف نفوس وضمان هؤلاء النواب الذين يشغلون مناصب حساسة جدًا داخل الحزب، كما أنني مستعد أن أسافر إلى روما لاستدعاء الأمين العام للاستجواب. إذا تحققت افتراضي تلك سيؤجل لقائنا قليلًا؛ لذلك أرجو أن تتقبل اعتذاري لأنني كتبت إليك ما كان يجب أن أبلغه لك شفهيًا بنفسي.

وكما تتذكر جيدًا في اليوم التالي للسرقة الغامضة للمتجر، أنني قد حضرت من تلقاء نفسي إلى قسم الشرطة كي أشهد بما رأيته مصادفةً، أقصد مجموعة الرجال الذين كانوا يعملون في هدوء وإن كانوا يعملون في وقت غير معتاد العمل فيه وهم يشعلون الأضواء وفي حراسة رجل يرتدي زي العمل الرسمي بدا أنه الحارس الليلي فلا يمكن لأحد من المارة أن يلاحظ شيئًا غير عادي في هذا المشهد، ولو كنت لاحظت أنا أي شيء غير طبيعي لبادرت بنفسي لإبلاغ قوات الأمن. في الليلة التالية لما شاهدته لم يغمض لي جفن بسبب التوتر الذي سببته لي المناقشات مع بعض النواب وبذلك أتيت لي الفرصة أن أعود بالذاكرة إلى مشهد السرقة، وقد تذكرت الآن أمرًا قد يكون في غاية الأهمية: بينما كنت عائدًا من «مونتلوزا» -وقد كنت ساخطًا- ضللت طريق الدخول إلى بلدة «فيجاتا» الذي أصبح مؤخرًا وعرةً لوجود عدة طرق خطيرة ذات اتجاه واحد؛ وهكذا بدلًا من أن أتخذ شارع «جرانيه»، جربت طريق «لينكولن» القديم ووجدت نفسي أسير فيه في الاتجاه المعاكس، انتبهت لذلك بعدما سرت قرابة الخمسين مترًا في الاتجاه الخاطئ، قررت وقتها أن أعود أدراجي، وقد قمت بمناورة كي أبلغ ناصية شارع «تروبيا» الذي تحتم عليّ دخوله بمؤخرة السيارة كي أعود للاتجاه الصحيح، بيد أنه استحال عليّ الدخول في هذا الشارع لأنني وجدته مغلقًا بسيارة ضخمة من ماركة

«أوليسيه» التي يتم الإعلان عنها على نطاق واسع هذه الأيام لكنها لم تطرح بعد في الأسواق إلا ببعض النماذج القليلة منها، كانت تحمل لوحة معدنية «مونتلوزا-٣٢٨٢٨٠». أمام هذا الموقف لم يعد أمامي سوى متابعة السير في الاتجاه المخالف، بعد عدة أمتار قليلة وجدت نفسي في ميدان الكنيسة القديمة حيث وجدت المتجر.

سأوفر عليك المزيد من التحقيقات؛ من ناحية أخرى تلك السيارة لا يوجد منها في البلدة إلا واحدة يمتلكها السيد إنجراسيا، والآن بما أن إنجراسيا يعيش في «مونتي دوكالي» ماذا كانت تفعل سيارته على بعد مترين من المتجر الذي يملكه هو أيضًا والذي تمت سرقة عيانه بيانا؟!!

عليك أن تجب أنت.

صدقني. المخلص بشدة

المحارب: جيرلاندو ميزوراك

كان كل ما علق به مونتالبانو:

«لقد حيرتني بكل ما تحمل الكلمة من معنى أيها المحارب».

قال ذلك وهو ينظر شزراً للخطاب بعد أن وضعه فوق منضدة الطعام، والآن بالطبع لا يمكن الحديث عن طعام، فتح الثلاجة فقط كي يشعر باحترام مختلط بأسى لمهارة الخادمة في الطهو، وحيث أنه شم الرائحة المنبعثة من أكلة السبيط فقام بإغلاق الثلاجة ولم يتحمل تلك الرائحة وكأن معدته قد سدت بلكمة، قام بخلع ملابسه وراح يتريش عارياً على شاطئ البحر فلم يكن هناك كائن حي في المكان في ذلك الوقت كما أنه لم يكن يشعر بالجوع ولا بالنعاس؛ فقام في حوالي الرابعة فجراً بالقفز في الماء شديد البرودة وأخذ يسبح لفترة طويلة، عاد بعدها إلى منزله ثم ضحك وطفن إلى أنه يشعر بانتصاب قضيبه قرر أن يعززه بخيالات جنسية:

«من غير المجدي استحضار خيالات».

أوحى له الانتصاب بأنه قد تكون الفكرة الصائبة هي مكالمة هاتفية
لـليفيا وهي عارية ودافئة لنومها في الفراش، لكن كان ردها:

-يالك من قذر! ويا لتلك البذاءات التي تقولها! هذا لا يليق إلا
بالمراهقين!!

هدأ الانتصاب عندما شعر مونتاينو بالإهانة، وارتدى بنطاله
الداخلي القصير ووضع منشفة جافة فوق كتفيه ثم أخذ كرسي
وجلس في الشرفة المطلة على الشاطئ، جلس يرقب البحر الذي
كان يظهر شيئاً فشيئاً ثم تلون بخطوط صفراء بلون أشعة الشمس.
استبشر المأمور بيوم جميل وشعر بطمأنينة واستعداد للعمل؛ فقد
خطرت إلى ذهنه الأفكار بعدما قرأ خطاب المحارب وأفاده الاستحمام
في البحر بتنظيم تلك الأفكار.

...

قال فاتسيو لمونتاينو وهو ينظر إليه شزراً:

-لن تستطع حضور المؤتمر بهيئتك تلك.

-هل تلقنت الدرس ممن في جهاز مكافحة المافيا؟

فتح مونتاينو كيساً بلاستيكيًا منتفخ كان بيده وقال:

-معي هنا بنطال وسترة وقميص ورباط عنق، سأغير ملابسي قبل
الذهاب إلى «مونتلوزا»، بل أفعل ما سأقول: أخرجهم من الكيس
وضعهم فوق مقعد وإلا سوف تتجدد تلك الملابس.

-الملابس قد تجددت وانتهى الأمر، أنا لا أتحدث عن الملابس أنا

أتحدث عن وجهك؛ لا بد من ذهابك إلى الحلاق.

قال فاتسيو كلمة «لا مفر» لأنه يعرف مدى كراهية المأمور للذهاب إلى الحلاق. عندما مرر مونتالبانو يده خلف رأسه أقرّ بأن شعره في حاجة للحلاقة فتغير لونه، وتنبأ بحال يومه قائلاً:

-هذا اليوم لن يمر على خير مطلقاً!

وقبل أن يخرج قرر أنه أثناء تواجده عند الحلاق سيذهب أحد رجاله للإتيان بكارميلو إنجراسيا واصطحابه للمكتب.

فسأله فاتسيو:

-وإذا سألتني لماذا آخذه إلى المكتب لماذا أجيبه؟

-لا تجبه أنت.

-وإذا ألح؟

-إذا ألح قل له أنني أريد معرفة متى كانت آخر مرة أخذ فيها الحقنة الشرجية، أيناسبك هذا الرد؟

-وما الداعي للانفعال؟

...

كان الحلاق وغلामه وزبون يجلس على أحد المقعدين الدوارين الذي كان صالون الحلاقة يحويهما بالكاد -في الواقع كانت غرفة تحت السلم- كان الثلاثة يتناقشون بحماس ولكن بمجرد أن رأوا المأمور وهو داخل عليهم عٌقِدَت ألسنتهم، دخل المأمور ووجهه كوجه الحلاقين-كما يسميه هو- يقصد بذلك أن يكون فمه عبارة عن فتحة ضيقة وعيناه نصف مفتوحتين بشكل مريب وحاجباه مقضبان

ما ينم عن الاعتزاز بالنفس والصرامة معًا:

-صباح الخير، هل سأنتظر؟

جاءه الرد أيضًا بصوت رخم ومنخفض:

-لا يا سيدي، تفضل بالجلوس.

فيما كان مونتالبانو يتخذ وضعه على الكرسي الخالي كان الحلاق يحاول كسب إعجاب الزبون بما قام به من عمل بوضع المرأة خلف قفاه متحركًا حركات سريعة كحركات تشارلوت^{١٣} ثم أزال المنشفة من فوق كتفيه وألقاها في وعاء وأخذ منشفة أخرى نظيفة ووضعها فوق كتفي المأمور فيما رفض الزبون أن ينفذ الغلام الشعر من عليه بالفرشاة كالعادة، وأطلق ساقيه للريح وهو يتمتم بقوله «صباح الخير».

كانت مراسم حلاقة الشعر والذقن كثيفة وجنازية؛ فقد تمت في صمت مهيب، دخل زبون جديد وهو يحرك ستارة الكرستال، لكن ما إن وضع قدمًا في الصالون وأدرك وجود المأمور، لم يلبث أن قال: «سأتي لاحقًا» ثم اختفى..

في طريق عودته إلى المكتب استشعر مونتالبانو برائحة تفوح حوله؛ رائحة غير معروفة لكنها رائحة نفاذة، هي ما بين رائحة صمغ الصنوبر ورائحة مساحيق الزينة التي كانت العاهرات تستخدمها منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، غير أن تلك الرائحة كانت رائحة شعره هو.

قال تورتيلا بصوت منخفض وكأنه يتحدث عن مؤامرة:

13 - شخصية كوميدية في السينما الصامتة قدمها الممثل الشهير شارلي شابلن لأول مرة عام

١٩١٤ (المترجم)

-إنجрасيا في المكتب.

-وأين ذهب فاتسيو؟

-إلى منزله؛ لتغيير ملابسه، فقد جاءت مكالمة من المباحث تفيد بأن فاتسيو وجاللو وجالوتسو وجيرمانا لابد أن يحضروا المؤتمر الصحفي هم أيضًا.

فحدّث مونتالبانو نفسه قائلاً: «يبدو أن مكالمتي لذلك الأبله شاكيتانو قد آتت أكلها»

همّ إنجراسيا-والذي كانت ملابسه بالكامل ذات لون أخضر باهت- بالنهوض، فأشار بالمأمور إليه قائلاً:

-استرح، استرح.

وجلس المأمور بدوره إلى مكتبه، وبلا وعي منه مرر يده فوق شعره وعلى الفور فاحت منه بقوة أكبر رائحة الصمغ ومساحيق التجميل تلك، وعندما شعر بها وضع أصابعه على أنفه وشمها ليتأكد له شكه، لكن لم يكن بيده فعل شيء؛ فلم يكن عنده في دورة مياه المكتب شامبو، وفجأة عاد له «وجه الحلاق» فلما رآه إنجراسيا قد تبدل حاله بهذا الشكل، شعر بقلق وتحرك على المقعد وسأله:

-هل حدث شيئاً؟

-بمعنى؟

شعر أنجراسيا بالحرَج وقال:

-عجباً! بكل المعاني.

فقال مونتابانو متهرّباً:

-كلا.

ثم عاد ليشم أصابعه وتوقف الحديث بينهما. ثم سأله المأمور كأنهما صديقان يتحدثان في صالون منزل:

-هل سمعت عما جرى للمحارب المسكين؟

فتنهد إنجراسيا في حسرة وقال:

-أجل، هكذا هي الحياة!

-تخيل يا سيد إنجراسيا، لقد سألته ما إذا كان يمكنه أن يأتيني ليمدّني بتفاصيل أخرى حول ما شاهده ليلة حادث السرقة، واتفقنا على أن نتقابل ولكن..

بسط إنجراسيا ذراعيه كأنه يطالب مونتابانو بالتسليم بالقدر، وبعد أن تخلل حديثهما فاصل من التأمل اللازم في مثل هذا الموقف، قال إنجراسيا:

-معذرةً، أي تفاصيل أخرى كانت لدى المحارب الفقيد؟

أشار مونتابانو بسبابته أن لا، ثم قال أنجراسيا بخبث:

-ألا تظن سيادتك أنه قد قال كل ما عاينه؟

فأشار مونتابانو بأصبعه مجدداً أن لا، عند ذلك حدّث إنجراسيا نفسه قائلاً: «إفعل كما يحلو لك أيها المغفل». بدا إنجراسيا كأنه غصن أخضر يتمايل بفعل النسيم وقال:

-وماذا كنت تريد معرفته منه وقتئذٍ؟

-كنت أريد أن أعرف ما يظن هو أنه لم يره.

تحول النسيم إلى رياح عاتية، واهتز الغصن بشدة..

-لم أفهم.

-سأشرح لك، لقد شاهدت بالطبع لوحة بيتر بروجل^{١٤}، فقال إنجراسيا في توتر:

-من؟ أنا؟ لا، لم أشاهدها.

-لا عليك، إذًا لابد وأنك شاهدت عملاً لهيرونيموس بوس^{١٥}.

-لا يا سيدي.

قالها إنجراسيا وبدأ يتصبب عرقاً، فقد خاف بالفعل هذه المرة وقد تناغم لون وجهه مع ملابسه ذات اللون الأخضر الشاحب.

فقال مونتابانو بأسلوب لطيف:

-هذا لايهم دعك منه، كنت أريد القول بأن من يرى مشهداً ما يتذكر الانطباع الأول عنه، أليس كذلك؟

فاستعد إنجراسيا لقدوم الأسوأ، وقال:

-أوافقك الرأي.

-شيئاً فشيئاً من الممكن بعد ذلك أن يخطر بباله بعض التفاصيل التي رآها وخزنها في ذاكرته، لكنه وضعها بعيداً عن بؤرة تركيزه

14 -رسام ونقاش هولندي من القرن السادس عشر تصور لوحاته القرى والمواضيع الدينية.

15 - رسام هولندي تصور العديد من اعماله الخطيئة والفشل الأخلاقي الانساني

مستخدماص فيها صور العفاريات والحيوانات نصف البشرية. (المترجم)

على اعتبار أنها غير مهمة، سأضرب لك بعض الأمثلة لذلك: نافذة مفتوحة أو مغلقة؛ أصوات معروفة وصغير؛ أغنية؛ مقعد منقول من مكانه أو سيارة تُركت حيثما لايجب أن تكون؛ ضوء يتسرب.. أشياء من هذا القبيل، تفاصيل خاصة يتضح في النهاية أنها ذات أهمية كبيرة.

أخرج إنجراسيا من جيبه منديل أبيض مؤطر باللون الأخضر وجفف عرقه:

-هل جئت بي إلى هنا لتخبرني بهذا فقط؟!

-كلا، فأنا لا أسمح لنفسي بأن أزعجك عبثًا، لقد أردت أن أعرف فقط ما إذا اتصل بك أولئك الذين قاموا -في رأيك- بالتدبير للمزاح المتعلق بالسرقة المزعومة.

-لا أحد يوشي بنفسه.

-شيء عجيب!

-ولماذا؟

-لأن الجميل في المزاح هو الاستمتاع به مع من وقع ضحية لهذا المزاح، على أي حال إذا اتصلوا بك فلتخبرني، طاب يومك.

فأجابه إنجراسيا وهو يقوم من مكانه:

-طاب يومك

وعَدّل البنطال الذي قد التصق بمقعده.

ظهر فاتسيو في غاية تأنقه ببذة متألقة وقال:

-ها أنا هنا.

-والبابا في روما.

-حسنًا أيها المأمور، لقد فهمت اليوم ليس بالوقت المناسب.

وهمّ بالانسحاب لكنه توقف عند عتبة الباب، لقد اتصل القائد أوجيللو وقال أنه يشعر بألم رهيب في أسنانه، وأنه سيحضر فقط إذا لزم الأمر ذلك.

-اسمع، أتدري إلى أي مصير آلت حطام السيارة ماركة «الشنكونشتو» الخاصة بالمحارب ميزوراكا؟

-أجل سيدي، إنها مازالت في موقف السيارات التابع لنا. انتبه لما أقول: إن كل ذلك سببه الحسد.

-عما تتحدث؟

-عن ألم الأسنان الذي أصاب القائد أوجيللو، إن ذلك كان بسبب حسده.

-و أوجيللو يحسد من؟

-يحسده أنت؛ لأنك ستحضر المؤتمر الصحفي أما هو فلا، وقد يكون سخطاً لأنك رفضت أن تخبره باسم المجرم الذي ألقينا القبض عليه.

-أيمكنك أن تسدي إليّ معروفاً؟

-حسنًا سيدي، لقد فهمت، سأصرف.

عندما أحكم فاتسيو إغلاق الباب قام المأمور بالاتصال هاتفياً برقم ما، فأجابه صوت نسائي بدا وكأنه محاكاة ساخرة لدوبلاج بصوت سيدة زنجية:

-ألو، من يتحدث؟ من أنت؟

فحدّث مونتابانو نفسه متسائلاً: «من أين يأتون بمثل تلك الخادמות في منزل عائلة كارداموني؟» ثم رد على الخادمة:

-هل السيدة إنجريد موجودة بالمنزل؟

-أجل ولكن من يتحدث؟

-أنا سالفو مونتابانو.

-أنت، فلتنتظر.

أما صوت السيدة إنجريد فكان مطابقاً لصوت ممثلة الدوبلاج الإيطالية التي قامت بالأداء الصوتي لجريتا جاربو^{١٦} والتي كانت سويدية الجنسية هي الأخرى:

-مرحباً سالفو، كيف حالك؟ إننا لم نتقابل منذ فترة طويلة.

-إنجريد أنا بحاجة لمساعدتك هل أنت غير مشغولة هذه الليلة؟

-صراحةً سأكون مشغولة، لكن إذا كان الأمر خطيراً ويهمك سأدع كل ما بيدي.

-هو ذاك بالفعل.

-إذاً أين نلتقي ومتى؟

-الليلة، عند تمام التاسعة بمقهى مارينيللا.

...

كان المؤتمر الصحفي يمثل بالنسبة لمونتابانو معاناة من إحراج شديد: حضر نائب رئيس المباحث دي دومينيسيس من جهاز مكافحة

16- ممثلة أمريكية سويدية المولد ولدت سنة ١٩٠٥ وتوفيت ١٩٩٠ (المترجم)

المافيا في باليرمو وجلس إلى يمين رئيس المباحث، في حين أن بعض الحركات التحذيرية والنظرات المريبة من رئيس المباحث أجبرت مونتالبانو على الجلوس إلى يسار رئيسه وقد كان يريد أن يظل وسط الجمهور، ووقف خلفهم كلاً من فاتسيو وجيرمانا وجاللو وجالوتسو. استهل رئيس المباحث الحديث مصرحاً لأول مرة باسم المقبوض عليه، إنه أخطر رجل من بين أخطر اثنين: جايتانو بينيتشي الشهير باسم طانو اليوناني، وهو مجرم معتاد القتل وهارب منذ سنوات، كان هذا التصريح بمثابة صدمة بمعنى الكلمة.

الصحفيون الذين حضروا بكثرة -كما كان يوجد أربع كاميرات تليفزيونية- وكانوا يجلسون على مقاعدهم راحوا يتحدثون إلى بعضهم البعض حتى أن رئيس المباحث استطاع بالكاد أن يستعيد الهدوء للمكان، ثم أوضح أن الفضل في عملية الضبط يعود إلى المأمور مونتالبانو الذي لاقى العون من رجاله وأخذ يذكر أسماءهم وهو يقدمهم للحضور، وأردف قائلاً: أن مونتالبانو استطاع بمهارة وشجاعة أن يستثمر الفرصة المناسبة، ثم تحدث بعد ذلك دي دومينسيس الذي أخذ يوضح دور طانو اليوناني في داخل التنظيم العصائي، ذلك الدور الذي لم يكن دور الزعيم الأول، لكنه بكل تأكيد ضمن أدوار الصف الأول ثم عاد رئيس المباحث للجلوس على مقعده، فيما أدرك مونتالبانو أنه بذلك قد ترك للكلاب؛ حيث انهالت عليه الأسئلة متلاحقة أسوأ من طلاقات كلاشنكوف:

-هل حدث تبادل لإطلاق النار؟

-أكان طانو اليوناني بمفرده؟

-هل وقعت إصابات بين رجال الأمن؟

-ماذا قال طانو عندما شددتم وثاقه؟

-هل كانو طانو نائمًا أم مستيقظًا؟

-أكانت برفقته سيدة؟ أم كلب؟

-أصحيح أنه كان يتعاطى المخدرات؟

-كم عدد جرائم القتل التي ارتكبتها؟

-ماذا كان يرتدي؟ هل كان عاريًا؟

-هل صحيح أن طانو من مشجعي فريق الميلان؟

-هل صحيح أنه رسم على جسدة صورة للمثلة أورنيلا موتي؟

-أيمكن لسيادتك أن تشرح لنا ما هي تلك الفرصة المناسبة التي تحدث عنها رئيس المباحث؟

ضاق مونتابانو ذرعًا بالإجابة على تلك الأسئلة بل كان لا يعي الكثير مما يقول وحَدَّث نفسه قائلًا: «لحسن الحظ أن التلفاز موجود؛ فهكذا يمكنني أن أرى نفسي مرة أخرى وأفهم تلك السخافات التي أقولها. بعد ذلك -ومما زاد الطين بلة- وجهت له المفتشة أنا فيرارا نظرات عاشقة مركزة عليه.

حاول الصحفي نيكولو تزيتو من قناة «ريتي ليبرا» -وقد كان صديقًا مقربًا لمونتابانو- انتشار المأمور من تلك الرمال المتحركة التي يغرق فيها:

-اأذن لي سيدي المأمور، لقد قلت أنك قابلت طانو وهو عائد من «فياكا» حيث دعاه بعض أصدقائه لتناول الطابيسكا. هل ما فهمته صحيح؟

-أجل.

-وما هي الطابيسكا إذًا؟

وحيث أنهما قد تناولها مِرارًا سويًا فقد كان سؤال زيتو بمثابة طوق

النجاة لموتالبانو فقام موتالبانو بدوره بالتشبث به بعد أن أفاق
من صدمة شديدة ومحققة، ثم دخل المأمور في سرد تفاصيل وصف
تلك البيتزا الغريبة متعددة النكهات.





الفصل السابع

ظهر بالكادر رجل لا يفهم شيئاً، متردداً، مرتباً وشارد الذهن وشاعراً بضيق كما أن عيناه زائغتان، كانت عدسة كاميرا قناة «ريتي ليبيرا» تركز عليه بلا هوادة وتضعه وسط كادر التصوير، عند رؤيته لذلك الرجل، بالكاد تعرف مونتالبانو على نفسه وهو تحت سيل من أسئلة الصحفيين الفضوليين أولاد العاهرة. كان أفضل جزء في المؤتمر وهو الذي شرح فيه طريقة عمل بيتزا «الطابيسكا» لم تتم إذاعته؛ فرمما لم يكن يتماشى مع سياق الموضوع الرئيسي وهو القبض على طانو.

فجأة بدت له أكلة الباذنجان على طريقة مدينة بارما والتي كانت الخادمة قد تركتها في الفرن، بدت له عديمة الطعم، لكن هذا لا يمكن، وبالفعل لم تكن كذلك بل كان السبب هو حالته النفسية عند مشاهدة كل هؤلاء الأوغاد في التلفاز.

بدون سابق إنذار شعر برغبة في البكاء وفي أن يتمدد على الفراش وأن يلتحف جسده بالكامل بهلانة كأنه مومياء.

-سيدي المأمور مونتالبانو أنا لوتشانو أكواسانتا من جريدة «ميتزوجورنو» أرجو أن تتلطف بالسماح لي بإجراء حديث صحفي معك.

-لا

-أقسم على أنني لن أضيع وقتك

-لا

...

-معي المأمور مونتالبانو؟ أنا سبنجاردي، أتيليو سبنجاردي من قناة «راي باليرمو»، نحن بصدد إعداد ندوة عن موضوع الـ..

-لا

-هلاً تركتني أكمل حديثي؟

-لا

...

-حبيبي، أنا ليفيا كيف حال صحتك؟

-بخير، لماذا تسألين عن صحتي؟

-لقد شاهدتك للتو في التلفاز.

-يا إلهي! هل شاهدوني في كل أنحاء إيطاليا؟

-أظن ذلك، لكنه كان مقطعًا قصيرًا، أتعرف ذلك؟

-هل كان كلامي مسموعًا؟

-لا، كان المذيع هو من يتحدث فقط، ولذلك قلقت عليك؛ فقد كان لون وجهك أصفر كالليمونة.

-هل بدت عليّ ألوان أيضًا؟

-بالطبع، لقد كنت تضع يدك فوق عينيك وعلى جبينك بين الحين والآخر.

-كنت أعاني من صداع بالرأس كما كانت الأضواء تزعجني.

-وهل تحسنت؟

-أجل.

...

-المأمور مونتالبانو؟ أنا ستيفانيا كواتريني من مجلة «إسري دونًا»، نود أن نجري معك حديثًا صحفيًا عبر الهاتف، هل تسمح بالبقاء على الخط؟

-لا.

-الأمر لن يستغرق سوى ثوانٍ معدودة.

-لا.

...

-أسمح لي أن أنال شرف التحدث مع المأمور الشهير مونتالبانو

الذي يعقد مؤتمرات صحفية؟

-كفوا عن إزعاجي!

-اهداً لن نزعجك، بل سنشج مؤخرتك.

-من يتحدث؟!

-موتك هو من يتحدث، أردت أن أخبرك إنني لن أغفر لك فعلتك بسهولة أيها الممثل الكذاب، تظن أنك خدعتني بتلك المسرحية التي قمت بها مع صديقك طانو؟ لذلك ستدفع ثمن محاولتك خداعي.

-ألو، ألو..

انقطع الاتصال ولم يكن لدى مونتالبانو الوقت ليتأمل تلك الكلمات المهددة؛ لأنه أدرك أنه سمع رنين جرس الباب منذ برهة وسط ضجيج تلك الاتصالات، لسبب غير معروف أقنع نفسه بأن من بالباب هو أحد الصحفيين يتمتع بمهارة أكثر من زملائه وقد قرر أن يحضر إلى مونتالبانو مباشرة. هرع مونتالبانو غاضباً نحو الباب، وقبل أن يفتح صاح قائلاً:

-أي شخص لعين أنت؟!

-أنا رئيس المباحث.

وماذا يريد رئيس المباحث من مونتالبانو في منزلة وفي هذا التوقيت دون حتى أن يخبره قبل مجيئه، ضرب مونتالبانو كالون الباب ففتح الباب:

-صباح الخير.

قالها مونتالبانو وتنحى جانباً ولكن رئيس المباحث لم يتحرك وقال:

-لا وقت لدينا، فلتهندم نفسك ولتلق بي في السيارة.

استدار المأمور وابتعد عن الباب مارًا أمام مرآة الدولاب الكبيرة، ففهم مقصد رئيس المباحث بقوله «هندم نفسك»؛ فقد كان المأمور عاريًا كما ولدته أمه. لم تكن السيارة تحمل لوحة معدنية مكتوب عليها «الشرطة»؛ بل كان عليها لوحة السيارات الأجرة، في مكان السائق جلس ضابط من مباحث «مونتلوza» يرتدي زيًا مدنيًا وكان مونتالبانو يعرفه. بمجرد أن جلس مونتالبانو تكلم رئيس المباحث:

-معذرة لأنني لم أستطع إخبارك بمجيئي فهااتفك كان مشغولًا باستمرار.

-حقًا.

بالطبع كان مونتالبانو يمكنه أن يجادل رئيس المباحث لكن هذا ليس أسلوبه كشخص مهذب ورزين؛ فلم يشرح له مونتالبانو السبب في أن الهاتف لم يتوقف عن الرن، لكنه لم يتصرف بهذا الشكل بسبب رزائنه وحكمته فرئيسه متغير اللون على غير عادته، ووجهه متوتر وفمه معوج حتى منتصف وجهه في عبوس ينم عن ألم.

بعد ثلاثة أرباع الساعة سلكوا الطريق الواصل بين مدينة «مونتلوza» وباليرمو وكان السائق يندفع بقوة. بدأ المأمور في مشاهدة المناظر الطبيعية في جزيرته والتي لم تعد تروقه. «هل تعجبك حقًا؟» هكذا سأله ليفيا وهي مندهشة حينما أخذها إلى تلك المناطق منذ بضعة سنوات. إنها عبارة عن تلال مجدبة تكاد تكون مقابر ضخمة مغطاة ببقايا حشائش جافة خالية من أثر وجود الإنسان لما حدث لها من نكبات بفعل الجفاف والحر الشديد أو ببساطة أكثر بسبب الصراع مع عوامل الطبيعة الذي أنهكها وكان محسومًا منذ بدايته. من حين إلى آخر كان يتخلل تلك الحشائش اللون الرمادي لصخور هرمية الشكل تكونت من العدم بشكل عجيب أو ربما هبطت من

الأعلى، كانت هوابط وصواعد^{١٧} في هذا الكهف العميق ذو السماء المفتوحة الذي يسمى صقليه، تلك المنازل القليلة جدًا جميعها من طابق واحد ذات السقف المميز لمباني صقليه ومبنية بالحجارة دون ملاط وقد وضعت الحجارة بشكل منحني، وفيما يبدو أن حظهم النعس حملهم على مقاومة هزة من تلك الأرض التي لم تعد تريد أن تشعر بهم فوقها، صحيح أنه كان هناك ندرة من بعض البقاع الخضراء لكنها لم تكن أشجارًا أو زرعًا؛ بل كان الصبار الأمريكي ونبات سينيسانتا^{١٨} ونبات السجينا^{١٩} وكذلك نبات الارباسادا وقد كانت تلك النباتات متهاكة ومغبرة ومقبلة على الاستسلام هي الأخرى.

وكأنه انتظر المشهد المناسب: فشرع رئيس المباحث في الكلام وأدرك المأمور أن هذا الكلام ليس موجه له هو لكنه يتوجه به لنفسه كحوار داخلي غاضب ومتألم.

-لماذا فعلوا ذلك؟ من سولت له نفسه أن يبت في هذا الأمر؟ لو أنه تم إجراء تحقيق -وهو افتراض مستحيل- ربما اتضح أن أحدًا لم يقدم على هذا الفعل أو أن من قاموا بذلك تصرفوا وفقًا لأوامر عليا، حسنًا فلننظر إلى هؤلاء الرؤساء الذين أعطوا تلك الأوامر: لقد أنكر قائد جهاز مكافحة المافيا وكذلك وزير الداخلية ورئيس البرلمان ورئيس الجمهورية لم يتبقى في النظام إلا البابا والمسيح والسيدة العذراء والله وهؤلاء ربما يحتاجوا مستنكرين «كيف يمكن تصور أننا من أصدر تلك الأوامر؟!» لم يتبقى إلا الشيطان الذي عُرف عنه أنه السبب في كل شر، إذًا ها هو المذنب؛ إنه الشيطان. على أية حال فإن ما فعلوه هو أنهم قرروا نقله إلى سجن آخر.

تجرأ المأمور وسأل:

17- وهي رواسب كلسية تتكون على شكل عواميد في الكهوف . تتدلى الهوابط من سقف

الكهف بينما ترتفع الصواعد من أرضه. (المترجم)

18- نبات بقولي تستخدم بذورة كبديل للقهوة.

19- نبات تستخدم أوراقه لصناعة المكانس (المترجم)

-طانو؟

ورئيس المباحث حتى لم يجبه، وأكمل:

-لماذا؟! من المؤكد أننا لن نعرف السبب أبدًا، بينما نحن نعتقد المؤتمر الصحفي تم وضعه في سيارة مدنية بها شرطيان يرتديان الزي المدني لحراسته -يا إلهي كم كانوا خبثاء- بالطبع كي لا يلفتا الانتباه وهكذا عندما قدمت من شارع صغير دراجة بخارية مدنية حالتها ممتازة من ناحية بلدة «ترابيا» يركب عليها اثنان وبالطبع وجههم غير معروف بسبب الخوذة.. لقد مات الشرطيان أما طانو فيحتضر الآن في المستشفى، هذا كل ما حدث.

حزن مونتالبانو وحدث نفسه ساخرًا بأنهم لو كانوا نجحوا في قتله قبل سويغات لوفروا عليه مشقة المؤتمر الصحفي. وأخذ يطرح بعض الأسئلة فقط ظنًا منه أن رئيس المباحث قد هدئ بعد أن باح بكل ذلك.

-لكن كيف تنامي إلى علمهم أن...

ضرب رئيس المباحث المقعد الذي أمامه ضربة قوية فانتفض السائق من مكانه فيما جنحت السيارة قليلًا عن جادة الطريق: «ما تلك الأسئلة التي يطرحها عليّ مونتالبانو؟! إنه بالفعل شخص أناني وسطحي، وهذا ما يثير سخطي».

انتظر المأمور بضع دقائق قبل أن يعود ويسأل مجددًا:

-وما علاقتنا نحن بذلك؟

-إنه يريد أن يتحدث إليك، لقد أدرك أنه في النزاع الأخير ويريد

أن يقول لك شيئًا.

-حسنًا، ولماذا أزعجت نفسك بالمجيء؟ كان يمكنني الذهاب إليه وحدي.

-جئت معك كي أجنبك التأخير والمعوقات فهؤلاء -كما يتمتعون به من ذكاء خارق- يمكنهم منعك أيضًا من إتمام ذلك الحوار.

أمام بوابة المستشفى وقفت سيارة مصفحة وحوالي عشرة حراس منتشرون في الحديقة الصغيرة ومعهم مدافع رشاشة في وضع التصويب، فقال رئيس المباحث:

-أوغاد.

تم التحقق من شخصية الرجلين ما لا يقل عن خمس مرات وهما في حالة غضب متزايد، ثم وصلا أخيرًا إلى الممر الذي به غرفة طانو وقد تم إجلاء جميع المرضى عن المكان إلى مكان آخر وسط لعن وسباب، عند بداية ونهاية الممر وقف أربعة شرطيين مسلحين كما وقف اثنان آخران أمام باب الغرفة التي من الواضح أن طانو داخلها، أبرز لهما رئيس المباحث تصريح الزيارة وقال للحارس:

-أهنتك.

-على أي شيء سيدي الرئيس؟

-على حفظ الأمن.

-شكرًا.

قالها الحارس ووجهه مشرقًا؛ فلم يفهم شيئًا من سخريه رئيس المباحث، ثم قال رئيس المباحث لمونتالبانو:

-فلتدخل أنت بمفردك، وسأنتظر أنا بالخارج.

عندئذٍ فقط لاحظ رئيس المباحث شحوب لون المأمور وتبلل جبينه بالعرق:

-يا إلهي! ما بك يا مونتالبانو؟ هل أنت مرهق؟

فأجابه المأمور على مضض:

-أنا في أحسن حال.

في الواقع كان يكذب؛ فقد كان في أسوأ حال فقد كان المأمور لا يكثرث مطلقًا بالملوث ويمكنه أن ينام معهم ويتظاهر أنه يقاسمهم الخبز أو أن يلعب معهم لعبة «تريستي تريستولا»^{٢٠} ولا يعبأ بهم على الإطلاق لكن المحتضرين يجعلونه يتصبب عرقًا وترتعش يداه ويشعر بأن جسده قد تجمد بالكامل وأن معدته قد ثقلت.

ظهر طانو من تحت الملائة التي كانت تغطيه وقد بدا أن حجمه قد قلّ عما كان مونتالبانو يتذكره، كما كانت ذراعه ممددان على جانبي جسده، ذراعه الأيمن ملفوف بضمادة سميكة، وكانت تخرج من أنفه -التي أصبحت شبه شفافة- أنابيب الأكسجين، ووجهه بدا كقناع ذو عيين من الشمع. بعد أن قاوم رغبته في الفرار من المكان أخذ المأمور كرسيًا معدنيًا وجلس إلى جوار المحتضر الذي أبقى عينيه مغلقتين كأنه نائم.

-طانو، طانو أنا المأمور مونتالبانو.

كانت ردّة فعل طانو فورية وجحظت عيناه وهب ليعتدل بنصف جسمه في حركة سريعة؛ بالتأكيد بسبب فطرته كحيوان مُطارَد منذ فترة طويلة، ثم أشعلت عيناه النار في مونتالبانو بعد ذلك هدأ هذا

20- لعبة كوتشينة إيطالية يرجح أنها إسبانية في الأصل (المترجم)

التوتر بشكل ملحوظ وقال المأمور:

-أتريد التحدث إليّ؟

فأشار طانو برأسه أن نعم، ولوح بابتسامة خفيفة ثم تحدث ببطء وإجهاً شديداً:

-لقد ألقوا بي إلى خارج الطريق رغم كل هذا.

يقصد بكلامه ذلك الحوار الذي دار بينهما في المنزل ولم يكن منتالبانو يعرف كيف يرد عليه، ثم طلب منه طانو قائلاً:

-اقترّب.

فنهض مونتالبانو من على المقعد وانحنى في اتجاه طانو الذي طالبه ثانيةً:

-اقترّب أكثر.

انحنى المأمور حتى لامست أذنه فم طانو، فتسببت أنفاس طانو الحارة في شعور المأمور بالاشمئزاز، وعندها قال له طانو ما كان يريد أن يقوله بوضوح وبشكل محدد؛ غير أن الكلام أرهقه فأغلق عينيه مرة أخرى ولم يدر مونتالبانو ماذا يفعل، أيذهب أم يبقى لبعض الوقت ثم اختار أن يجلس مرة أخرى وقال طانو شيئاً بصوت متألم، فقام المأمور ثانيةً وانحنى فوق طانو المحتضر:

-ماذا قلت؟

-أنا خائف!

لقد كان خائفاً، ولم تطاوعه نفسه على النطق بها قبل تلك اللحظة. هل كانت هذه هي الرحمة؟ تلك الموجة المفاجئة من دفء المشاعر، ذلك القلب النابض، ذلك الشعور الغامر؟ وضع مونتالبانو

يده على جبين طانو، واستطاع تلقائيًا هذه المرة ألا يخاطبه بالصيغة الرسمية:

-عليك ألا تشعر بالخزي وألا تستحي أن تقولها لأنك إذا إنسان، جميعنا نخاف عند تلك اللحظة، الوداع يا طانو.

خرج مونتالبانو بخطوات مسرعة، وأغلق الباب من خلفه، في الممر كان يوجد -بالإضافة إلى رئيس المباحث والشرطين- دي دومينيسيس وشاكيانو اللذان هرعا نحو مونتالبانو

سأله دي دومينيسيس في قلق:

-ماذا قال؟

-لاشيء، لم يستطع أن يقول شيئًا، من الواضح أنه كان يريد التحدث، لكنه كان يعالج سكرات الموت، فقال شاكيانو متشككًا:

-عجبًا!

وضع مونتالبانو كفه المفتوح بهدوء على صدر شاكيانو ثم دفعه بعنف فتقهقر شاكيانو ثلاث خطوات للخلف مندهشًا، وقال المأمور وهو يعض على أسنانه:-فليتبق مكانك ولا تقترب!

فتدخل رئيس المباحث:

-هذا يكفي يا مونتالبانو!

بدا دي دومينيسيس غير مبالي بما يحدث بين الاثنين، فأصر شاكيانو على رأيه وهو ينظر إلى مونتالبانو نظرة استجوابية:

-من يدري ماذا كان يريد أن يقول لك.

وكان تعبير وجهه يقول: أنت تكذب، فرد عليه مونتالبانو بأسلوب

فظ:

-يمكنني أن أقول لك أي إجابة مختلقة إذا كان ذلك يرضيك!

قبل أن يغادر المستشفى قام مونتايبانو بصب كأس كبير من ويسكي J&B سادة في البار.

عندما مروا ببوابات مدينة "مونتلوزا" قدّر المأمور أنهم عند السابعة والنصف مساءً لابد وأن يكونوا قد عادوا إلى "فيجاتا" وبذلك يمكنه الوصول في موعده مع السيدة إنجريد. سأل رئيس المباحث مونتايبانو بهدوء:

-لقد تحدث، أليس كذلك؟

-أجل

-هل قال شيء مهم؟

-في رأيي نعم.

-ولماذا اختارك أنت بالتحديد؟

-لقد وعدني أن يهديني هدية شخصية جزاءً لما أبديته من إخلاص تجاهه خلال قضيته كلها.

-أنا أسمعك، أخبرني.

سرد مونتايبانو كل شيء وفي النهاية ظل رئيس المباحث يفكر ثم تنهد وقال:

-فلتحل أنت كل شيء مع رجالك، من الأفضل ألا يعرف أحد أي شيء، كما يجب ألا يعرف أحدًا من المباحث شيئًا، لقد رأوه لتوهم

ومن الممكن أن ترى الجواسيس في كل مكان. من الواضح أنه دخل في تلك الحالة المزاجية السيئة التي كانت قد داهمته أثناء طريق الذهاب إلى طانو، وقال غاضبًا:

-هل انحدرنا إلى تلك الدرجة؟!

في وسط الطريق رن الهاتف، فرد رئيس المباحث:

-ألو

من يحدثه على الطرف الآخر تحدث بإيجاز، ثم قال رئيس المباحث:

-شكرًا

وقال موجهاً حديثه لمونتالبانو:

إنه دي دومينيسيس، كان يخبرني بكل تلطف أن طانو قد مات فعليًا بعد خروجنا من المستشفى، فقال مونتالبانو:

-علينا أن نكون يقظين.

-لماذا؟

-كي لا تسرق الجثة.

قال المأمور ذلك بسخرية مختلطة بحزن ثم ساد الهدوء للقليل من الوقت.

-لماذا تعجل دي دومينيسيس بإبلاغك نبأ وفاة طانو؟

-يا عزيزي لقد كانت المكالمة موجهة إليك في الأصل؛ من الواضح أن دي دومينيسيس -بما أنه غبي- على يقين من أن طانو قد قال

لك شيئاً ما، وأراد أن يقتسم معك الكعكة أو أن يسرقها بالكامل.

في المكتب لم يجد مونتالبانو إلا كاتاريلو وفاتسيو وهذا أفضل؛ فهو يفضل الحديث مع فاتسيو على انفراد، وبحكم مسؤوليات الوظيفة وليس فضولاً سأل:

-وأين باقي الأفراد؟

-لقد ذهب الأربعة شباب على دراجتين بخاريتين للمشاركة في سباق سرعة.

-يا إلهي! أذهب كل من في القسم للاشتراك في سباق سرعة؟!

فأخذ فاتسيو يشرح له:

-إنه سباق من نوع خاص: تكون إحدى الدراجتين خضراء والأخرى صفراء وتنطلق الصفراء أولاً وتجري على طول الطريق وتخطف ما يمكن خطفة، بعد ساعة أو ساعتين عندما يبدأ الناس تنطلق الدراجة الخضراء وكذلك تخطف ما يمكن خطفة ثم يغيروا الطريق والحي، ولكن من ينطلق هذه المرة أولاً هي الدراجة الخضراء، فهي مباراة يفوز بها من يستطيع السرقة أكثر من الآخر.

-لقد فهمت، اسمع يا فاتسيو، عليك أن تمر في المساء على شركة فينتي واطلب باسمي من مسئول الحسابات أن يمدنا بحوالي عشرة أدوات ما بين مجارف ومعاول ومعازق وحفارات، وسنكون هناك جميعاً في تمام السادسة صباحاً وسيظل في المكتب القائد أوجيللو وكاتاريلو. كما أريد سيارتين، بل سيارة واحدة؛ لأن شركة فينتي ستمدنا أيضاً بسيارة جيب. بالمناسبة من معه مفاتيح موقف السيارات الخاص بنا؟

-تكون دائماً مع من في الحراسة، والآن هي مع كاتاريلو.

-فلتأخذها منه وتعطها لي.

-فوراً، لكن معذرة سيدي المأمور لماذا نحتاج المجارف والفؤوس؟

-لأننا بدايةً من الغد سنغير مهنتنا؛ وسنشتغل بالزراعة ورعاية الحقول، هل هذه الإجابة وافية؟

-منذ بضعة أيام سيدي المأمور، ولا يمكن لحد التحدث إليك، هل لي أن أعرف ماذا بك؟ لقد أصبحت مهمومًا وثقيل الظل.



الفصل الثامن

منذ أن تعرف المأمور على إنجريد خلال تحقيق في قضية كانت إنجريد بريئة منها تمامًا وزُجت فيها ككبش فداء بدلائل مزيفة، منذ ذلك الحين نشأت بين المأمور وتلك السيدة الفاتنة صداقة من نوع غريب؛ فمن حين لآخر تخبر إنجريد المأمور عن آخر أخبارها عبر الهاتف ويقضون الليل في الدردشة سويًا. تلك الشابة تستودع مونتالبانو أسرارها ومشاكلها وهو يسدي إليها النصح بحكمة وبشكل أخوي؛ فقد كان كالأب الروحي -الدور الذي فرضه على نفسه قصرًا رغم ما تثيره إنجريد من أفكار غير بريئة بالمرة- والذي تتجاهل منه النصائح تمامًا. في جميع المواعيد التي كانت بين مونتالبانو وإنجريد -وهي تقريبًا ستة أو سبعة مواعيد- لم يحضر مونتالبانو أبدًا قبلها؛ فإنجريد بالفعل تعشق الانضباط بجنون.

أيضًا هذه المرة كانت على نفس المنوال؛ فبعد أن أوقف مونتالبانو

السيارة في موقف سيارات في مقهى مارينيللا رأى أن سيارة إنجريد تقف إلى جوار سيارة بورش رياضية تشبه النيزك بلونها الأصفر غريب الذوق والمؤذ للعين.

عندما دخل مونتالبانو المقهى كانت إنجريد واقفة في الشرفة تشرب الويسكي وبجوارها رجل في الأربعينيات من عمره، كانت تتحدث له بدون تكلف، يرتدي ملابس ذات لون أصفر كناري في قمة الأناقة ويده ساعة ماركة روليكس وشعره مسرح تسريحة ذيل الحصان. تساءل مونتالبانو هل يغير السيارة أيضاً عندما يغير ملابسه؟

بمجرد أن رآته إنجريد هرولت نحوه وعانقته وطبعت قبلة خفيفة على شفتيه، كان من الواضح أنها سُرّت للقاءه، وكذلك هو أيضاً. وهب الله إنجريد جمالاً ساحراً فقد كانت ترتدي بنطالاً جينز يصف سيقانها الطويلة، وصندلاً وقميصاً سماوياً شفاف يظهر استدارة صدرها وشعرها مناسب فوق كتفها. قالت إنجريد للرجل الكناري الذي كان برفقتها:

-معذرة، أراك لاحقاً.

ثم ذهبت هي ومونتالبانو للجلوس على منضدة، ولم يرد مونتالبانو شرب أي شيء، فيما ذهب الرجل ذو تسريحة ذيل الحصان والساعة الروليكس لاحتساء الويسكي في الشرفة المطلة على البحر، نظر مونتالبانو وإنجريد إلى بعضهما البعض مبتسمين، ثم قالت إنجريد:

-أراك بحالة جيدة، لكنك بديت لي اليوم في التلفاز كأنك تعاني من شيئاً ما.

فأجابها المأمور:

-فعلاً

ثم غير الموضوع قائلاً:

-أنتِ أيضًا تبدين جميلة.

-هل كنت تريد رؤيتي كي نتبادل المجاملات؟

-بل أردت أن أطلب منك معروفًا.

-تحت أمرك.

كان الرجل ذو «ذيل الحصان» يرمقهم من الشرفة..

-من هذا الرجل؟

-رجل كنت أعرفه، تقابلنا مصادفة في الشارع وجاء معي إلى هنا
وقدّم لي شرابًا.

-ماذا تقصدين بأنك كنتي تعرفيه؟

أصبحت إنجريد جادة وقصّبت جبينها:

-أهي الغيرة؟

-أنت تعرفين جيدًا أنها ليست غيرةً، ثم أنه لا يوجد سبب لذلك،
كل ما في الأمر أنني منذ رأيته وأنا أشعر بثقل ظلة، ما اسمه؟

-عجبًا لك يا سالفو! ماذا يهمك في ذلك؟

-سألتك ما اسمه؟!

-اسمه ببي، ببي دي فيتو.

-وماذا يعمل كي يشتري الساعة الروليكس والسيارة البورش وكل
هذا؟

-يعمل بتجارة الجلود.

-هل ضاجعك؟

-أجل، أظن أن ذلك كان في العام الماضي، كان يطلب مني أن نفعلها ثانيةً، لكنني لم أكن أحمل أي ذكرى طيبة لهذا اللقاء.

-هل هو شخص فاسد؟

نظرت إليه إنجريد لبرهة قم انفجرت في الضحك حتى أنها أفزعت النادل.

-لماذا تضحكين؟

-بسبب التعبيرات التي ارتسمت على وجهك، إنها تعبيرات شرطي أمره مفتضح، لا يا سالفو أنا أصدقك القول؛ إن ما أحمله له من ذكرى ما هو إلا هُراءً سخيلاً.

أشار مونتالبانو للرجل ذو تسريحة ذيل الحصان أن يدنو من منضدتهما وبينما يقترب الرجل منهما وجهه تعلوه الابتسامة نظرت إنجريد للمأمور بقلق، ثم قال الرجل:

-مساء الخير، أنا أعرفك أتعرف ذلك؟ أنت المأمور مونتالبانو.

-للأسف أخشى أن تكون لاتعرفني بالقدر الكافي.

ارتبك الرجل وارتجف الويسيكي في كأسه وأصدرت مكعبات الثلج صوتاً..

-لماذا قلت للأسف؟

-ألست أنت جوزي دي فيتو وتعمل بتجارة الجلود؟

-أجل لكنني لم أفهم.

-ستفهم في الوقت اللازم، خلال الأيام القادمة ستستدعى إلى

مباحث «مونتلوزا» وسأكون أنا هناك وسيمكننا التحدث طويلاً.

على الفور شحب وجه الرجل ذو ذيل الحصان، ووضع الكأس على المنضدة فلم يعد باستطاعته إمساكها بثبات.

-أيمكنك أن تتلطف وتخبرني مقدماً.. أن تشرح لي..

بدا على مونتالبانو تعبير من قد يتكرم بإحسان زائد، وقال:

-حسناً، فقط لأنك صديق تلك السيدة التي أمامي، أتعرف رجلاً ألمانياً يدعى كورت سوكرت^{٢١}؟

-أقسم لك أنني لم أسمع عنه قط.

هكذا قال الرجل وهو يخرج منديلاً أصفر اللون من جيبه ليحفظ به عرق جبينه.

-بما أنا هذه هي إجابتك فليس لدي ما أقوله.

قال المأمور ذلك ببرود، ثم نظر للرجل بإمعان وأشار إليه بأن يقترب منه أكثر:

-سأدلي إليك بنصيحة: لا تتماكر، طابت ليلتك.

فرد فيتو وهو شارد الذهن:

-طابت ليلتك.

ثم خرج مسرعاً دون أن يلقي نظرة على إنجريد. ثم قالت إنجريد بهدوء:

-أنت أحمق، وقذر أيضاً.

21- كاتب صحفي من أم إيطالية وأب ألماني ولد عام ١٨٩٨ واتخذ لقب Malaparte وتعني بالاطالية الجانب السيئ وهو لقب مشتق من اسم الزعيم الفرنسي Bonaparte والتي تعني حرفياً بالاطالية الجانب الجيد. (المترجم)

-هذا صحيح؛ من حين لآخر تأتيني حالة فأصبح أحمقًا وقذرًا.

-هل سوكرت هذا شخصية حقيقية؟

-أجل موجود، هو كاتب لكنه أطلق على نفسه اسم مالاباري.

سمعا ضجيج محرك السيارة البورش وصوت احتكاك الإطارات في الأرض، فسألته إنجريد:

-هل استرحت الآن؟

-نوعًا ما.

-بالفعل لقد أدركت منذ دخولك المكان أنك في حالة مزاجية سيئة، ماذا جرى لك، هل لك أن تصارحني؟

-أجل يمكنني، لكن الأمر لا يستحق، إنها مجرد مشاكل في العمل.

اقترح مونتاالبانو على إنجريد أن تترك سيارتها في موقف سيارات المقهى وأن يهرن لاحقًا لأخذها، لم تسأله إنجريد إلى أين هما ذاهبان ولا ماذا سيفعلان، ثم سألهما فجأة:

-كيف حالك مع حماك؟

ظهر السرور في صوت إنجريد وقالت:

-بخير، معذرة فقد كان يجب أن أخبرك من ذي قبل، فالأمور بيننا تسير على ما يرام؛ لقد تركني وشأني منذ شهرين ولم يعد يبحث عني.

-ماذا جدّ في الأمر؟

-لا أدري، فهو لم يخبرني بشيء، كانت آخر مرة عند عودتنا من مدينة «فيلا» وقد كنا في حفل زفاف ولم يتمكن زوجي من الحضور كما أن حماقي شعرت بقليل من التعب أي أننا كنا بمفردنا، فجأة دخل طريقًا فرعيًا وسار فيه بضعة كيلومترات ثم توقف وسط الأشجار، وأنزلني

من السيارة وجردني من ملابسي وطرحني أرضاً ثم عاشرني بعنفه المعتاد، في اليوم التالي لذلك سافرت مع زوجي إلى باليرمو، وعندما عدت بعد أسبوع كان حمايا كأنه قد شاخ وأصبح مرتجفاً منذ ذلك الحين وهو يتحاشاني، لذلك يمكنني الآن أن أتواجد معه وجهاً لوجه في ممر المنزل دون الخوف من أن يدفعني باتجاه الحائط وأن يضع يداً على صدري والأخرى على عضوي التناسلي.

-هذا الحال أفضل، أليس كذلك؟

القصة التي روتها إنجريد لتوها كان مونتالبانو يعرفها أفضل منها؛ فقد علم مونتالبانو بما بين إنجريد وحماها منذ أن قابلها لأول مرة وذات ليلة بينما كانت إنجريد تسهب في الحديث أجهشت فجأة ببكاء شديد فلم تعد تتحمل الموقف مع والد زوجها فهي كامرأة شريفة جداً شعرت أنها ملوثة ومبتأسة بسبب زنا المحارم الذي أرغمت عليه، وكانت تفكر في هجر زوجها وأن تسافر عائدةً إلى السويد وستجد طريقة لكسب العيش فقد كانت ميكانيكية ماهرة. وقتها قرر مونتالبانو مساعدتها وإنقاذها من هذا المأزق، حيث دعى مونتالبانو في اليوم التالي إلى الغذاء أناً فيراً مفتشة الشرطة التي تحبه ومقتنعة أن إنجريد عشيقته.

استهل حديثه وهو يتصنع دور ممثل تراجيدي قدير وقال:

-أنا محبط.

فقالت له أنا وهي تمسك بإحدى يديه بين يديها:

-يا إلهي! ماذا حدث؟!

-ما حدث أن إنجريد تخونني.

ثم نكس رأسه على صدره وبالكاد حبس دموعه. كتمت أنا تعبير فرحة المنتصر؛ فقد ثبتت صحة وجهة نظرها، في حين أن كان المأمور يخفي وجهه بين كفيه مما جعل الفتاة تشعر بالارتباك أمام مظاهر

الإحباط تلك، ثم قالت:

-أتدري، أنا لم أرد أبدًا أخبارك كي لا أوْلك، لكنني أجريت بعض التحقيقات عن إنجريد، ثبت لي أنك لست الرجل الوحيد في حياتها.

فقال المأمور ومازالت يديه فوق وجهه:

-لكنني كنت أعرف ذلك.

-وماذا بعد إذًا؟!

-هذه المرة مختلفة؛ إنها ليست نزوة كسابقاتها التي يمكن أن أغفرها إنها تتبادل الحب معه!

-أيها المسيح! وهل هي من أخبرتك بذلك؟

-كلا، لقد فهمت ذلك بنفسي، بينما هي تنفي، تنفي كل شيء وأنا الآن في حاجة إلى دليل قاطع أقذف به في وجهها، أفهميني؟

عرضت أنا عليه أن تقدم له ذلك الدليل الدامغ، وقد نجحت في التقاط صور لمشهد الاغتصاب الريفي في الغابة الصغيرة وقامت بتكبيرها عند صديقة لها تثق فيها تعمل في المعمل الجنائي، وسلمتهم للمأمور.

كان حما إنجريد مديرًا لمستشفى «مونتلوزا» بالإضافة إلى أنه رجل سياسي من المقام الأول. قام مونتالبانو بإرسال الدليل الأول الدامغ إليه في كل من المقر الإقليمي للحزب وإلى المستشفى والمنزل، كتب فقط على ظهر كل صورة من الثلاث صور: «أنت في قبضتنا»

بالتأكيد أرعبته تلك الطلقات المتتابة أشد الرعب ففي لحظة رأى أن وظيفته وعائلته في خطر، وتحسبًا لأي ظروف أخرى فقد كان مع المأمور قرابة العشرين صورة أخرى ولم يخبر إنجريد بالأمر، فيمكنها أن تصدع رأسه بأحاديث مطولة لأن خصوصياتها كسويدية

قد انتُهكت.

كان مونتالبانو يقود السيارة بسرعة وكان سعيدًا؛ فما تحت يديه
من أدوات استخدمها قد أصابت الهدف المنشود:

-خذ أنت السيارة إلى الداخل.

قال مونتالبانو ذلك وهو ينزل من السيارة ويبدأ في استعراض
بوابة جراج الشرطة؛ عندما دخلت السيارة أضيئت الأضواء ونزلت
البوابة مرة أخرى، ثم سألت إنجريد:

-ما المطلوب مني؟

-هل ترين حطام تلك السيارة ماركة «السينكوشنتو»؟ أريد أن
أعرف هل المكابح قد قُطعت أم لا.

-لا، لن أستطيع أن أعرف ذلك.

-حاولي.

-الوداع يا قميصي!

-مهلاً، توقف في لقد أحضرت شيئًا..

أخرج مونتالبانو من المقعد الخلفي لسيارته كيسًا بلاستيكيًا، أخرج
منه قميصًا وبنطالًا جينز خاص به.

-فلترتدي تلك الملابس.

بينما كانت إنجريد تغير ملابسها ذهب هو للبحث عن مصباح
محمول من المستخدم في الورشة ووجده على المنضدة الكبيرة فوضع
مقبس الكهرباء وأخذته إنجريد دون أن تقول شيئًا وأخذت أيضًا

مفتاحًا إنجليزيًا ومفك، ودلفت تحت شاصية السيارة «الشينكوشنتو» المعوج. قضت فقط ما يقرب من عشر دقائق وخرجت من تحت السيارة متسخة بالتراب وزيوت التشحيم.

-لقد حالفني الحظ، فسلك المكابح قد تم قطعه جزئيًا، أنا متأكد من ذلك.

-ماذا تقصدين بـ«جزئيًا»؟

-أقصد أنه لم يقطع بالكامل فقد تركوا قدرًا ما يكفي لجعله لا يصطدم فورًا، لكن بالطبع مع أول كبسة قوية على المكابح قُطع السلك.

-هل أنت واثقة من أنه لم يُقطع من تلقاء نفسه؟ فالسيارة قديمة.

-القطع واضح جدًا فلا يوجد في السلك أي تشزيم أو على الأقل يوجد في جزء صغير منه.

-الآن إصغِ إليّ جيدًا، الرجل الذي كان يقود السيارة سافر من «فيجاتا» إلى «مونتلوزا» وتوقف قليلًا في «مونتلوزا» ثم عاد أدراجه إلى «فيجاتا»، ووقع الحادث عند المنحدر الوعر الموجود في مدخل البلدة، طريق كاتينا المنحدر فقد اصطدم بشاحنة واقفه هناك، مفهوم؟

-أجل، مفهوم.

-حسنًا، سأسألك أنا: في رأيك هل قاموا بهذا الفعلة المحكمة في «فيجاتا» أم في «مونتلوزا»؟

فأجابت إنجريد:

-في «مونتلوزا»؛ فلو أنهم فعلوا فعلتهم هذه في «فيجاتا» لوقع الحادث بالتأكيد قبل ذلك بكثير. أتريد معرفة شيء آخر؟

-لا، أشكرك.

لم تقم إنجريد بتغيير ملابسها ولا الاستحمام ولا حتى غسلت يديها،
وقالت:

- سأفعل هذا في منزلك.

- نزلت إنجريد، عند موقف سيارات المقهى وأخذت سيارتها وتبعت
سيارة المأمور، لم يكن الليل قد انتصف بعد، وكانت ليلة دافئة.

- أتريدين الاستحمام؟

- لا، أفضل الاستحمام في البحر، ربما أغتسل فيما بعد.

خلعت الملابس المتسخة الخاصة بمونتالبانو وارتدت المايو. كان
على المأمور في تلك الإثناء أن يجاهد نفسه في هذا الوقت كي لا
يخرج عن الدور الصعب للمستشار الروحي.

- هيا اخلع ملابسك أنت أيضاً.

- لا، يروقني أن أجلس وأشاهدك من الشرفة، كان القمر يصدر
ضوءاً شديداً، فجلس مونتالبانو على مقعد الاسترخاء للاستمتاع
بمنظر إنجريد التي وصلت للشاطئ، وفي داخل المياه الباردة بدأت
رقصتها بقفزات وهي ممددة الذراعين وكان يراها وهي تغوص وتابع
لبعض الوقت رأسها التي بدت كنقطة سوداء وفجأة غلبه النعاس.

استيقظ مع أول ضوء للصباح وقام عندما شعر بقليل من البرد،
أعد القهوة بنفسه وشرب منها ثلاثة فناجين متتابعة. قبل أن تغادر
إنجريد المنزل قامت بتنظيفة ولم يكن هناك أي أثر لوجودها. بالفعل
إنجريد تساوي وزنها ذهباً؛ فقد فعلت ما طلبه منها ولم تسأله عن
أي تفسير، فبكل تأكيد من حيث صفة الفضول لم تكن إنجريد أنثى،
لكنها ليست أنثى من هذه الناحية فقط.

عندما شعر بشهية بسيطة للطعام فتح الثلاجة ولم تكن أكلة

الباذنجان على طريقة مدينة بارما لا زالت موجودة والتي لم يكن قد أكلها في منتصف النهار فقد كانت إنجريد قد أكلتها، الآن عليه أن يرضى بقطعة خبز وقطعة جبن؛ فتسوية أمره بهذا الشكل أفضل من لا شيء. قام بالاستحمام وارتدى ملابسه التي أقرضها لإنجريد وكانت لا زالت تنبعث منها رائحة خفيفة لها.

كعادة المأمور وصل لمقر الشرطة متأخرًا عشر دقائق، كان رجاله مستعدون بسيارة تابعة للشرطة وأخرى ماركه جب والتي كانت شركة فينتي قد أعارتهم إياها محملة بمجارييف وفؤوس ومعاول وحفارات، وبدوا كأنهم عمال ذاهبين لكسب قوت يومهم بالعمل في الأرض.

جبل كراستو^{٢٢} والذي لم يحلم يومًا بأن يكون جبلًا بل كان هضبة قاحلة يقع في غرب «فيجاتا» ويبعد عن البحر بأقل من خمسمائة متر، تم اختراقه بعناية من خلال نفق وهو الآن مغلق بقضبان خشبية، هذا النفق يبدو وأنه جزء مكمل لطريق يبدأ من العدم وينتهي إلى العدم يصلح جدًا لتشكيل خطوط مستقيمة طبيعية وتسمى بالفعل خطوط التماس. تقول الأسطورة أن بطن ذلك الجبل خروفاً أو حملاً صغيراً من الذهب لم يعثر عليه عمال الحفر وعثر عليه من من طرحوا مشروع الحفر للمناقصة.

من الناحية المطلة على البحر كان يجاور الجبل مرتفع كحصن صخري يسمى الحمل لم تصل إليه الماكينات الحفارة والشاحنات ولا زالت تلك المنطقة تحتفظ بطبيعتها البرية، توجهت السيارتان صوب جبل الحمل تحديداً بعد أن اجتازا طرق وعرة كي لا يلفتوا الانتباه، كان من الصعب جدًا متابعة السير دون وجود مدق أو طريق لكن المأمور أراد أن تصل السيارات حتى المرتفع الصخري ثم أمر الجميع بالنزول، كان الهواء منعشًا وطقس الصباح صافيًا.

سأله فاتسيو:

22- تعني الخروف المخصي.

-ماذا علينا أن نفعل؟

-انظروا إلى جبل الحمل بتمعن، فلتسيروا حوله وابحثوا، في مكان ما لا بد وأن يكون هناك مدخل لكهف، لقد أخفوا المدخل ونكّروه بحجارة أو بأغصان الأشجار، انتبهوا يجب عليكم اكتشافه وأؤكد لكم أنه موجود.

ثم انتشر الجميع، وبعد مرور ساعتين وقد أصابهم الإحباط تجمعوا بالقرب من السيارات، كانت الشمس حارة وهم يقطرون عرقًا، قام فاتسيو الحصيف بإحضار معه «ثُرمس» قهوة وآخر للشاي.

قال مونتالبانو:

-سنحاول المحاولة، لكن لا تقتصروا على التفتيش في الصخور بل فتشوا في الأرض أيضًا؛ فمن الممكن أن يكون فيها شيئًا غير ظاهر أيضًا واستأنفوا البحث، وبعد حوالي نصف الساعة سمع مونتالبانو من بعيد صوت جالوتسو:

-أيها المأمور، أيها المأمور! تعال إلى هنا!

ذهب المأمور إلى ذلك الشرطي والذي قد تم تعيينه للبحث في جانب المرتفع الصخري القريب من طريق مدينة «فيلا» الزراعي..

-انظر!

لقد حاولوا طمس الآثار لكن في منطقة معينة اتضحت الآثار التي خلفتها شاحنة ضخمة على الأرض.

قال جالوتسو وهو يشير إلى الصخور:

-لقد ذهبوا من تلك الناحية..

وبينما يقول هذه الكلمة توقف وفمه مفتوح.. قال مونتالبانو:

-يا إلهي!

كيف لهم ألاّ يكتشفوا هذا؟! لقد كان هناك صخرة موضوعة في مكان غريب، من خلفها عصيّ مسننة من نباتات جافة، بينما جالوتسو ينادي على زملائه ركض المأمور نحو الصخرة أمسك بشتلة من نبات «الارباسبادا» وانتزعها وكاد يسقط على ظهره ولم تكن الشتلة لها جذور، لقد غرست هنا مع حزم من نبات «الساجينا» لإخفاء الكهف.



الفصل التاسع

كانت الصخرة عبارة عن لوح حجري على شكل يشبه المستطيل وتبدو أنها ملتحمة مع ما حولها من صخور ومسندة إلى ما يشبه الدرج الكبير من الصخر أيضاً، قدّر مونتالبانو حجمها بمجرد النظر بحوالي ارتفاع مترين في عرض متر ونصف المتر، ولم يتمكن من مجرد التفكير في أن يزحزحها بيده، مع هذا لابد وأن يكون ثمة طريقة لذلك. كان بالصخرة ثقب في منتصف الجانب الأيمن يبعد عن طرفها بحوالي عشرة سنتيمترات ويبدو أنه ثقب طبيعي جداً، فكّر المأمور: «إذا كانت هذه الصخرة باباً خشبياً في الحقيقة، لكان هذا الثقب في الارتفاع المناسب لوضع المقبض به.»

أخرج المأمور من جيب سترته قلم حبر جاف وأدخله في الثقب فدخل القلم بالكامل، لكن عندما أعاد مونتالبانو القلم إلى جيبه

شعر بأن القلم قد لوث يده فنظر إليه وشمه وقال لفاتسيو والذي كان الوحيد إلى جواره:

-إن هذه المادة شحم.

فيما جلس باقي الشرطيون في الظل، ووجد جاللو شتلة من نبات «الاشيتوسيل»^{٢٣} فقدمها لزملائه:

-تذوقوا ساقها، إنها مدهشة وتروي الظمأ.

فكر مونتالبانو في أن ليس أمامهم سوى حلًا واحدًا، وقال:

-هل معنا سلك صلب؟

-بالطبع، سلك السيارة الجيب.

-حسنًا، قربه من هنا قدر المستطاع.

بينما كان فاتسيو يبتعد، بعد أن اقتنع المأمور أنه قد وجد الوسيلة لتحريك اللوح الصخري نظر إلى الطبيعة من حوله بنظرة مختلفة، حيث أن هذا هو المكان الصحيح الذي كشف عنه طانو اليوناني وهو في النزع الأخير، ذلك المكان الذي يجب الانتشار فيه في أكثر من موضع كي يتم وضعه تحت الحراسة، بدت المنطقة مهجورة ومنعزلة مما لا يسمح لأحد بتخيل أن خلف هذا الجبل على بعد مئات الأمتار يمر الطريق السريع بكل زحام مروره، على مقربة منهم وفوق مرتفع أرضي من الصخور المتوهجة كان يوجد منزل صغير على شكل مكعب مكون من غرفة واحدة، استخدم مونتالبانو النظارة المعظمة: الباب من الخشب ومغلق ويبدو أنه سليم، بجوار الباب وعلى ارتفاع طول رجل توجد نافذة بدون مصراعين مؤمنة بقضيبين من الحديد على شكل صليب، بدا أن المنزل مهجور، لكنه كان المكان الوحيد الظاهر في المنطقة، أما باقي المنازل فقد كانت بعيدة جدًا. ولكي يقطع

23- نبات عشبي يزرع كسور للحدائق

الشك باليقين نادى جالوتسو:

-اذهب وألق نظرة على هذا المنزل، افتح الباب بأي طريقة لكن لا تكسره، انتبه فقد تجد هناك متاع، انظر إذا كان هناك ما يدل على وجود حياة بالمنزل منذ وقت قريب، وما إذا كان أحدهم سكن فيه مؤخرًا، ولكن اترك كل شيء كما هو وكأنك لم تطأ البيت قط.

في تلك الأثناء وصلت السيارة الجيب إلى ما يقرب من مستوى قاعدة المرتفع الصخري، أخذ المأمور طرف السلك الصلب وأولجه بسهولة في الثقب وراح يدفعه إلى الداخل، لم يبذل جهد كبير فقد دلف السلك إلى داخل الكتلة الصخرية كأنه يسلك طريقًا مغطى جيدًا بالشحم دون أن يعوقه شيء. وبعد قليل ظهر طرف السلك الصلب من خلف اللوح الصخري ك رأس شعبان صغير، فقال مونتاالبانو لفاتسيو:

-خذ هذا الطرف واربطه في السيارة الجيب وأدر المحرك واسحب السلك لكن رويدًا رويدًا.

بدأت السيارة تتحرك ببطء وتحرك الصخرة معها، بدأت تنفصل عن الجدار من الجانب الأيمن وكأنها تدور حول مفصلات غير مرئية.

همس جيرمانا مندهشًا: «افتح يا سمسم، اقفل يا سمسم»

متذكرًا الجملة السحرية في لعبة أطفال تقال لفتح كل الأبواب بفعل السحر.

...

-أؤكد لك سيدي رئيس المباحث أن ذاك اللوح الصخري قد تم استخدامه كباب بواسطة أسطى في الصنعة، وأن المفصلات الحديدية غير مرئية بالمرءة من الخارج، كما كان إغلاق ذلك الباب مرة أخرى أسهل من فتحه، دخلنا بالكشافات الكهربائية وكان الكهف من الداخل مُعدّ بعناية وذكاء شديدين: الأرضية مغطاة بحوالي عشرة

عروق خشبية مثبتة واحدة بالأخرى وموضوعة على الأرض مباشرةً،
فسأل رئيس المباحث:

-وماذا تكون تلك العروق الخشبية؟

-لا يحضرني مسمهاها بالإيطالية، فلنقل أنها ألواح خشبية ذات سُمْك كبير، وكانت الأرضية بهذا الشكل لحماية حاويات الأسلحة من البقاء طويلاً ملامسة مباشرة لרטوبة الأرض، وكانت الجدران مغطاة بألواح خشبية أقل سمكًا. جملة القول: إن الكهف من الداخل عبارة عن صندوق كبير من الخشب بدون غطاء. وقد ظل رجالنا يعملون به لفترة طويلة.

-أوجدتم الأسلحة؟

- بالفعل إنها ترسانة أسلحة بمعنى الكلمة: حوالي ثلاثون قطعة سلاح ما بين مدافع رشاشة كبيرة وأخرى خفيفة، وحوالي مائة طبنجة ومسدس واثنين قاذف RBJ وما يقارب الألف طلقة نارية وصناديق من المتفجرات من جميع الأنواع بداية من مادة "التريتول" المتفجرة إلى القنابل اليدوية وكذلك كمية من الزني العسكري للجيش والشرطة، وقمصان واقية من الرصاص وأشياء أخرى متنوعة ووضع كل شيء في نظام تام وملفوف في ورق سلوفان.

-لقد وجهنا لهم ضربة موجعة، صحيح؟

-بالطبع، لقد انتقم طانو لنفسه شر انتقام، فكل هذا كان كثيرًا على أن يفعل خائن أو حتى تائب، أود أن أخبرك بأنني لم أصادر الأسلحة، لقد تركتها في الكهف وعينت عليها نوبتين حراسة في اليوم من رجالي وسيقيمون في منزل صغير غير مأهول يبعد بحوالي مائة متر عن مخزن السلاح هذا.

-أنتوقع أن يأتي أحد ليأخذ شيئًا من السلاح؟

-أرجو ذلك.

-حسنًا، وأنا أوافقك فلننتظر أسبوعًا ونضع كل شيء تحت السيطرة
وإذا لم يحدث شيئًا فلنصادر الأسلحة، آه اسمع يا موتالبانو، أتتذكر
دعوتي لك على العشاء بعد غدًا؟

-كما تريد، أتريدني أن أنساها؟

-آسف لابد أن نؤجلها فزوجتي مصابة بالأنفلونزا.

لم يكن هناك حاجة للانتظار لأسبوع، بعد ثالث يوم من اكتشاف
الأسلحة وبعد انتهاء نوبة حراسة كاتاريلا التي تدوم من منتصف
الليل إلى منتصف النهار، كان غير قادرًا على مقاومة النعاس، فتقدم
بتقرير للمأمور فهكذا أمرهم أن يفعلوا بمجرد انتهاء نوبة حراستهم.

-هل من جديد؟

-لا أيها القائد، كل شيء هادئ ومستتب.

-عظيم.. بل ليس عظيمًا، هذا سيئ، اذهب أنت للنوم.

-آه بالمناسبة، خطر ببالي الآن شيئًا قد حدث لكنه شيء تافه، سأخبرك
به بدافع من الوسواس أكثر منه بدافع من الواجب.

-ما هذا الشيء التافه؟

-لقد مر سائح بالمكان.

-اشرح لي أكثر يا كاتاريه.

-كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة التاسعة ظهرًا ..

-إذا كانت الساعة التاسعة، فلا بد وأنها صباحًا يا كاتاريه!

-كما ترى سيادتك، وقتها تحديدًا سُمع صوت دراجة بخارية قوية،
فالتقطت النظارة المعظمة التي كنت أعلقها على رقبتى، قاتضت

لي الصورة، وتأكدت من شكله فقد كانت الدراجة حمراء.

-لا يهم اللون، ماذا بعد؟

-نزل من على الدراجة سائح.

-ولماذا ظننت أنه سائح؟

-لأنه كانت بحوزته كاميرا فوتوغرافية كان يعلقها على رقبته، لقد كانت كبيرة فعلاً، أكبر من المدفع.

-ربما كانت تلك هي عدسة التصوير البعيد.

-أجل هو ذاك يا سيدي، ثم راح يلتقط الصور.

-ماذا كان يصور؟

-كل شيء يا قائدي، يصور منظر الطبيعة، جبل الحمل والمكان الذي كنت أقف بداخله.

-هل اقترب من كهف الحمل؟

-أبداً يا سيدي، عندما همّ بأخذ الدراجة البخارية مغادراً المكان ودعني ملوحاً بيديه.

-وهل رآك؟

-لا، لقد ظللت طوال الوقت بالداخل، لكن كما قلت لسيادتك عندما أدار محرك الدراجة لوح بيده باتجاه المنزل.

...

-رئيس المباحث يتحدث؟ ثمة أخبار جديدة غير سارة، أظن أنهم بطريقة ما- علموا باكتشافنا وأرسلوا فرداً للاستطلاع ليؤكد لهم.

-وأنت كيف عرفت ذلك؟

-صباح اليوم رأى الشرطي الذي كان في نوبة الحراسة رأى رجلًا جاء بدراجة بخارية وراح يصور المنطقة بعدسة تقريب قوية، وبالطبع وضع شيئًا ما عند الصخرة التي تخفي المدخل؛ على حد علمي هو غصن صغير وضع بشكل معين أو حجر صغير موضوع على بعد محدد مما جعل من المستحيل أن نعيد كل شيء لسابق عهده.

-معذرة، هل أعطيت تعليمات خاصة لشرطي الحراسة؟

-بالطبع كان على الشرطي طبقًا للأوامر أن يوقف سائق الدراجة البخارية وأن يتحقق من هويته وأن يصادر الكاميرا وأن يصحب سائق الدراجة نفسه إلى المكتب..

-ولماذا لم يفعل ذلك؟

-لسبب بسيط جدًّا، هو أن الشرطي الذي كان في الحراسة هو كاتاريل، الذي يعرفه كل منّا جيدًا.

-فهمت.

هكذا علق باقتناع رئيس المباحث.

-والآن ماذا سنفعل؟

-تقوم صباح غدًا بمصادرة الأسلحة فورًا؛ فقد جاءت أوامر من باليرمو بأن أولي هذا الأمر أهمية قصوى.

شعر مونتالبانو بأن إبطيه ابتلت بالعرق، وقال:

-أهو مؤتمر صحفي آخر؟

-أخشى أن يكون كذلك، آسف.

حينما حان وقت الذهاب إلى كهف الحمل بسيارتين وشاحنة صغيرة، لاحظ مونتالبانو أن جالوتسو ينظر إليه نظرات مستعطفة كالكلب المضروب، فانفرد به مونتالبانو وقال له:

-ما بك؟

-أتأذن بإبلاغ قريبي الصحفي بالأمر؟

فأجابه مونتالبانو بسرعة:

-لا

ثم عاود التفكير في الحال وواتته فكرة هنا نفسه عليها..

-اسمع، فقط كي أسدي إليك معروفاً شخصياً، اتصل به وأحضره.

كانت الفكرة التي خطرت له هي أنه إذا حضر قريب جالوتسو إلى الموقع وقام بعمل دعاية إعلامية واسعة للاكتشاف ربما لن تكون هناك حاجة لعقد مؤتمر صحفي.

لم يطلق مونتالبانو العنان فقط لقريب جالوتسو ولمذيع قناة «تيلي فيجاتا» لكنه ساعدهم أيضاً على القيام بسبق صحفي بقيامه المفاجئ بدور المخرج؛ فأحضر قاذف RBJ أمسكه فاتسيو ووضعه في وضع التصويب، كما أضاء الكهف بالكامل لأنه سيتم تصوير أو تسجيل كل حاوية وكل ورقة.

بعد ساعتين من العمل الشاق تم إخلاء الكهف، قام الصحفي والمذيع بمغادرة المكان مسرعين إلى «مونتلوزا» لتقديم التقرير، اتصل مونتالبانو هاتفياً برئيس المباحث:

-لقد تمت المهمة.

-عظيم، أرسلوا المضبوطات إلى هنا، أجل إلى «مونتلوزا». آه،

اسمع فلتترك فرد حراسة وبعد قليل سيصل إليكم ياكوماتسي مع فريق المعمل الجنائي، أهنئكم.

دبر ياكوماتسي أمر القضاء نهائيًا على فكرة عقد المؤتمر الصحفي، كان ذلك بالتأكيد بمحض الصدفة؛ لأنه يتلذذ بالمؤتمرات واللقاءات الصحفية، هو رئيس المعمل الجنائي فقبل أن ينتقل إلى الكهف لمعاينة المضبوطات، هرع إلى إبلاغ ما يقرب من عشرين صحفيًا سواء من الصحف أو من القنوات الفضائية.

إذا ظهر التقرير الصحفي الذي أعده قريب جالوتسو في نشرات الأخبار المحلية، فإن ما ستحدثه التقارير الخاصة بياكوماتسو من لغط وصخب سيكون له صدى في جميع أنحاء إيطاليا، وكما كان يتوقع مونتالبانو فقد قرر رئيس المباحث عدم عقد مؤتمر صحفي بما أن الجميع أصبح يعرف كل شيء، واكتفى فقط ببيان رسمي مُفصل.

ارتدى مونتالبانو بنطاله القصير الداخلي وأخذ زجاجة بيرة كبيرة وجلس في منزله يستمتع بمشاهدة التلفاز الذي ظهر فيه وجه ياكوماتسو في الصف الأول كالعادة وهو يشرح كيف قام رجاله بفك التبنطين الخشبي التي بداخل الكهف قطعة قطعة بحثًا عن أصغر دليل كأثر بصمات الأصابع أو أثر قدم، عندما بات الكهف خاويًا وعاد إلى هيأته الأصلية، قام مصور قناة «ريتي ليبرا» بتصوير مشهد بانورامي بطيء وطويل للكهف من الداخل، وتحديدًا أثناء عرض ذلك المشهد البانورامي شاهد المأمور شيئًا لم يظهر له من قبل؛ شيئًا ترك في نفسه أثر ما، لكنه يستحق أن يتأكد منه فاتصل بقناة «ريتي ليبرا» وسأل عن نيكولو زيتو صديقه الصحفي الشيوعي.

-لا توجد مشكلة سأعيد عرضه عليك.

-لكن أنا ليس معي هذا الجهاز، ذاك الموجود عندهم، أي اسم لعين يسمونه؟..

-حسنًا هنا فلتحضر لمشاهدته.

-أيناسبك صباح غدًا في حوالي الحادية عشرة؟

-حسنًا، أنا لن أكون موجود، لكن سأخبرهم بمجيئك.

في تمام التاسعة من صباح اليوم التالي ذهب مونتالبانو إلى «مونتولزا» حيث مقر الحزب الذي ناضل فيه المحارب ميزوراكا، أشارت اللافتة المتاخمة للبوابة إلى الصعود إلى الطابق الخامس للوصول لمقر الحزب، تلك اللافتة الخائنة لم تشر إلى أن السبيل الوحيد إلى الصعود هو السير على الأقدام حيث أن العمارة لم يكن بها مصعد، بعد أن اجتاز حوالي عشرة مستراحات على السلم وهو يلهث نوعًا ما، طرق مونتالبانو الباب مرتين لكنه لازال مغلقًا لفترة؛ فنزل الدرج مرة أخرى وخرج من البوابة. كان بجوار العمارة مباشرة متجر لبيع الخضر والفاكهة به رجل مسن يبيع لزبون، انتظر المأمور حتى أصبح البائع بمفرده:

-أتعرف المحارب ميزوراكا؟

-وما يهمك أنت أن تعرف من أعرفهم ومن لا أعرفهم؟ أفهمني.

-بل يهمني، فأنا من الشرطة.

-حسنًا، وأنا لينين.

-أتمزح؟

-لا على الإطلاق، بالفعل أنا اسمي لينين إنه الاسم الذي سماني به والدي والذي أفتخر به أيضًا، هل تنتمي أنت أيضًا إلى فئة مرتادي العمارة المجاورة؟

-لا، على كل حال أنا هنا فقط في مهمة، أكرر هل تعرف المحارب ميزوراكا؟

-بالطبع أعرفه فقد قضى حياته في الدخول والخروج من تلك

البوابة وفي إزعاجي بسيارته «الشينكوشنتو» المتهالكة.

-أي نوع من الإزعاج كانت تسببه لك السيارة؟

-أي إزعاج؟! لقد كان يتركها دوماً أمام متجري وقد فعل ذلك أيضاً في نفس اليوم الذي تحطمت فيه سيارته بالاصطدام بالشاحنة.

-هل أوقفها هنا تحديداً؟

-وهل أنا أتحدث التركية؟! أجل هنا تحديداً، وقد رجوته أن ينقلها من هنا لكنه راح يسهب في الحديث ويصيح، ثم قال أنه ليس لديه وقت ليضيعه معي، عندئذٍ استشطت غضباً ورددت عليه بشكل بذئ، جملة القول كي لا أطيل عليك، أننا خلال لحظات اشتبكنا ولحسن الحظ مرّ شاب قال للمرحوم المحارب ميزوراكا أنه هو من سيقوم بركن السيارة وأخذ المفاتيح منه.

-أتعلم أين أوقفها؟

-لا يا سيدي.

-أتستطيع التعرف على هذا الشاب؟ هل رأيته مرة أخرى بعد ذلك؟

-من حين لآخر أراه يدخل البوابة المجاورة لي، لا بد وأنه تبع تلك العصاة الجميلة.

-أمين السياسات يدعى بيراغين، أليس كذلك؟

-أظن ذلك، إنه يعمل في معهد المساكن الشعبية وهو في أحد نواحي مدينة البندقية، الآن هو في مكتبه؛ فهم يبدأون العمل هناك في حوالي السادسة بعد العصر فالوقت الآن مبكر جداً.

...

-سيد بيراغين، أنا المأمور مونتابانو، مأمور «فيجاتا»، آسف لإزعاجك في مكتبك.

-لا عليك تفضل بالحديث.

-أنا بحاجة إلى مساعدة ذاكرتك، هل لك أن تخبرني ما هي طبيعة آخر اجتماع شارك فيه الفقيه المحارب ميزوراك؟

-لم أفهم السؤال.

-معذرة، لا تتعصب إنه مجرد تحقيق روتيني لاستيضاح ملابس موات المحارب.

-ولماذا؟ أهنأك شيء غامض؟

السيد فردينانو بيراغين مزعج حقاً.

-صدقني إن كل شيء واضح.

-وماذا إذا؟

-أنا أريد أن أغلق ملف القضية، أتفهمني؟ لا يمكنني أن أترك مستنداً واحداً معلقاً.

عند سماعه كلمتي «مستند» و«ملف القضية»، تغير فجأة سلوك بيراغين الموظف في معهد المساكن الشعبية.

-بالطبع إنها أمور أعينها جيداً، لقد كان الاجتماع مجرد اجتماع لمجلس الإدارة والذي لم تكن للمحارب ميزوراك أي صفة للاشتراك فيه لكننا مع ذلك اخترقنا القواعد.

-كان إذاً اجتماعاً مصغراً؟

-لقد كنا عشرة أشخاص.

-هل ذهب أحد للبحث عن المحارب؟

-لا أحد، لقد أغلقنا الباب بالمفتاح، أنا أتذكر ذلك، لكنهم اتصلوا به هاتفياً.

-معذرةً، بالطبع لا تعلم حضرتك مضمون المكالمة؟

-لست فقط أعرف المضمون، بل أعرف أيضاً السيناريو والحوار والموسيقى التصويرية.

وراح يضحك.. كم هو ظريف فرديناندو بيراغين.

-أنت تعلم طريقة كلام المحارب، كان يتكلم كأن الآخرين جميعهم صُم؛ لذا كان من الصعب ألا أسمعُه عندما يتحدث، تخيل أنه ذات مرة..

-معذرة سيدي، ليس لدي متسع من الوقت، هل فهمت الـ.

توقف وتحاشى النطق بكلمة «مضمون» كي لا يقع في الاستطراف المزعج للسيد بيراغين، ثم أكمل:

-.. فحوى المكالمة؟

-بالطبع، إن الشخص الذي قد أسدى معروفًا للمحارب بأن قام بركن سيارته قام المحارب -كنوع من شكر المعروف- بتوبيخه لأنه قد أوقف السيارة بعيداً جداً.

-هل استطعت حضرتك أن تحدد هوية المتصل؟

-لا ولماذا؟

-لأنه هكذا..

قالها مونتالبانو، ثم استأنف، إذًا بعد أن قام الشاب بإسداء الخدمة الإنسانية بإيقاف السيارة داخل جراج خاص بأحد شركائه جاءته رغبة في أن يصطحب المحارب في نزهة قصيرة.

شرح مونتالبانو لموظفة قناة «ريتي ليبرا» اللطيفة كيف أنه يقف مكتوف الأيدي أمام أي شيء تكنولوجي، صحيح أنه يمكنه تشغيل التلفاز وأن يبحث عن البرامج وأن يطفئ الجهاز، أما أي شيء آخر فلا يعرف عنه شيئًا. بهدوء ولطف قامت الفتاة بوضع شريط الفيديو وأعدت تشغيل الفيلم وراحت توقف الصورة في كل مرة كان مونتالبانو يطلب منها ذلك، وعندما خرج من القناة كان مقتنعًا بأنه قد شاهد ما يهمه بالضبط لكن ما يهمه فيما يبدو أنه ليس ذو أهمية كبيرة.



الفصل العاشر

وقف مونتالبانو أمام مطعم سان كالوجيرو متحيراً؛ بالطبع قد حان وقت تناول الطعام كما أنه يشعر برغبة في الأكل، لكن من ناحية أخرى، عليه أن يتحقق مما لمحه أثناء مشاهدة الفيلم وكان هذا ما يدفعه إلى متابعة السير إلى جبل الحمل، لكن رائحة سمك «التريليا» المقلبي المنبعثة من المطعم قد فازت بالصراع. أكل صنفاً خاصاً من المشهيات من فواكه البحر ثم أخذ سمكتين من سمك «الاسبيجولا» بدتا طازجتين كأنهما تسبحان في المياه:

-أتأكل سيادتك دون شهية للطعام؟

-هذا صحيح؛ فلدي ما يشغل تفكيري.

فقال له كالوجيرو بشكل مؤثر وهو يبتعد عنه:

-عليك بتناسي الهموم أمام ما أنعم الله به على سيادتك من أسماك
«الاسبيجولا» هذه.

مر على المكتب كي يرى ما إذا كان هناك مستجدات فأخبره
جيرمانا:

-لقد اتصل السيد ياكوماتسي أكثر من مرة.

-إذا عاود الاتصال أخبره بأنني سأتصل به لاحقًا، هل لدينا كشاف
قوي؟

عندما وصل على مقربه من جبل الحمل قادمًا من الطريق السريع
ترك السيارة وقرر مواصلة الطريق سيرًا على الأقدام. كان طقس ذاك
اليوم صحوًا وهبت حين ذاك نسمة ريح خفيفة لطفت الجو ورفعت
الروح المعنوية لمونتالبانو.

كان هناك آثار سيارة أناس غرباء مروا حول الجبل، كما أن
الصخرة المستخدمة كباب للكهف تم نقلها بضعة أمتار فقد كان
مدخل الكهف مكشوفًا. تحديدًا عندما كان على وشك الدخول
توقف ودقق السمع؛ فقد كانت تصدر من داخل الكهف همسات
منخفضة، تقاطعها من حين لآخر تأوهات مكتومة، فخاف وحذث
نفسه: «أتريد أن تراهم وهم يعذبون شخصًا ما؟» لم يكن لديه وقت
كي يذهب للسيارة ويأخذ مسدسة فقفز بداخل الكهف وفي نفس
الوقت أشعل الكشاف القوي.

-قفوا مكانكم جميعًا! الشرطة!

توقف الاثنان اللذان كانا بالداخل بل تجمدا، لكن مونتالبانو
تجمد أكثر منهما؛ لقد كانا شابان في ريعان الشباب عاريان يمارسان

الحب: الفتاة أسندت يديها على الحائط وبسطت ذراعيها، فيما التصق الشاب بظهرها، وظهرها في ضوء الكشاف الكهربائي كأنهما تمثالان فانتان. شعر مونتالبانو بأنه يحترق خجلاً وهمس بارتباك وهو ينسحب بعد أن أطفأ الكشاف:

-معذرة لقد أخطأت، أكملًا في هدوء.

خرج الشابان بعد أقل من دقيقة كي يرتديا بنطاليهما الجينز وقميصيهما ولا يرتديان تحته شيئاً، حزن مونتالبانو كثيراً لأنه قاطعهما؛ فهذان الشابان كانا يقومان على طريقتيهما بمباركة الكهف الذي لم يعد مخزن للموت. مر الشاب أمامه ورأسه منكس ويديه في جيبه، أما هي فنظرت إليه لبرهة بابتسامة خفيفة وبعينيها لمحة سعادة. كان المأمور سيكتفي باستطلاع سطحي كي يتأكد من أن ما لاحظته في شريط الفيديو يوازي ما في الواقع: كانت الجدران الجانبية مصقولة ومتماسكة، كان الجزء السفلي من الجدار الذي يقع في آخر الكهف، أي ذلك الجدار المواجه لمدخل الكهف يبدو أنه خشن وبه نتوء وتجاويف، يبدو للوهلة الأولى إنه نحت بشكل سيء، لكن الأمر لم يكن بسبب النحت بل هي حجارة وضعت فوق بعضها البعض، والبعض الآخر وضع إلى جانب بعض، ثم تولى مرور الزمن لحمها ببعضها ووضع الملاط بها وإخفائها بالتزاب الاسود وقطرات الماء ونترات البوتاسيوم حتى تحول الجدار الخشن إلى جدار شبه طبيعي، استمر في التدقيق والاكتشاف سنتيمترًا بسنتيمترًا، وفي نهاية المطاف لم يعد لديه شك في أن بآخر الكهف توجد فتحة مساحتها متر في متر، والتي بالطبع قد أخفيت منذ سنوات بعيدة.

-ياكوماتسي؟ أنا مونتالبانو، أحتاجك بشدة أن..

-هل لك أن تخبرني أين كنت تعبت طوال النهار؟! لقد جئت للبحث عنك.

-حسنًا ها أنا ذا.

-لقد عثرت على علبة كرتون من تلك التي يتم تربيته الدود بها،
أو بالأحرى كعلب الطرود الكبيرة.

-أخبرك سرًا مقابل سر: لقد عثرت على زر أحمر اللون.

-يالك من أبله! لن أكمل حديثي معك!

-هيا يا صغيري، لا تغضب.

-توجد على علبة الكرتون حروف مطبوعة وقد وجدتها تحت
الأرضية الخشبية التي كانت في الكهف، لابد وأنها انسلت من
خلال فجوة بين ألواح الأرضية الخشبية.

-ما تلك الكلمة التي قلتها؟

-الأرضية الخشبية؟

-لا، الكلمة التي قبلها.

-فجوة؟

-إنها هي، أيها المسيح!! يالك من مثقف، ما أروع حديثك! ولم تجد
شيئًا آخر تحت تلك التي تقول عنها؟

-بلى، وجدنا أقفال مصدأة، وزرّ كما قلت بالضبط لكنه أسود
اللون، وبقياء قلم رصاص وقطع ورق، لكن انظر لقد جعلتها
الرطوبة كالطين أما قطعة الكرتون هذه لا زالت في حالة جيدة لأن
من الواضح أنها هنا منذ أيام قلائل.

-أعطاها لي، اسمع هل لديكم جهاز أشعة سونار وشخصًا يستطيع
استخدامه؟

-أجل، لقد استخدمناه في بلدة «ميسيلمزي» منذ أسبوع للبحث عن ثلاثة موتى ووجدناهم فيما بعد.

-أيمكنك أن تأتي به إلى «فيجاتا» في حوالي الساعة الخامسة؟

-هل أنت مجنون؟ الساعة الآن الرابعة والنصف، فلنتقابل خلال ساعتين، سأذهب أنا لإحضار الكرتونة، لكن لماذا تحتاج جهاز السونار؟

-كي أكشف على مؤخرتك الصغيرة.

...

-الناظر بورجو موجود بالخارج، يطلب الدخول ويقول أنه يجب إبلاغك بشيء ولن يستغرق الأمر إلا خمس دقائق.

-دعه يدخل.

تقاعد الناظر بورجو عن العمل منذ قرابة العشر سنوات لكن جميع من بالبلدة لا زالوا ينادونه بالناظر لأنه ظل ناظرًا لمدرسة التعليم التجاري «بفيجاتا» لأكثر من ثلاثين عامًا، وهو على معرفة وطيدة بمونتالبانو، والناظر شخصية ذات ثقافة واسعة وقوية، كما أنه محب بشدة للحياة رغم كبر سنّه، شاركه المأمور قبل ذلك في بعض التنزهات المميزة عند الحاجز الصخري للميناء.

قام مونتالبانو ليقابله:

-لكم سررت لمجيئك، تفضل بالجلوس.

-لقد فكرت في أن أسأل عنك حيث أنني كنت مازًا بالقرب من تلك المنطقة، ولو لم أجدك في المكتب لتصلت بك هاتفياً.

-تفضل بالحديث.

-أود أن أخبرك ببضعة أشياء عن الكهف الذي وجدت فيه السلاح،
ولا أدري ما إذا كانت تلك الأمور مهمة أم لا. لكن..

-أتمزح؟! فلتفضل وتقل لي كل ما تعرفه.

-حسنًا، أود مبدئيًا إخبارك بأنني أتكلم من واقع ما سمعته في القنوات
المحلية وما قرأته في الصحف، وقد تكون حقيقة الأمور خلاف ذلك،
على أية حال لقد قيل أن الصخرة التي تغطي مدخل الكهف جعلها
أفراد المافيا أو من يتاجر بالسلاح بابًا للكهف، لكن هذا غير
صحيح فمن شكل تلك الصخرة لتكون بابًا -إذا صح القول- هو
جد صديق عزيز لي جدًا هو للو ريتزيتانو، أتدري في أي فترة كان
هذا؟

-بالطبع أعرف، لقد كان هذا تقريبًا سنة ١٩٤١ عندما بدأ الزيت
والدقيق والقمح أن يشحوا في السوق بسبب الحرب، في ذلك الوقت
كان كل ما حول جبل كراستو وجبل الحمل من أراضٍ ملك جاكومو
ريتزيتانو. جد للو والذي جمع المال في أمريكا بطرق غير شرعية أو
على الأقل هذا ما يقال في البلدة، جاءت فكرة لجاكومو ريتزيتانو بأن
يغلق الكهف بتلك الصخرة التي على شكل باب، وبداخل الكهف
جميع خيرات الله وجعل منها متجرًا للسوق السوداء بمساعدة ابنه
بيetro والد للو، لقد كانوا أناسًا ذوات ذمم خربه كما كانوا متورطين
في واقعات أخرى لم يذكرها أحدًا على الإطلاق، وفيما يبدو أيضًا
أنهما قد ارتكبا جريمة القتل، لكن للو نشأ على نحو مغاير فقد كان
محبةً للأدب، يكتب الشعر ويقرأ كثيرًا، فهو من عرفني برواية «بلادك»
للكاتب بافيزي ورواية «أحاديث في صقليه» للكاتب فيتوريني. كنت
أذهب لزيارته عادةً في فيلا صغيرة تقع تحديدًا عند سفح جبل كراستو
من الناحية المطللة على البحر عندما يكون والدية غير موجودان.

-هل هدمها لحفر النفق؟

-أجل أو بالأحرى فإن حفارات النفق قد أزالَت الحطام والقواعد
فقد دُكَّت الفيلا بمعنى الكلمة أثناء القصف الذي سبق إنزال قوات
الحلفاء سنة ١٩٤٣.

-هل بحثت عن صديقك للو؟

-لا، لم أعرف حتى ما إذا كان على قيد الحياة أم في عداد الأموات ولا
حتى مكان سكّنه، أقول هذا لأنه يجب أخذ في الحسبان أن للو كان
أو ربّما ما زال يكبرني بأربع سنوات.

-اسمع أيها الناظر، ألم تدخل ذلك الكهف قط؟

-لا، لقد طلبت ذلك مرة واحدة من للو لكنه رفض، فقد كانت
لديه أوامر صارمة من جده وأبيه وكان يخشى بطشهم بشدة وخاصة
إذا حكي لي سر الكهف.

على الرغم من الاسم البيومونتي^{٢٤} الذي كان يحمله الشرطي
بالاسوني فقد كان يتحدث اللهجة الميلانية ويبدو على وجهه
الإنهاك المعروف بما أنهم في الثاني من شهر نوفمبر.

عندما رآه مونتالبانو قفز إلى ذاكرته عنوان قصيدة ديليو تيسا^{٢٥} وحدث
نفسه: «إنه هو يوم الموت يا ألجير»

بعد أن قضى حوالي نصف الساعة محدثًا ضجيجًا في آخر الكهف
بجهازه، نزع بالاسوني السماعات من فوق أذنيه ونظر المأمور بوجه
يعلوه -إذا صحّ ذلك- حزنًا شديدًا، فحدّث مونتالبانو نفسه:

-لقد أخطأت والآن ستكون صورتي في غاية الانحطاط أمام
ياكوماتسي، والذي بعد أن قضى عشر دقائق داخل الكهف اتضح
أنه يعاني من قوبيا الأماكن المغلقة وخرج من الكهف. فحدث

24- نسبة إلى إقليم بيمونتي وهو أحد أقاليم إيطاليا العشرين.

25- كاتب وشاعر إيطالي ولد في ميلانو عام ١٨٨٦. (المترجم)

مونتالبانو نفسه بسوء نيّة: «ربما لأنه لا توجد الآن كاميرات كي تصورك».

ثم قرر المأمور أن يسأل كي يتأكد من الفشل:

-وماذا بعد إذا؟

-يوجد خلف الجدار..

هكذا قال بالاسوني مقطعًا الجملة؛ فبالإضافة إلى أنه كئيب فقد كان ثقیل اللسان أيضًا، فسأله مونتالبانو بلطف مختلط بغیظ:

-هل لك أن تخبرني من فضلك -إذا لم يكن ذلك شاقًا عليك- ماذا يوجد خلف الجدار؟

On sit Voeuij-

-هل يمكنك أن تسدي لي معروفًا بالتحدث معي بالإيطالية؟

في ظاهر نبرة حديثه بدا كأنه رجل نبيل من بلاط الملوك في القرن السابع عشر.

كان بالاسوني لا يعرف أنه بعد دقيقة واحدة إذا استمر في التحدث بطريقته تلك، أنه سيتلقى لكمة قوية تقتلع أنفه، لكن لحسن الحظ أطاع المأمور وقال:

-يوجد تجويف بحجم هذا الكهف.

اطمأن المأمور؛ فقد صح ما رآه ثم دخل ياكوماتسي في تلك اللحظة:

-أوجدتم شيئًا؟

أخذ بالاسوني يثرثر مع رئيسه بينما ينظر له مونتالبانو شرًا:

-أجل سيدي، هناك كهف آخر متاخم لذلك الكهف وهو يشبه

شيئاً رأيته في التلفاز حيث رأيت منزل لسكان الإسكيمو، بماذا يسمى.. آها بالضبط كوخ الجليد وبجواره مباشرة هناك كوخ آخر وكل من الكوخين متصلين بنوع من الوصلات كمرر صغير وسقفه منخفض، أما هنا فالوضع على ما هو عليه.

فقال ياكوماتسي:

-فيما يبدو أنه تم إغلاق الممر الصغير بين الكوخين منذ بضع سنوات خلت.

فقال بالاسوني وقد بدا عليه المزيد من الإنهاك:

-أجل سيدي وربما إذا كان هناك في الكهف الآخر أسلحة قد خُبِأت، فلا بد وأنها تعود على الأقل إلى فترة الحرب العالمية الثانية.

أول ما لاحظته مونتالبانو على قطعة الكرتون -التي وضعها المعمل الجنائي كما يجب في كيس بلاستيكي شفاف- هو أنها على شكل جزيرة صقلية وفي منتصف قطعة الكرتون طبعت حروف باللون الأسود: (اتو-كات)

-فاتسيو!

-أؤمرني.

-فلتستعيد من شركة فينتي السيارة الجيب وكذلك المجاريف والفؤوس والمعازق؛ فسنعود غدًا إلى جبل الحمل أنا وأنت وجيرمانا وجالوتسو، فباح فاتسيو عما بنفسه قائلاً: «أجاءتك الآن تلك الفكرة الطائشة!؟»

كان مونتالبانو يشعر بإرهاق شديد، وجد في الثلاجة كاليماري مقلي وقطعة من جبن الكاتشا كافللو مُعَتَقَةٌ جيِّداً، أعد المائدة في الشرفة وعندما فرغ من تناول الطعام راح يبحث في المبرد عن حلوى الليمون المثلج الذي أعدته الخادمة بطريقة واحد إلى اثنين

إلى أربعة، أي: كوب واحد من عصير الليمون، كوبان من السكر ، أربعة أكواب مياه، إنها حقًا لذيذة جدًا. ثم قرر بعدها أن يتمدد على الفراش وأن يكمل قراءة رواية (مونتالبان) لكنه لم يتمكن من قراءة فصل واحد منها فلما فاضل بين النوم والقراءة، فضّل النوم ثم استيقظ فجأة بعد أقل من ساعتين ونظر إلى ساعة يده وكانت لم تتعد الساعة الحادية عشرة مساءً. بينما هو يضع ساعة يده على الكومودينو لمحت عيناه قطعة الكرتون التي كانت إلى جواره فأخذها وذهب إلى دورة المياه وراح ينظر إليها وهو جالس على المراض تحت ضوء النيون البارد، وفجأة لمعت فكرة في رأسه وبدأ له للحظة أن ضوء الحمام يزداد سطوعًا بالتدريج حتى الانفجار كلمعة الفلاش مما جعله يضحك:

-أيعقل ألا تأتيني الأفكار إلا وأنا جالس على المراض؟!

ونظر ثم عاود النظر إلى قطعة الكرتون وقال:

-سأفكر في الأمر صباح غدًا عندما أكون صافي الذهن، بيد أن هذا لم يحدث؛ فبعد ربع ساعة من مكوثه في الفراش وهو يتقلب ويتقلب نهض وبحث في دليل الهاتف عن النقيب إليوتا وهو من حرس الخزنة العامة بمدينة «مونتلوزا» والذي كان صديقًا له:

-أسف لاتصالي في هذا التوقيت لكنني في حاجة ماسة لمعلومة عاجلة: هل قمتم بعمل أي تفتيشات لمتجر باسم إنجراسيا ببلدة «فيجاتا»؟

-لا يحضرني الاسم، وبما أنني لا أتذكره فهذا يعني أننا ربما قمنا بالتفتيش ولم يثبت لدينا عنه أي شيء غير قانوني.

-أشكرك.

-مهلاً، من يختص بتلك العمليات هو المارشال لاجانا، لو أردت جعلته يتصل بك، أنت في المنزل أليس كذلك؟

-أجل

-إِذَا أمهلني عشر دقائق.

كان لديه الوقت الكافي للذهاب إلى المطبخ ليشرب كوب من المياه المثلجة ثم رن الهاتف:

-أنا لاجانا، لقد أخبرني النقيب بالأمر، أجل لقد كان آخر تفتيش لهذا المتجر منذ شهرين وكان كل شيء قانوني.

-أقمتم بهذا التفتيش من تلقاء أنفسكم؟

-إنه روتين اعتيادي وقد وجدنا كل شيء على ما يرام، أؤكد لك أنه قلما يوجد تاجر أوراقه قانونية بهذا الشكل، لا يوجد لدينا سبب للخداع في هذا الشأن.

-هل فتشتم عن كل شيء؟ كشوف الحسابات، الفواتير، والوصول؟

-معذرة أيها المأمور، وكيف تظن أن تتم التفتيشات؟!

هكذا سأل المارشال بصوت به شيء من الحدة.

-بحق السماء لا أريد أن أشكك.. غرضي من السؤال شيئاً آخر، أنا لا أعرف تلك الإجراءات لذا أطلب مساعدتك، كيف يتم تمويل هذه المتاجر بالبضاعة.

-تجار جملة هم من يقومون بذلك، قد يمول المتجر خمسة أو عشرة تجار جملة على حسب الحاجة.

-حسنًا، أتدري من هم ممولي متجر إنجراسيا؟

-أظن ذلك لكن عليّ إحضار بعض الدفاتر من أماكن مختلفة.

-أنا ممتن حقًا لك، سأتصل بك صباح غدًا في وحدتك الشرطة.

-لكنني في الوحدة الآن، ابق على خط الهاتف.

سمعه مونتالبانو يصقّر لحناً بفمه..

-ألو، أيها المأمور ها هم تجار الجملة الذين يمونون متجر إنجراسيا هم ثلاثة من مدينة ميلانو وواحد من مدينة برجامو، وواحد بمدينة تارانتو، وواحد بكاتانيا. تجار ميلانو هم..

-معذرة للمقاطعة، فلتبدأ بتجار كاتانيا.

-الاسم التجاري للشركة الموجودة في كاتنيا هو «بان» ككلمة Pane²⁶ بدون حرف ال e الأخير ومالكها هو سالفاتوري نيكوزيا القاطن في...

لم يتضح محل إقامته، فقال مونتالبانو في خيبة أمل.

-شكراً هذا يكفي.

-انتظر، لقد فاتني شيء: يتم تموين المتجر من كاتانيا أيضاً -فقط بالأدوات المنزلية- من شركة أخرى اسمها برانكاتو.

كان مكتوب على قطعة الكرتون (اتو-كات) أي شركة (برانكاتو-كاتانيا)، وجدتها، وجدتها! أصم صياح فرحة مونتالبانو أذني المارشال وأفزعته: أيها القائد، أيها القائد! يا إلهي ماذا جرى؟! أنت بخير؟ أيها القائد!

26- وتعني الخبز (المترجم)



الفصل الحادي عشر

وجهه نضر ومبتسم، يرتدي السترة ورباط العنق، تكتنفه سحابة من عطر الكولونيا. هكذا حضر مونتالبانو في تمام الساعة صباحًا في منزل السيد فرانثيسكو لاكوماري مدير متجر إنجراسيا الذي استقبله ليس فقط بدهشة مبررة، بل استقبله أيضًا مرتديًا سرواله الداخلي القصير ويده زجاجة حليب، سأل المدير بعد أن تعرف على مونتالبانو وتعجب:

-ماذا جرى؟

-مجرد سؤالين بسيطين جدًّا وأخلصك من إزعاجي، لكن يجب أن أقول لك مقدمة هامة: إن لقاءنا هذا لابد وأن يظل سرًّا بيني وبينك، وإذا قمت بإفشائه لأحد حتى لو كان صاحب محل عملك، سأقوم بإيداعك السجن بحجة أو بأخرى، أضمن لك هذا مائة بالمائة.

بينما كان لاکوماري يحاول جاهداً أن يستنشق الهواء الذي يشعر بنقصانه، دوى صوت نسائي حاد ومفاجئ من داخل الشقة:

-شيتشينو، من جاء في هذا الوقت؟!

فهدأها لاکوماري وهو يقرب الباب من كتفيه:

-لاشيء، لاشيء يا كارميلينا، فلتنمي أنتِ. هل تمنع سيدي المأمور أن نتحدث على مستراح الدرج؟ في الطابق الأخير ذلك الطابق الذي يعلو هذا مباشرة؛ إنه خالٍ ولا يوجد به من يزعجنا..

-ممن تشتروا البضاعة في كاتانيا؟

-من شركة بان وشركة برانكاتو.

-هل توجد أوقات محددة لتموينكم بالبضاعة؟

-يتم التموين أسبوعياً من بان وشهرياً من برانكاتو، وقد نسقنا مع باقي المتاجر التي تتعامل مع نفس تجار الجملة هؤلاء.

-عظيم، إذًا فعلى حد علمي أن شركة برانكاتو تُحمّل شاحنة بالبضاعة وترسلها لتمر على المتاجر، ما ترتيب متجركم إذًا في تلك الجولة؟ سأوضح أكثر..

-لقد فهمت سيدي المأمور، تنطلق الشاحنة من كاتانيا بعدها تمر بمدينة «كالتانيسيتا» ثم مدينة «تراباني» ثم «مونتيلوزا» ونكون نحن في «فيجاتا» آخر من تمر عليهم الشاحنة التي تعود خاوية إلى كاتانيا.

-سؤال أخير فيما يتعلق بالبضاعة التي سرقها اللصوص.. أو تركوها ليُعثر عليها..

-أنت في غاية الذكاء سيدي المأمور.

-وكذلك أنت أيضًا إذا أمكنك أن تجيئني قبل أن أطرح عليك الأسئلة.

-إنني لا أستطيع النوم ليلاً بسبب هذا الأمر. حسناً لقد تم تسليمنا بضاعة برانكاتو قبل الموعد فقد كنا ننتظر وصولها في الصباح الباكر من اليوم التالي لكنها وصلت في الليلة السابقة لهذا اليوم عندما كنا على وشك إغلاق المتجر، وما قاله السائق أنه وجد متجراً من متاجر مدينة «تراباني» مغلق بسبب حالة حداد وقد كان من المفترض إمداده بالبضاعة؛ لذا فقد وصل إلينا مبكراً، عندئذ لكي يترك الشاحنة تعود قام بإنزال البضاعة وفحص الكشوف والصناديق لكنه لم يفتحها وقال أن الوقت قد تأخر وأنه لا يريد دفع راتب الوقت الإضافي للعمال، وأنه سيتم عمل كل شيء في اليوم التالي، وبعد بضعة ساعات وقعت السرقة، الآن أنا أتساءل قائلاً: من أبلغ للصوص بأن البضاعة وصلت قبل مواعدها؟.

لازال لاکوماري مولعاً بإعمال ذكائه، فقرر مونتالبانو أن ينظر للموضوع من وجهة نظر خصمه: «لابد وأن المدير لاکوماري لم يعرف كثيراً عن حقيقة الأمر؛ لأنه يمكنه بذلك أن يتسبب في مشاكل ضخمة، فرغم كل شيء كان من الواضح أنه لا يعلم شيئاً عن تجارة إنجراسيا في السلاح».

-لم يقل أحداً أن للأميرين علاقة ببعضهما؛ فقد يكون للصوص حضروا لسرقة ما كان موجوداً في المتجر ولكنهم وجدوا البضاعة وصلت لتوها.

-أجل ولكن لماذا تركوا كل شيء ليتهم العثور عليه؟

هنا يكمن اللغز، تردد مونتالبانو في إعطاء إجابة ترضي فضول لاکوماري.

جاء الصوت النسائي ولكن هذه المرة بشكل غاضب جداً:

-قل لي من هذا اللعين!!

يبدو أن السيدة لاکوماري ذات حس مرهف، انتهز مونتابانو تلك الفرصة كي ينصرف فقد أدرك ما تريده السيدة، وقال وهو يشرع في نزول الدرج:

-تحياي لزوجتك اللطيفة.

بمجرد أن وصل إلى البوابة، عاد أدراجه كالكرة المربوطة، ودق الجرس من جديد:

-أنت ثانية؟

كان لاکوماري قد شرب الحليب لكنه لازال يرتدي سرواله الداخلي.

-معذرة لقد نسيت: أنت متأكد من أن الشاحنة قد غادرت خالية تمامًا بعد أن أفرغت حمولتها؟

-عجبًا! أنا لم أقل هذا، لقد كان عليها قرابة الخمسة عشر صندوقًا كبيرًا خاص بالمتجر الموجود بمدينة «تراباني» الذي وجدوه مغلقًا، هذا ما قاله لي السائق. صاحت السيدة كارميلينا من الداخل:

-من هذا الوغد الذي يفسد علينا صباحنا؟!

فانصرف مونتابانو مسرعًا دون حتى أن يلقي التحية.

...

-أعتقد أنني حددت بنسبة كبيرة الطريق الذي قطعتة الأسلحة كي تصل إلى الكهف، انتبه لي سيدي رئيس المباحث، حسنًا بطريقة ما -لازال علينا اكتشافها- جاءت الأسلحة من مكان مجهول إلى شركة برانكاتو بكانانيا وفي الشركة تم تجميعها ووضعها في صناديق كبيرة وعليها الاسم المطبوع، وكأن تلك الصناديق تحتوي على أجهزة

منزلية عادية مرسلة إلى المتجر، عندما جاء أمر التسليم قام العاملين بشركة برانكاتو بتحميل صناديق الأسلحة مع الصناديق الأخرى ومن باب الحيلة قاموا في مكان معين في الطريق بين كاتانيا و«كالتانيستيا» قامو بتبديل شاحنة الشركة بشاحنة أخرى كانت قد تمت سرقتها مسبقاً، فإذا اكتشف أحداً أمر الأسلحة يمكن لشركة برانكاتو نفي صلتها بالموضوع من الأساس، وأنها لاتعرف شيئاً عن تجارة الأسلحة تلك، وأن الشاحنة ليست تابعة لها بل أن الشركة وقعت هي نفسها ضحية للسرقة. بدأت الشاحنة المسروقة جولتها وتركت صناديق البضاعة النظيفة كما يقال في مختلف المتاجر التي يجب أن تمولها بالبضاعة ثم توجهت صوب «فيجاتا»، لكن في آخر الليل قبل أن تصل توقفت عند جبل الحمل وأفرغت الأسلحة في الكهف، وطبقاً لما قاله لي المدير لاكوماري فإنهم في الصباح الباكر قاموا بتسليم الطرود الأخيرة لمتجر إنجراسيا وغادروا وفي طريق العودة إلى كاتانيا تم تبديل الشاحنة المسروقة بالشاحنة الحقيقية التابعة للشركة وهي نفس الشاحنة التي عادت إلى مقر الشركة وكأنها هي من قامت بالجولة وكانو كذلك في كل مرة يغيروا عداد الكيلومترات، ولقد كانو يقومون بتلك اللعبة البسيطة منذ ما لايقبل عن ثلاث سنوات؛ لأن ياكوماتسي قال لنا أنه تم تجهيز الكهف منذ ثلاث سنوات.

فقال رئيس المباحث:

-كل ما تشرحه لي عن ترتيب خطوات عملهم شيء عظيم، لكنني لازلتم لم أفهم مسرحية السرقة المزيفة.

-إنهم يتحركون على حسب الضرورة، أتتذكر تبادل إطلاق النار الذي كان بين فرقة عسكرية صغيرة وثلاث أشقياء في حقول «سانتا لوتشيا»؟ لقد أصيب فيها شرطي.

-أتذكر ذلك، لكن ما علاقته؟

-نقلت الإذاعات المحلية ذلك الخبر في حوالي الساعة التاسعة مساءً تحديدًا عندما كانت الشاحنة في طريقها إلى كهف الحمل، «سانتا لوتشيا» لاتبعد أكثر من اثنين أو ثلاثة كيلومترات عن مقصد المهربين الذين لابد وأنهم قد سمعوا بالفعل الأخبار من الراديو. لم يكن من الحكمة أن تعثر عليهم أي دورية عسكرية في مكان منعزل وقد كان هناك الكثير منهم في مكان الاشتباك، لذا عقدوا العزم على التوجه إلى «فيجاتا» وبالطبع لابد وأنهم سينتهي بهم الطريق إلى مكان مسدود، لكن فيما يتعلق بتلك الجزئية فهذا الاحتمال هو أخف الأضرار؛ وكانت لديهم احتمالات بديلة للخروج من هذا المأزق، وهذا ما حدث، فقد وصلو مبكرًا ورووا قصة متجر «ترابانو» المغلق، عندما تم إبلاغ إنجراسيا بالحدث أمر بتفريغ الحمولة وتظاهر بأن الشاحنة عائدة إلى كاتانيا، في حين أن الأسلحة لم تزل عليها وهي الصناديق التي كانت -بحسب رواية المدير لاکوماري- مرسلة إلى متجر «تراباني»، وتم إخفاء الشاحنة في إحدى المناطق القريبة من «فيجاتا» في منطقة مملوكة لإنجراسيا أو أحد شركائه.

-أعود فأسأل: لماذا مثلوا عملية السرقة؟ فقد كان من الممكن أن تتحرك الشاحنة من المكان الذي خبأوها فيها وتصل إلى كهف الحمل بكل سهولة وبدون أن يَمروا ثانيةً على «فيجاتا».

-بل كانت هناك حاجة لذلك؛ فإذا استوقفهم شرطيون من حرس الخزانة العامة أو أي شخص آخر وبحوزتهم خمسة عشر صندوقًا بدون بوليصة شحن سيثيروا الشكوك، وإذا أرغموا على فتح صندوق ستحدث الفاجعة؛ لذا كانت هناك حاجة لاستعادة الصناديق التي أنزلها إنجراسيا والتي لم يرد فتحها لتلك الأسباب.

-بدأت أفهم.

-عادت الشاحنة ليلاً إلى المتجر، لم يتمكن الحارس من التعرف على الرجال ولا على الشاحنة فلم يكن بالعمل في الليلة السابقة،

وحملوا الصناديق المغلقة وانطلقوا صوب جبل الحمل، أنزلوا صناديق الأسلحة وعادوا أدراجهم ثم تركوا الشاحنة في ساحة محطة الوقود وهكذا تمت اللعبة.

-معدرةً ولماذا لم يتخلصوا من البضاعة المسروقة وواصلوا المسير إلى كاتانيا؟

-هذه هي الخدعة العبقرية؛ أن يتركوا الشاحنة ليتم العثور عليها وفي الظاهر أن بها كل البضاعة المسروقة كي يضللوا من سيحقق بذلك، فنضطر نحن تلقائيًا إلى افتراض أن ذلك إهمال أو تهديد أو تحذير لأجل شيء لم يتم دفع ثمنه، أي أن يجعلونا نحقق في نطاق ضيق، وللأسف هذا هو نطاق التحقيق الذي اعتدنا عليه يوميًا، أما إنجراسيا فقد أدى دوره باقتدار بأن حكى لنا قصة المزاح السخيف كما يقول هو.

قال رئيس المباحث:

-أنها عبقرية فعلاً.

-أجل ولكن بإمعان النظر نجد دائماً ما يكشف خطأ أو هفوة؛ ففي حالتنا تلك لم يفتنوا إلى أن هناك قطعة كرتون قد انزلت تحت الألواح الخشبية المصنوعة منها أرضية الكهف.

فقال رئيس المباحث مفكراً:

-فعلاً فعلاً.

ثم قال كأنه يسأل نفسه:

-تُرى ماذا كان مصير الصناديق الخاوية؟

من آن لآخر يتشبهت رئيس المباحث بتفاصيل عديدة الأهمية.

-ربما حملوها على سيارة وذهبوا ليحرقوها في حقل ما؛ لأن عند جبل

الحمل كان يوجد ما لا يقل عن سيارتين لشركائهم ليأخذوا معهم سائق الشاحنة التي قد تركوها في الساحة.

فختم رئيس المباحث حديثه:

-إذًا لم نكن لنكتشف شيئًا بدون قطعة الكرتون تلك.

فقال مونتالبانو:

-حسنًا، لم تكن الأمور هكذا بالضبط؛ فقد كنت أسير وراء خيط آخر والذي كان سيوصلني حتمًا لنفس النتائج، تخيل لقد اضطروا لقتل عجوز مسكين.

فزع رئيس المباحث وتغير لونه:

-جريمة قتل؟! وكيف لم أعرف شيئًا عن هذا من قبل؟

-لأنهم جعلوه يتعرض لحادث سير، ولم أتأكد إلا في الليلة التالية أنهم قد قاموا بقطع سلك مكابح السيارة.

-هل ياكوماتسي هو من أخبرك بذلك؟

-بحق الله! ياكوماتسي رجل طيب وأنا أحبه، كما أنه كفء جدًا، لكن إقحامه في الأمر هو بمثابة إصدار بيان صحفي.

فقال رئيس المباحث وهو يأخذ شهيقًا:

-يومًا ما لابد أن أوبّخ ياكوماتسي بشدة حتى أنتزع شعره، فلترو لي كل شيء لكن بالترتيب وبهدوء.

قص عليه مونتالبانو قصة ميزوراكّا والخطاب الذي أرسله وختم حديثه قائلًا:

-لقد قتلوه بلا جدوى؛ لم يكن قاتلوه يعرفوا أنه قد كتب لي كل شيء.

-اسمع، فلتفسر لي سبب تواجد إنجراسيا بالقرب من متجره، بينما كانوا يتظاهروا بالسرقة كما يرى ميزوراكا.

-حتى إذا حدثت لهم عثرة أخرى أو زيارة مفاجئة يخرج هو مستعد للتبرير، قائلًا إن كل شيء عادي وأنه كان يعيد البضاعة؛ لأن العاملين بشركة برانكاتو قد أخطأوا في توريد الطلبات.

-وهل كان الحارس الليلي في المبرد؟

-هذا لم يكن مشكلة فقد أخفوه.

-فسأله رئيس المباحث بعد توقف بسيط:

-كيف؟ فلتكمل.

-فاستطرد مونتاالبانو:

-الهدية التي قدمها لنا طانو اليوناني على الرغم من أنه لم يحدد لنا أسماء الأشخاص، كانت هدية رائعة، ولابد من استغلالها؛ فبمتابعتنا للتحقيق بحكمة يمكننا وضع يدنا على حلقة لاندرك مدى أهميتها. كانت تلزمنا الحيلة؛ فإذا ألقينا القبض على إنجراسيا فورًا أو أي شخص من شركة برانكاتو فقد لانصل إلى شيء؛ علينا أن نصل إلى الرؤوس الكبيرة.

-فقال رئيس المباحث:

-أتفق معك، أريد أن أعلم كاتانيا أن تحت قبضتنا سورفو..

قطع حديثه وعبس فقد استعاد في تفكيره بكل ألم ذلك الشخص الجاسوس الذي تحدث معه في باليرمو وتسبب في موت طانو، فمن الوارد جدًا أن يكون هناك شخص مثله في كاتانيا ثم قرر:

-فلنتحرك بهدوء، ونضع المدعو إنجراسيا تحت الملاحظة.

فقال المأمور:

-إِذَا سأذهب إلى القاضي للحصول على التصاريح اللازمة، وحينما كان المأمور على وشك الخروج، ناداه رئيس المباحث مرة أخرى.

-آه اسمع، لقد تحسنت الحالة الصحية لزوجتي جدًّا هل يناسبك أن تزورني ليلة السبت؟ علينا مناقشة أمور كثيرة.

...

وَجَدَ القاضي لوبيانكو في حالة مزاجية جيدة على غير العادة وكانت عيناه لامعتان؛ فلم يستطع المأمور إلا أن يقول له:

-أراك بحالة جيدة.

-أجل أجل، بالفعل أنا بحالة جيدة.

فنظر حوله وارتسمت على وجهه ملامح تنم عن مكر، ومال باتجاه مونتالبانو وتحدث بصوت منخفض.

-أتعرف أن رينالدو يده اليمنى بها ست أصابع؟

اندهش مونتالبانو للحظة، ثم تذكر أن القاضي يعكف منذ سنوات على الإعداد لعمل غاية في القوة وهو (حياة ومغامرات رينالدو وأنطونيو لوبيكانو الاساتذة المستشارين بجامعة «جيرجنتي» في عهد الملك مارتينو الشاب [١٤٠٢-١٤٠٩])

وكان مُصِرًّا على رأيه أنهم أقاربه، كان من الأفضل تأييد القاضي في رأيه؛ فقال مونتالبانو بدهشة مختلطة بسعادة:

-حقًّا؟!

-أجل يا سيدي: ست أصابع في يده اليمنى.

كاد مونتالبانو يتطاول ويقول: «لابد وأنه يستطيع الاستمناء بأداء مذهل»، لكنه استطاع أن يمتنع عن هذا القول.

قام المأمور برواية كل شيء عن تجارة الأسلحة وقتل ميزوراكا للقاضي كما شرح له الطريقة التي أراد أن يتبعها وطلب منه التصريح بوضع هواتف إنجراسيا تحت المراقبة. فقال لوبيكانو:
-سأمنحك التصريح فوراً.

ربما لو كان في وقت آخر لأبدى لوبيكانو شكوكه ووضع المعوقات وتوقع حدوث المشاكل، لكن في هذه المرة وهو مسرور باكتشاف الأصابع الست في يمين رينالدو يمكنه أنه يمنح لمونتالبانو تصريح بالتعذيب والخزوقة والمحرقه.

...

ذهب للمنزل وارتدى المايوه وراح يسبح طويلاً ثم دخل المنزل مرة أخرى وجفف جسمه ولم يرتدِ ملابسه. لم يكن هناك طعام بالثلاجة وفي الفرن كانت هناك صينية تتباهى بنفسها وبها أربعة قطع من المعكرونة بالبشاميل، تستحق مكانة الآلهة في النظام الاجتماعي الإغريقي. أكل منها قطعتين وأعاد الصينية مرة أخرى في الفرن ثم ضبط المنبه وغط في النوم لمدة ساعة ثم استيقظ واستحم، وارتدى البنطال والقميص المتسخان وذهب إلى المكتب.

كان كل من فاتسيو وجيرمانا وجالوتسو ينتظرونه مرتدين ملابس العمل وبمجرد أن رأوه أمسكوا بالمجاريف والفؤوس والمعازق وبدأوا في الإنشاد الجماعي القديم الذي كان يتغنى به العمال محركين المعدات لأعلى:

«لقد حان.. لقد حان.. وقت فيه الأرض.. ملك لمن يعمل الآن..»

وكان تعليق مونتالبانو:

-يا لكم من بلهاء!

عند مدخل كهف الحمل كان قد وصل كل من بريستا الصحفي قريب جالوتسو وعامل حمل معه مصباحين كبيرين وبطارية. نظر مونتالبانو إلى جالوتسو وكان وجهه محمر خجلاً، فقال له جالوتسو:

-كما تعرف سيادتك، فقد أعطيتني الإذن في المرة الأخيرة..

فحسم مونتالبانو الأمر:

-لا بأس، لا بأس.

دخل الجميع في الكهف الذي به الأسلحة وعندها بدأ فاتسيو وجيرمانا وجالوتسو العمل بإشارة من مونتالبانو كي يزيحوا الأحجار التي التحم بعضها ببعضاً واستمروا في العمل لمدة ثلاث ساعات كاملة، حتى المأمور وبرستيا والعامل أرهقوا وهم يعملون بالتناوب مع الثلاث رجال. وأخيراً هُدم الجدار، وكما قال بالاسوني رأوا الممر الضيق بوضوح فيما تلاشى الباقي في الظلام. قال مونتالبانو لفاتسيو:

-إدخل أنت.

فأخذ الكشف وزحف على بطنه واختفى، بعد بضعة ثواني سمعوا صوته في دهشة:

-يا إلهي! سيدي المأمور، تعال إلى هنا لترى!

-لا تدخلو إلا عندما أناديكم أنا.

هكذا أمر مونتالبانو الجميع وخاصةً الصحفي الذي ما إن سمع صوت فاتسيو إلا وقفز وكان على وشك أن ينبطح على بطنه ويزحف.

كان طول الممر مساوياً لطول جسد مونتالبانو؛ فوجد نفسه في

الجانب الآخر بمجرد أن بدأ يزحف، أشعل المصباح وكان الكهف الآخر أصغر من الأول كما كان يعطي انطباع أنه جاف تمامًا، في منتصف الكهف تمامًا يوجد بساط لازال في حالة جيدة وإلى يسار البساط يوجد صحن عميق، موازٍ له من جهة اليمين يوجد إبريق، وعند طرف البساط يقبع كلب حراسة من الفخار يشكل قمة مثلث مقلوب مع الصحن والإبريق وقد كان في حجم الكلب الحقيقي، فوق البساط يوجد جثمانين شاحبين و متعانقين كمشهد في أفلام الرعب.

شعر مونتالبانو بضيق في التنفس ولم يستطع فتح فمه؛ لسبب مجهول عاد إلى ذهنه الشابان اللذان باغتهما في الكهف الآخر أثناء ممارستهما للجنس؛ فانتهز الرجال الآخرون فرصة صمته ولم يقاوموا رغبتهم، فدخلوا واحدًا تلو الآخر، قام العامل بإشعال المصباح واندفع في التصوير بجنون، لم يتحدث أحد وكان مونتالبانو أول من نطق وقال:

-أبلغ المعمل الجنائي والقاضي والطبيب باسكوانو.

ولم يلتفت حتى إلى فاتسيو وهو يعطه الأمر، وظل كما هو كأنه مسحور وهو ينظر إلى المشهد خشية أن توقظه أقل حركة له من الحلم الذي يعيشه.



الفصل الثاني عشر

بعد أن أفاق من السحر الذي ألجمه، راح مونتالبانو يشير إلى الجميع بأن يقفوا مستنديين إلى الحائط وألا يتحركوا ولا يطاءوا أرض الكهف، وقد كانت مرشوشة برمال حمراء ناعمة جدًا وكأن شخص ما قد قام بتصفيتها، كذلك كانت تلك الرمال موجودة على الجدران ولم يكن لها أثر في الكهف الآخر وربما كانت تلك الرمال بشكل ما هي ما حالت دون تحلل الجثمانين، وقد كانت الجثتين لرجل وامرأة لا يمكن تحديد عمرهما بمجرد النظر، كما تأكد المأمور من اختلاف جنسيهما من خلال شكل الجسدين، ولم يكن متأكدًا من السمات الجنسية المميزة لجسديهما؛ فقد محتها العوامل الطبيعية. الرجل مضجع على جنبه وذراعه تمر من فوق صدر السيدة التي كانت مستلقية على ظهرها، إذًا فقد كانا متعانقين وسيظلان متعانقين للأبد، فبالفعل كان لحم ذراع الرجل ملتصقًا وملتحم مع لحم صدرها، بل يمكن أن يفصلهما الطبيب باسكوانو بعد قليل.

يبرز بياض العظام من تحت الجلد الشاحب والمجعد، لقد كانا

يابسين وعادا إلى شكل الهيكل العظمي، بدت الجثتين كأنهما يضحكان وشفتاهما المشدوتين والمنحصرتين عن الفم تكشف عن أسنانهما؛ بجوار رأس جثة الرجل كان يوجد صحن عميق وبه أشياء مستديرة، بينما كان بجوار جثة السيدة إبريق من الفخار يعود لتلك الفترة التي كان الفلاحين يحملونه معهم للحفاظ على برودة المياه.

عند أقدام الجثتين يوجد كلب فخاري طوله حوالي متر ويحتفظ بألوانه كما هي: الرمادي والأبيض، وقد صوّره الفنان الذي صنعه باسطاً قدميه الأماميتين وضامّاً الخلفيتين، فمه نصف مفتوح، كان قابلاً لكن في وضع الحراسة. كانت توجد بعض الثقوب بالبساط ظهرت من خلالها رمال الأرضية لكن يمكن استنتاج أنها ثقوب قديمة وأن البساط كان على حالته تلك قبل أن يوضع في الكهف.

أصدر المأمور أوامره ملتفتاً إلى برستيا والمصور:

-فليخرج الجميع، و لتطفئوا المصابيح.

فقد أدرك فجأة الضرر الذي يتسببون فيه بحرارة أضواء التصوير وبوجودهم نفسه.

بقى وحيداً في الكهف يضيء بالكشاف ويدقق النظر فيما يحتويه الصحن، تلك الأشياء المستديرة كانت عملات معدنية نحاسية ومصدأة، مستخدماً أصبعين فقط ليلتقط منها واحدة بهدوء والتي بدت له القطعة الأفضل حالاً، وهي عملة فئة العشرين سنتاً تم سكّها عام ١٩٤١ وعليها صورة الملك فكتور إيمانويل الثالث على أحد وجهيها وعلى الوجه الآخر توجد صورة لسيدة ومعها الرمح الروماني، عندما وجه الضوء إلى رأس الميت لاحظ أنه وجود ثقب في صدغة وقد جذب ذلك على انتباهه طويلاً؛ فقد كان لايفهم ما إذا كان الثقب بسبب طلق ناري أو أنه انتحر أم قُتل، لكن إذا كان انتحر أين هو السلاح؟ ولم يبد على جثمان السيدة أي أثر لموت

نتيجة عنف متعمد.

ظل يفكر: الجثمانان عاريان ولا ترى ملابس في الكهف، ماذا يعني هذا؟ انطفأ فجأة الكشف بدون أن يضعف مسبقًا ولا أن يخفت ضوءه فقد فرغت البطارية. ظل مونتالبانو للحظة في ظلام دامس، لم يستطع أن يتحرك، وتجنبًا لوقوع مكروه جلس على الرمال وانتظر حتى تتأقلم عيناه على العتمة، وعند لحظة معينة، يبدو أنه رأى الضوء الخفيف القادم من فتحة الممر، لكن تلك الثوانٍ القليلة التي قضاه في الظلام الدامس وفي هدوء تام كانت كافية لأن يشم رائحة غير مألوفة وكان على يقين من أنه قد شمها قبل ذلك، حاول أن يتذكر أين شمها بكل جهده على الرغم من أنه أمرًا تافهًا. حيث أنه اعتاد بالفطرة منذ نعومة أظفاره أن يعطي لونا لكل رائحة تؤثر فيه، فتبين له أن تلك الرائحة ذات لون أخضر قاتم، ومن خلال هذا الرابط تذكر أنه عندما شم تلك الرائحة لأول مرة كان في القاهرة داخل هرم خوفو في ممر غير مسموح به للزائرين، لكنه دخله بفضل مجاملة صديق مصري له، شعر فجأة بأنه رجل ثرثار تافه غير جدير بأي إحترام؛ ففي الصباح عندما باغت الشابان اللذان كانا يمارسا العلاقة الحميمة انتهك بذلك حرمة الحياة، والآن ها هو ينتهك حرمة الموت أمام جسدان كان من المفترض أن يظلا في عناقهم طي النسيان.

بسبب هذا الشعور بالذنب لم يهتم بالفحوصات التي بدأ فيها ياكوماتسي على الفور هو ورجاله من المعمل الجنائي والطبيب الشرعي الطبيب باسكوانو. دخن مونتالبانو خمس لفافات تبغ وهو جالس فوق الصخرة المستخدمة كباب لكهف الأسلحة وقتها سمع نداء من باسكوانو في عصبية شديدة وتوتر:

-أي شيء يعمل القاضي؟!

-أتسألني أنا؟

-إذا لم يحضر مبكرًا سيذهب كل شيئًا هباءً، لا بد أن آخذ الجثتين

إلى «مونتلوزا» وأودعهما بالثلاجة فهما يكادا يتحللا بمجرد النظر إليهما، ماذا أفعل؟

حاول مونتالبانو تهدئته:

-فلتدخن لفافة تبغ معي.

وصل القاضي لوبيانكو بعد ربع الساعة، بعد أن كان المأمور قد دخن لفافتين تبغ.

ألقى لوبيانكو نظرة خاطفة، وبما أنه يرى أن الميتين ينتميان إلى ما قبل عهد الملك مارتينو الشاب فقال على عجلة للطبيب الشرعي:

-إفعل كما يحلوك فهي قضية قديمة على أية حال.

توقع مونتالبانو فوراً المشهد الذي بدأت به الأخبار بقناة «تيلي فيجاتا»؛ ففي نشرة أخبار الثامنة والنصف كان أول ما ظهر هو وجه برستيا المتحمس والذي أعلن عن سبق صحفي فريد من نوعه وقال: «إن الفضل يرجع إلى الحدس العبقري للمأمور سالفو مونتالبانو -مأمور فيجاتا- والذي قدّم نموذجاً نادراً بين المحققين في الجزيرة ولما لا؟ بل في إيطاليا بأسرها». ثم تابع حديثه ذاكراً تفاصيل عملية الضبط الدرامية للهارب طانو اليوناني السفاح زعيم المافيا واكتشاف كهف الحمل المستخدم كمخزن للسلاح. عرضت سلسلة من المؤتمرات الصحفية بمناسبة إلقاء القبض على طانو حيث ظهر شخص مرتبك ومتلعثم، يجيب باسم وبصفة المأمور مونتالبانو وبالكاد نجح في تجميع بضعة كلمات في جملة مفيدة، استأنف برستيا روايته وكيف أن المحقق المتميز كان علي يقين بأن بجوار الكهف الذي به أسلحة يوجد كهف آخر متصل به، وقال برستيا:

«لقد قمت باتباع المأمور وأنا واثقاً من تخميناته، وكان معي زميلي المصور سكيريرو جيرلاندو.»

عندئذٍ وبطريقة غامضة طرح القليل من الاستفسارات: أي قوى

خارقة للطبيعة تلك التي يتمتع بها المأمور؟ ما الذي أوحى له بوجود مأساة قديمة خلف بعض الحجارة التي عفا عليها الزمن؟ هل عينا المأمور بها أشعة إكس التي يتمتع بها سوبر مان؟

مونتالبانو الذي كان يشاهد النشرة من منزله، ظل لمدة نصف ساعة يبحث عن سروال داخلي نظيف على الرغم من أنه كان موجوداً بمكان ما، عند سماعه للسؤال الأخير، نسي أمر السروال تماماً.

أثناء تتابع الصور المؤثرة للجثتين في الكهف كان برستيا يعرض تحليله للموضوع متحدثاً بثقة متجاهلاً الثقب الموجود في صدغ جثة المتوفي؛ ولذلك تحدث عن أن موته كان بسبب الحب، ففي رأيه أن العاشقان بعد أن وقف أهليهما في طريق حبهما، أغلقا على نفسيهما في الكهف وسدا الممر واستسلما للموت جوعاً وقد زودا مثوهم الأخير ببساط قديم وإبريق ملئ بالماء وراحا ينتظران الموت وهما متعانقان، ولم يتحدث عن الصحن الملئ بالعملات المعدنية الصغيرة، فقد شطّ بخياله وهو يرسم تلك الصورة.

واستطرد برستيا: الجثتين مجهولتي الهوية وقد وقعت أحداث قصتهما منذ ما لا يقل عن خمسين عاماً، ثم راح صحفي آخر يتكلم عن أحداث اليوم:

طفلة عمرها ست سنوات خالها يغتصبها ويقتلها ضرباً بحجر؛ العثور على جثة ملقاة في بئر؛ تبادل لإطلاق النار في مدينة «مِرفي» أسفر عن ثلاثة قتلى وأربعة مصابين؛ مصرع عامل أثناء العمل؛ اختفاء طبيب أسنان؛ انتحار تاجر بعد أن ضاق ذرعاً بالدائنين؛ القبض على مستشار عام لارتكابه الكسب غير المشروع والرشوة؛ انتحار رئيس المقاطعة المتهم بالإتجار في البضاعة المسروقة؛ العثور على جثة في البحر..

ثم راح مونتالبانو في سبات عميق وهو أمام التلفاز.

...

-ألو، سالفو؟ أنا جيغيه، دعني أتحدث ولا تقاطعني بحماقاتك، أريد

رؤيتك؛ لابد أن أخبرك بأمر ما.

-حسنًا يا جيجه، الليلة إذا أردت.

-لن أكون موجود بفيجاتا سأكون في «تراباني».

-متى نتقابل إذن؟

-في أي يومًا نحن؟

-الخميس.

-أيناسبك السبت عند منتصف الليل في المكان المعتاد؟

-اسمع يا جيجه، مساء السبت أنا مدعو لتناول العشاء مع شخص ما، لكن على أي حال يمكنني الحضور، سأتأخر قليلًا، فلنتنظرن.

مكالمة جيجه -الواضح من صوته أنه قلق لدرجة أنه لا رغبة لديه في المزاح- قد أيقظته في الوقت المناسب، كانت الساعة العاشرة فضبط التلفاز على قناة «تيلي فيجاتا» وظهر نيكولو زيتو وهو ذو شعر أحمر كأفكاره المتوهجة، استهل النشرة الإخبارية بنبا موت عامل أثناء عمله في مدينة «فيلا» وقد احترق حيًا بسبب انفجار غاز، وجاء ببعض الأمثلة لتوضيح أن ما لا يقل عن تسعون بالمائة من رجال الأعمال يهملون قواعد الأمان بكل استهتار، ثم انتقل إلى نبا القبض على المسؤولين العاميين المتهمين بأشكال متنوعة من استغلال النفوذ، وانتهاز الفرصة ليذكر للمشاهدين كيف حاولت الحكومات التي تولت المسؤولية بلا جدوى استصدار قوانين تحد من عملية التخلص من النفايات المستمرة. كان ثالث موضوع تم طرحه هو انتحار التاجر الذي ضاق ذرعًا بالديون من شخص مُرابي، وقال رأيته في التدابير التي اتخذتها الحكومة ضد فائدة الاقتراض الغير

صالحة بالمرة وتساءل: «لماذا يقوم من ينبش هذا الجرح بالفصل بين القروض الربوية والمافيا؟ ما هي طرق غسيل الأموال الغير شرعية؟» الشيء من مدينة جنوة وسنتقابل في المطار ونركب الطائرة سوياً.

-مممم..

-وكذلك حجزت الفندق؛ فأنا أعرف صديقة أقامت فيه وقالت لي إنه رائع جداً وليس باهظاً، أعتقد أنه سينال إعجابك.

-مممم..

-سنسافر خلال خمسة عشر يوماً، أنا سعيدة وأعد الأيام والساعات.

-مممم..

-سالفو، ما الأمر؟!

-لا شيء، وما عساه أن يكون؟

-تبدو لي غير متحمساً.

-وكيف ذلك؟ ماذا تقولين؟

-اسمع يا سالفو إذا غيرت رأيك عند اللحظة الأخيرة سأسافر أنا رغم ذلك، سأذهب إلى هناك بمفردتي.

-كلا..

-هل لك أن تخبرني ماذا بك؟

-لا شيء، فقط كنت نائماً.

...

-المأمور مونتالبانو؟ مساء الخير، أنا الناظر بورجو.

-مساء الخير، تفضل بالحديث.

-أنا في غاية الإحراج لإزعاجك في منزلك، لقد سمعت للتو في التلفاز عن العثور على جثتين. -هل تمكنت حضرتك من التعرف عليهما؟

-لا، أنا أتصل بخصوص شيء قد قيل في التلفاز بشكل عابر، وربما يكون مهمًا بالنسبة لك، إنه أمر يتعلق بالكلب الفخاري، إذا لم يكن لديك مانع سآتي في صباح غدًا في مكتبك مع المحاسب بورونا أتعرفه؟

-أعرفه شكلاً فقط، أيناسبك الساعة العاشرة؟

...

قالت ليفيا:

-أريدك أن تفعله هنا دون تضييع للوقت.

وقد كانا موجودين في مكان كامتنزه به أشجار كثيفة وتزحف تحتهم مئات الحلزونات من الفصائل الأكثر تنوعاً: فينيارولي، أتوبا تدري، فالفوتشي، سكاتاتريدزي، كراستونا.

-ولماذا هنا تحديداً؟ فنعد إلى السيارة وفي خلال خمس دقائق سنكون في المنزل فرمها يمر أحد ما من هنا.

فقالت له ليفيا:

-لاتجادل أيها الأحمق!

وأثناء ذلك أمسكت بحزام بنطاله وحاولت بشكل عنيف أن تفكه، فقال لها:

-سأفكّه أنا.

قامت هي بخلع ملابسها في لحظة، بينما هو لا يزال متعثراً في بنطاله وسرواله الداخلي. فحدث نفسه باندفاع غيرة أهل صقليه:

-لقد اعتادت خلع ملابسها بحرفية.

استلقت ليفيا على الحشائش الرطبة وباعدت بين ساقها وداعبت نهديها، بينما اشمأز هو عند سماع صوت عشرات الحلزونات تدهس تحت جسدها، وقالت له:

-هيا بسرعة.

نجح مونتالبانو أخيراً أن يخلع ملابسه وهو يرتعش بسبب الهواء البارد، في تلك الأثناء زحف حلزونين أو ثلاث من نوع فالفوتشي فوق جسد ليفيا، فسألها بلهجة مستنكرة:

-ماذا ستفعلين مع هذه؟

بينما كانت تنظر له باستعطاف، ركعت على ركبتها وراحت تستثيره، وعندما شعرت أن مونتالبانو جاهز عادت لوضعها السابق وقالت:

-عاشرني بكل ما أوتيت من مهارة.

فتساءل متحيراً:

-ما لها أصبحت بذيئة بهذا الشكل؟!

وهو على وشك البدء في معاشرتها، رأى كلباً على بعد خطوات قليلة؛ كلب أبيض يتدلى من فمه لسان وردي وكان ينبج مهدداً، فيما كثر عن أنيابه وسال من فمه خيط من اللعاب.

-متى جاء هذا الكلب؟

-هيا ضاجعني!

عندها قفز الكلب وتجمد مونتالبانو وأصابه الرعب، وصل الكلب على بعد

سنتيمترات من رأس مونتالبانو ثم تحول إلى حجر وفقد لونه نوعاً ما ثم قبع
باسطاً قدميه الأماميتين وضم قدميه الخلفيتين وأصبح قمثال من الفخار، إنه
هو كلب الكهف الذي كان يحرس القتيلين.

ثم اختفى كل شيء في وقت واحد: السماء والأشجار والنباتات
وتجمع حولهما جدران وسقف من الصخر وفزع مونتالبانو عندما
أدرك أن الميتين الموجودان في الكهف لم يكونا شخصان مجهولان بل
كانا هو وليفيا.

استيقظ من الكابوس وهو يلهث ومبللاً بالعرق واعتذر في
ذهنه ليفيا بعد أن تخيلها في حلمة بذينة إلى هذا الحد. ما دلالة هذا
الكلب؟ وتلك الحلزونات الكريهة المنتشرة في كل مكان لأبد وأن
لهذا الكلب دلالة ما.

قبل أن يذهب إلى المكتب مر على بائع الجرائد وابتاع الصحيفة الصادرتان
في الجزيرة وكان كلاهما يفرد مساحة كبيرة للجثمانين في الكهف والعثور على
الأسلحة التي أصبح أمرها طي النسيان. أكدت الصحيفة التي تصدر في باليرمو
أن الأمر ما هو إلا انتحار لأجل الحب وتلك التي تصدر في كاتانيا تناولت
موضوع القتل دون التغافل عن مسألة الانتحار وعنونت الموضوع بـ: (إنتحار
مزدوج أم قتل ثنائي) واضعين فرق غامض وعجيب بين المصطلحين «مزدوج
وثنائي». من ناحية أخرى، إعتادت الصحيفة في كل مناسبة ألا تأخذ موقف
محدد سواء أكان الأمر يتعلق بحرب أو بزلزال، وتلعب على جميع الأطراف؛
ولذلك اشتهرت بانها جريدة مستقلة وليبرالية. لم تتوقف أيًا من الجريدتين
أمام أمر الإبريق والصحن والكلب الفخاري.

بمجرد أن تخطى مونتالبانو عتبة الباب سألّه كاتاريلّا وهو منزعج:
بماذا عليه أن يجيب على مئات الاتصالات الهاتفية من الصحفيين
الذين يريدون التحدث معه؟

-قل لهم أنني ذهبت في بعثة.

-وأنتك تعمل كمبعوث؟

كانت هذه هي النكتة السريعة خفيفة الظل من الشرطي الذي
ضحك بصوت عالٍ كعادته؛ فرأى مونتالبانو أنه أحسن صنعًا عندما
فصل مقبس الهاتف قبل أن ينام الليلة الماضية.



الفصل الثالث عشر

-دكتور باسكوانو؟ أنا مونتابانو، أود أن أعرف ما إذا كانت هناك مستجدات.

-أجل سيدي، أصيبت زوجتي بنزلة برد وحفيدي خلعت سننها.

-هل أنت غاضب يا دكتور؟

-بالطبع سيدي!

-ممن؟

-أتعجب حين تسألني أنت ما الجديد! فكيف لك أن تسألني هذا

السؤال في التاسعة صباحًا! ماذا تظن؟! أظن أنني قضيت الليل في فتح بطون هذين الميتين وكأنني نسر أو طائر العقعق؟ بل أنا أنام الليل، وأعمل الآن في جثة ذلك الغريق الذي وجدوه في منطقة «توري سبكاتا»، والذي اتضح أنه ليس بغريق؛ فقبل أن يُلقى به في المياه طعنوه ثلاث طعنات في الصدر.

-أيها الطبيب، أتراهني؟

-على ما؟

-على أنك قضيت الليل مع هذين الميتين.

-حسنًا، لقد صحّ تخمينك.

-وماذا اكتشفت؟

-الآن لا أستطيع إخبارك إلا بالقليل، عليّ أن أفحص أمور أخرى. من المؤكد أنهما قد قُتلا بطلق ناري؛ هو بطلقة في صدغة، وهي بطلقة في قلبها ولم تظهر إصابة السيدة لأن يد الرجل كانت فوقها، وتم قتلها بحرفية شديدة أثناء نومهما.

-هل قُتلا بداخل الكهف؟

-أعتقد أن لا، أظن أنهما قد حُملا إلى داخل الكهف جثث هامة ثم وُضعا متجاورين مرة أخرى، عاريان كما كانا.

-هل نجحت في تحديد عمرهما؟

-لا أريد أن أقدر خطأً، لكن لا بد وأنهما في ريعان الشباب.

-في رأيك متى وقع الحدث؟

-يمكن أن أجازف بافتراض وعليك أن تتحقق منه أكثر، بشكل تقريبي وقعت منذ حوالي خمسين عامًا.

-إذا سألت عني أي أحد، فأنا غير موجود، ولا تحوّل لي أي اتصالات لمدة ربع ساعة.

هكذا قال مونتبانو لكتاريلا ثم أغلق باب غرفة مكتبه وعاد للجلوس على مكتبه، كما كان ممي أوجيللو موجود بالمكتب أيضًا جالسًا لكن ظهره متصلبًا ومستقيم.

قال مونتالبانو:

-من يبدأ بالحديث؟

فردّ أوجيللو:

-أبدأ أنا؛ فأنا من طلب التحدث إليك، وأعتقد أنه قد حان وقت هذا الحديث.

-وأنا هنا كي أستمع إليك.

-هل لك أن تخبرني لماذا آذيتك؟

-أنت؟ أنت لم تؤذي بشيء، لكن لماذا تسألني هذا السؤال؟

-لأنه يبدو لي أنني أصبحت غريبًا هنا؛ فأنت هنا لاتخبرني بما تقوم به وتقصيني وأنا أشعر بالإهانة، فمثلاً في رأيك: هل يصح أن تخفي عني قصة طانو اليوناني؟ أنا لست ياكوماتسي الذي يفشي أي سر؛ أنا أستطيع كتمان أي شيء. إنني أعرف ما يحدث داخل قسم الشرطة الذي أعمل به من خلال المؤتمرات الصحفية، أترى أن هذا شيء جيد في حقي وأنا -إلى أن يثبت العكس- نائبك؟

-ولكن أتدرك كم كانت العملية حساسة؟

-تحديدًا لأنني أفهم ذلك أنا غاضب أكثر؛ فهذا يعني أنني لست

الشخص المناسب للأمور الحساسة.

-أنا لم أفكر في مثل هذا قط.

-لم تفكر به أبدًا لكنك تفعله دومًا، كموضوع الأسلحة الذي اكتشفته مصادفةً.

-تعرف يا ممي أنني كنت متوتر وكنت على عجلة من أمري ولم يخطر ببالي أن أبلغك.

-لا تخبرني بتلك الحماقات يا سالفو؛ فحقيقة الأمر غير ذلك.

-وما هي الحقيقة إذًا؟

-أقول لك أنا ما هي الحقيقة: لقد كونت قسم شرطة على طريقتك ويشبهك، كونته من فاتسيو وجيرمانا وجالوتسو وتضم إليك من تريده فما هم إلا أذرع مطيعه لرأس واحدة، هي رأسك أنت؛ فهم لا يعارضون ولا يشككون، فقط ينفذون الأوامر. الأجسام الغريبة في هذا المكان إثنان: كاتاريل وأنا، كاتاريل لأنه غبي جدًا وأنا...

-.. لأنك ذكي جدًا.

-أترى؟ أنت بسوء نيتك تصفني بالتهالي وهو ليس من صفاتي.

نظر إليه مونتابانو، ونهض ثم وضع يده في جيبه ودار حول المقعد الذي يجلس عليه أوجيلو ثم توقف.

-لا يوجد هناك سوء نية؛ بالفعل أنت ذكي يا أوجيلو.

-إذا كنت تعتقد هذا حقًا فلماذا تقصيني؟ يمكنني أن أكون مفيدًا لك على الأقل بنفس قدر الآخرين.

-هنا مربوط الفرس يا ممي: ليس بنفس قدر الآخرين بل أكثر منهم، أنا أحدثك بكل صدق، لقد جعلتني أعيد التفكير في طريقة معاملتي

لك، ربما هذا أكثر ما يزعجني.

-حسنًا، هل أصبح غبيًا بعض الشيء كي أريحك؟

-إذا كنت تريد أن تقوم بيننا مشاجرة كبيرة فلنفعل، ليس هذا ما أقصد، ما في الأمر أنني أدركت مع مرور الوقت أنني كالصائد الأوحده، معذرة لسوء التعبير وهو أيضًا تعبير خاطئ؛ لأنني أحب أن اصطاد مع الآخرين لكن أكون الوحيد الذي يخطط للصيد، هذا هو الشرط الذي لابد منه كي يفكر عقلي في الاتجاه الصحيح، وقد تتسبب ملاحظة ذكية واحدة في إحباطي وتفقدني ثقتي بنفسي ربما ليوم كامل، ومن الممكن ألا أستطيع وصل حبل أفكارى بعدها.

فقال أوجيلو:

-لقد فهمت، بل أنني كنت أفهم ذلك ولكنني أردت أن أسمعك وأنت تؤكده لي، إذًا فأنا أعلمك بدون أي عداوة أو كره بأنني سأكتب اليوم إلى رئيس المباحث طلب نقل.

تأمله مونتالبانو واقترب منه وانحنى للأمام واضعًا يديه على كتفي أوجيلو وقال:

-هل ستصدقني إذا قلت لك أنه لو فعلت هذا ستتسبب لي في حزن عميق؟

فانفجر أوجيلو:

-اللجنة!! أنت تريد كل شيء معًا؟ أي نوع من البشر أنت؟! تعاملني في البداية كأنني شيء حقير ثم تأتي الآن لتتصنع دفاء المشاعر؟ أتدري أنك إنسان أنا في متوحش؟

فرد مونتالبانو:

-أجل أعرف ذلك.

...

-اسمح لي أن أقدم لك المحاسب بورانو الذي تكرم وقبل الحضور معي.

هكذا قال الناظر بورجو بكل ذوق، فقال لهما مونتابانو:

-تفضلا بالجلوس.

وهو يشير لهما نحو مقعدين وثيرين في زاوية الغرفة مخصصان للضيوف المهمين، وأخذ هو مقعد من تلك التي أمام المكتب المخصصين لمرتادي المكتب بوجه عام.

واستهل الحديث الناظر بورجو بقوله:

-يبدو أنني في هذه الأيام توليت مهمة تصحيح أو على الأقل تحديد ما يقولونه في التلفاز.

فقال له مونتابانو مبتسمًا:

-فلتصحح ولتحدد إذًا.

-أنا والمحاسب تقريبا أقران؛ فهو يكبرني بأربع سنوات وكلانا يتذكر نفس الأمور.

شعر مونتابانو بشيء من الفخر في صوت الناظر، وحق له ذلك فبورانو مرتعش وعيناه ضعيفة النظر بعض الشيء، ويبدو أنه أكبر من صديقة بما لا يقل عن عشر سنوات.

-انتبه لي، بعد بث قناة تيلي فيجاتا مباشرةً، والذي عرض من الداخل صور الكهف الذي وجدت به الأسـ.

-معذرةً للمقاطعة، هذه هي المرة الثانية التي تحدثني فيها عن الكهف الذي عثر به على الأسلحة، بينما لم تخبرني بأي شيء عن الكهف

الآخر، فلماذا؟

-ببساطة لأنني لم أعلم بوجوده؛ لم يحدثني عنها للو أبدًا. على أي حال، بعد البث التليفزيوني اتصلت هاتفيا بالمحاسب بورانو؛ كنت أريد التأكيد لأنني كنت قد رأيت الكلب الفخاري في مناسبة أخرى.

الكلب! لهذا إذاً ظهر له في الكابوس؛ فعندما أشار الناظر إلى الكلب في الهاتف سيطر على المأمور شيء كالشغف الطفولي.

-ترغبون في القهوة، صحيح؟ قهوة؟ في المقهى المجاور لنا يعدون قهوة طيبة.

فقام الاثنان بهز رأسهما بحركة متماثلة.

-عصير برتقال إذا؟ كوكاكولا؟ بيرة؟

لو لم يوقفاه لشعر وقتها أنه بعد قليل سيعطي لكل واحدًا منهم عشرة آلاف ليرة، فقال الناظر:

-لا، أشكرك لا يمكننا شرب شيء، فللسن حكمها.

-إذاً، تفضلًا بالحديث.

-من الأفضل أن يتحدث المحاسب.

-منذ فبراير ١٩٤١ حتى يوليو من عام ١٩٤٣..

قاطعه الآخر:

-..كنت في ريعان الشباب وكنت عمدة «فيجاتا»: إما لأن الفاشية كانت يعجبها الشباب ولهذا فقد قضا عليهم جميعًا إما محروقين وإما متجمدين؛ أو لأنه لم يتبق في البلدة إلا المسنين والنساء والأطفال وكان الباقيون على الجبهة أما أنا فلم أستطع الذهاب لأنني كنت مريض بمرض صدري، وحقًا كنت مريض.

فتدخل الناظر في الحديث تجنبًا للفهم الخاطئ:

-وأنا كنت صغيرًا جدًا على الذهاب إلى الحرب.

-لقد كانت أيام مرعبة؛ الإنجليز والأمريكان كانا يقصفوننا يوميًا، ذات يوم أحصيت عشرة مرات للقصف خلال ستة وثلاثون ساعة. من تبقى في البلدة كانوا قلة؛ فقد تم إجلاء الأغلبية العظمى كانوا يعيشون في المخابئ المحفورة في هضبة المارنا التي تقع على مقربة من البلدة، في الواقع كانت أنفاق ذات مخرجين وكانت آمنة جدًا، وضعنا فيها حتى السرر. اليوم اتسعت «فيجاتا» ولم تعد كسابق عهدها في تلك الفترة مجرد القليل من المنازل متجمعة حول الميناء ومجرد قطاع صغير من المساكن بين سفح الهضبة والبحر، فوق الهضبة كان يوجد سهل «لانترنا» الذي يبدو اليوم كنيويورك بما به من ناطحات سحاب، وقتها كان يوجد أربع مباني تقع على جوانب الطريق الوحيد المؤدي إلى المقابر ثم تنتهي بالريف. كانت أهداف طائرات العدو ثلاث أهداف: محطة الكهرباء؛ الميناء وما به من سفن حربية وتجارية؛ البطاريات المضادة للطائرات والسفن المنتشرة على امتداد حافة الهضبة. عند قدوم الإنجليز يكون الأمر أفضل حالًا منه عند قدوم الأمريكيين.

كاد موتالبانو أن يفقد صبره؛ كان يريد أن يصل إلى النقطة الهامة وهي مسألة الكلب، غير أنه لم يرد مقاطعة استرسال الرجل.

-وكيف كان الحال أفضل سيدي المحاسب وهي قذائف في كلتا الحالتين؟

تحدث الناظر نيابةً عن المحاسب الذي صمت عندئذٍ وشرذ في بعض ذكرياته.

-الإنجليز كانوا -كما يقال- أكثر نبلاً؛ فقد كانوا يلقون بالقنابل محاولين أن يصيبوا أهداف عسكرية فقط، أما الأمريكيان فقد كانوا يلقون القنابل عشوائيًا ويحدث ما يحدث.

ثم استطرد بورانو:

-عند نهاية عام ١٩٤٢ تدهور الموقف مرة أخرى؛ فقد شخّ كل شيء بدايةً من الخبز حتى الدواء والماء والملابس، وقتها فكرت في عمل تمثال لميلاد المسيح لأجل عيد الميلاد المجيد يمكن للجميع أن يؤدوا الصلاة أمامه، وعقدت العزم على ذلك، لكنني أردته تمثالاً متميزاً، وكذلك قررت أن ألهي تفكير أهل «فيجاتا» -على الأقل لبضعة أيام- عن المخاوف التي الكثيرة وعن الرعب من القنابل. لم توجد عائلة ليس لديها على الأقل فرد يحارب بعيداً عن المنزل إما في جليد روسيا أو في جحيم أفريقيا، فأصبح الجميع عصبيون، غرباء عن بعضهم البعض ومتشاحنون؛ فيمكن أن تقوم مشجرة على أشفه الأشياء؛ فأعصابهم كانت متوترة، لم يكن باستطاعتهم أن يغمض لهم جفن ليلاً وسط المدافع المضادة للطائرات وانفجار القنابل وأزيز الطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض وقذائف مدافع السفن، ثم أصبح الجميع يأتي إليّ أو إلى القس ليطلبوا حجة أو أخرى، ولم أعد أعرف كيف أتصرف في هذا المأزق؛ في تلك الفترة بدا لي أنني لست في شبابي، وشعرت بأن عمري وقتها كما هو عمري الآن.

توقف الرجل ليلتقط نفسه ولم يرد مونتالبانو ولا الناظر أن يتحدث أثناء هذا التوقف.

-جملة القول كي لا أطيل عليك، تحدثت عن هذا الموضوع مع بالاسارو كيارنسا والذي كان فناناً بارعاً في صنع تماثيل الفخار وكان يمارس هذا العمل لمجرد الاستمتاع، لكنه كان يعمل حمّال على عربة وكان هو صاحب فكرة صنع تماثيل بالحجم الطبيعي للمسيح الطفل، للسيدة العذراء، القديس يوسف، الثور، الحمار الصغير، راعي يحمل حملاً على كتفيه، نعجة، كلب، والتمثال المعروف لميلاد المسيح الخائف، وهو عبارة عن راعي رافع ذراعيه كدليل على الدهشة صنعه بالاسارو كيارنسا وبدا رائعاً. فكرنا وقتها ألا نضعه في الكنيسة بل أن نضعه تحت الأقواس المعمارية لمنزل تم قصفه،

وكان المسيح يولد من بين حزن شعبنا.

أدخل يده في جيبه واستخرج منها صورة فوتوغرافية وقدمها للمأمور. وقد كان تمثال ميلاد المسيح رائعاً فقد كان المحاسب محقاً في قوله؛ فيه معنى للهروب والفناء وفي نفس الوقت دفء اللقاء ونقاء فائق لطبيعة البشر. قال مونتالبانو مجاملاً بتأثر: «مذهل» ولكن بعد برهة ظهر الشرطي الذي بداخل مونتالبانو وراح يلاحظ الكلب باهتمام، لا يوجد شك بأنه هو الذي كان في الكهف، ثم وضع المحاسب الصورة في جيبه مرة أخرى.

-أتدري؟ لقد صنع تمثال ميلاد المسيح المعجزة، فقد ظل الناس متحابون فيما بينهم لبضعة أيام.

-وماذا كان مصير باقي التماثيل؟

كان هذا ما يهم مونتالبانو فابتسم العجوز، وقال:

-لقد بعثها جميعاً في المزاد، وربحت الكثير من الأموال التي تكفي لدفع أجر كيارنسا -والذي رفض أن يتقاضى إلا سعر تكلفة التماثيل- وتكفي كذلك للتصدق على من هو أشد حاجة منه وقد كانوا كثر.

-ومن اشترى التماثيل؟

-هنا تكمن المشكلة؛ فأنا لم أعد أتذكر هذا، لقد كانت معي الفواتير وكل شيء لكنني فقدتها عندما اندلعت النيران في جزء من مبنى البلدية أثناء هجوم الأمريكان.

-هل كان في تلك الفترة التي تحدثني عنها، يوجد خبر عن اختفاء شاب وشابه؟

ابتسم المحاسب بينما انفجر الناظر في ضحك هستيري.

-هل طرحت سؤال ساذج؟

فقال الناظر:

-معذرة سيدي المأمور، هو ذاك بالفعل.

فشرح بورانو:

- اسمع، لقد كان تعدادنا في «فيجاتا» في عام ١٩٣٩ أربعة عشر ألف نسمة، أتذكر جيداً التعداد الصحيح، ثم انخفض العدد في عام ١٩٤٢ إلى ثمانية آلاف؛ فقد كان من يستطيع الهجرة يهاجر، وكانو يستقروا مؤقتاً في البلدان البعيدة عن الساحل، كانت تلك البلدان صغيرة جداً حتى أنها كانت لا تثير اهتمام الأمريكيان. في الفترة ما بين شهري مايو ويونيو لعام ١٩٤٣ نقص تعدادنا إلى ما يقارب الأربعة آلاف، هذا بدون حساب عدد الجنود الإيطاليين والألمان والبحارة، وانتشر الباقون على شكل جماعات جماعات، وسكنوا الكهوف ومخازن التبغ وفي كل حذب وصوب، فكيف لسيادتك أن تعرف باختفاء أشخاص بعينها؟ لقد كانوا جميعاً مختفيين.

ثم ضحكا مجدداً وشكرهما مونتالبانو على المعلومات.

حسناً، ها قد نجح مونتالبانو في التعرف على شيء، تحولت مشاعر العرفان بالجميل التي كان يشعر بها المأمور إزاء الناظر والمحاسب بمجرد أن انصرفا تحولت إلى نوبة كرم جامحة والتي كان على يقين أنه سيندم عليها عاجلاً أم آجلاً؛ فقام بدعوة ممي أوجيلو إلى مكتبه وراح يكفّر بشدة عن ذنوبة تجاه صديقه ومساعدته، وضع ذراعه على كتفيه وجعل يدور ويدور في الغرفة وعبر له عن ثقته (الغير مشروطة) وحدثه باستفاضة عن ما يجريه من تحقيق عن تجارة الأسلحة، وكشف له عن مقتل ميزوراك، كما أخبره بأنه طلب من القاضي الحصول على إذن بوضع اتصالات إنجراسيا تحت المراقبة. فسأله أوجيلو في حماس:

-وماذا تريد مني أفعل؟

فقال مونتالبانو بعد أن عاد إلى رُشدِه فجأة:

-لاشيء، فقط عليك أن تنصت إليّ، لأنك إذا فعلت ولو شيء بسيط من تلقاء نفسك سأشج مؤخرتك، أقسم لك على ذلك.

رَنَّ الهاتف فرفع مونتالبانو السماعة، فسمع صوت كاتاريلّا الذي يقوم بدور عامل الهواتف:

-ألو، أيها القائد، على الهاتف كما تسميه الدكتور ياكوماتسي.

-حول لي المكالمة.

سمع كاتاريلّا يقول:

-معك على الهاتف القائد، سيدي الدكتور.

-مونتالبانو؟ لقد كنت ماراً من هنا عند عودتي من كهف الحمل..

-وأين أنت الآن؟

-ماذا تعني بسؤال؟ أنا في الغرفة المجاورة لك.

فتلفظ مونتالبانو ببعض السباب، وتعجب من وجود من هو أغبى من كاتاريلّا.

-تعال إليّ هنا.

فتح الباب ودخل ياكوماتسي، متسخاً بالرمال الحمراء والغبار، كما كان أشعث الشعر غير مهندم.

-لماذا أراد الشرطي الذي يعمل تحت قيادتك أن أتحدث معك فقط من خلال الهاتف؟

-ياكومو، من هو أكثر عتھا المهرج أم من يسير وراءه؟ ألا تعرف طبيعة كاتاريللا؟ كان عليك أن تركل مؤخرته وتدخل.

-لقد انتهيت من فحص الكهف وقمت بغربة الرمال، لاحظ أنني قمت بهذا العمل أفضل من المتقبن عن الذهب في الأفلام الأمريكية، ولم نعثر على أي شيء، وهذا لايعني إلا شيء واحد حيث أن باسكوانو قد أخبرني أن الإصابات عبارة عن ثقب دخول وخروج للطلقات النارية.

-يعني أنهما قد قتلا في مكان آخر.

-هذا صحيح؛ فإذا كانا قد قتلا في الكهف لكنا قد عثرنا على الطلقات النارية. بالمناسبة هناك أمر غريب: إن رمال الكهف عبارة عن خليط من بقايا مواقع مطحونة لحلزونات، لابدو أنها كانت بداخل الكهف بالآلاف.

فقال مونتابانو هامسًا:

-أيها المسيح!!

الحلم.. الكابوس.. جسد ليفيا العاري الذي كانت تنزلق من عليه حلزونات الفالفوتشي. ماذا كان يعني هذا؟ وضع يده على جبينه فوجد سيل من العرق.

فسأله ياكوماتسي في قلق:

-هل أنت مريض؟

-لا شيء، مجرد دوام بالرأس، أشعر فقط بالإرهاق.

-فلتستدعي كاتاريللا وتأمره بإحضار مشروب منعش لك من البوفيه.

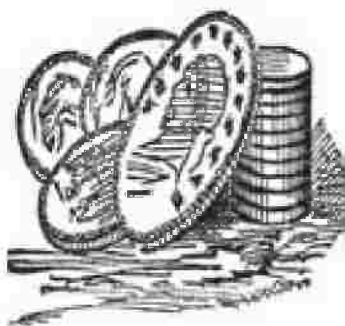
-كاتاريللا؟ أمزح؟ هذا الذي طلبت منه ذات مرة أن يحضر لي قهوة

«الاسبرسو» عاد لي بطابع بريدي.

وضع ياكوماتسي على المنضدة ثلاث عملات.

-هذه من العملات التي كانت في الصحن وقد أرسلت المتبقي إلى
المعمل، لن تفيدك في شيء، يمكنك الاحتفاظ بها كتذكّار.





الفصل الرابع عشر

قد تمر مدة فصل كامل من السنة دون أن يلتقي مونتالبانو بأديلينا؛ فقد كان مونتالبانو يترك نقود المشتريات على منضدة المطبخ كل أسبوع و يترك لها راتبها الشهري كل ثلاثين يومًا، غير أنهما قد تعارفا على نظام تواصل فيما بينهما: عندما تكون أديلينا ترغب في نقود زيادة، تضع على المنضدة حصالة النقود، وهو وعاء من الفخار كان مونتالبانو قد ابتاعه من معرض واحتفظ به للزينة، وعندما تكون هناك حاجة لشراء جوارب أو سراويل داخلية تضع له بنطال أو جورب على الفراش. بالطبع لم يكن هذا النظام يعمل من جانب أديلينا فقط؛ فقد كان مونتالبانو يخبرها بأشياء من خلال وسائل أكثر غرابة لكنها كانت تفهمها. منذ فترة لاحظ المأمور أن أديلينا قد فطنت إلى أنه متوتر ومنزعج وعصبي لما رآته يخرج تاركًا المنزل صباحًا ولذلك كانت تترك له أصناف خاصة من شأنها أن ترفع له حالته المعنوية.

في ذاك اليوم كانت أديلينا قد أتمت عملها لذلك وجد مونتالبانو في الثلجة حساء السبيط جاهز وكان السبيط صغير وغامق كما يحبه هو، ساوره شك فيما إذا كان يوجد به ريحان أم لا، واشتمه من على

بعد قبل أن يسخن الحساء لكن أيضًا هذه المرة لم يفلح التحقيق.
بعد أن فرغ من تناول الطعام ارتدى المايوه معتزمًا أن يتريض قليلًا
على شاطئ البحر، وبعد قليل من المشي شعر بالإرهاق وكانت تؤلمه
عضلات ساقه. وقال: «المعاشرة الجنسية في الوضع واقفًا والسير على
رمال جافة يؤديان إلى الهلاك»^{٢٧}

لقد مارس الجنس واقفًا مرة واحدة فقط ولم يشعر بعدها بالإرهاك
على عكس ما يقول المثل، غير أن السير على الرمال وخاصة تلك
الجافة المتاخمة للبحر أرهقه، نظر في ساعة يده واندھش؛ فهو في تلك
الفترة القصيرة قد تريض لمدة ساعتان، فخرّ جالسًا.

جاء صوت من بعيد:

-أيها المأمور، أيها المأمور.

فنهض متثاقلاً، ونظر إلى البحر معتقداً أن أحداً ما يناديه من مركب
أو قارب مطاطي غير أن البحر كان خالياً حتى مرمى البصر.

-أيها المأمور، أنا هنا أيها المأمور.

فالتفت فإذا بتورتيللا يلوح من على الطريق السريع وكان يجري
مسافة كبيرة بحازاة الشاطئ.

بينما كان المأمور يرتدي ملابسه على عجل، أخبره تورتيللا بأنهم
تلقوا مكالمة مجهولة في قسم الشرطة، فسأله مونتالبانو:

-من تلقى تلك المكالمة؟

إذا كان من تلقى هذه المكالمة كاتاريللا فمن يدري بأي طريقة حمقاء قد
استوعب، وبأي حماقات قد أخبركم.

فقال تورتيللا مبتسمًا بعد أن فهم ما جال بخاطر رئيسه:

-لا يا سيدي، لقد انصرف كاتاريلدا لدقيقة، كي يذهب للمرحاض وجلست أنا مكانه في مركز الاتصالات، كان الصوت ذو لهجة أهل باليرمو؛ حيث يستخدم حرف الـ ياء في مكان حرف الـ راء، لكنه استطاع أن يوصل ما يريد بشكل صحيح، لقد قال أن في الحظيرة توجد جثة رجل داخل سيارة خضراء قد خائنه زوجته.

-من ذهب إلى هناك؟

-فاتسيو وجالوتسو وحضرت أنا مسرعًا للبحث عنك، أنا لا أدري ما إذا كنت قد أحسنت التصرف أم لا، ربما تكون المكالمات مجرد مزاح وسخرية.

-ولكم تروق لنا السخرية نحن أهل صقليه!

وصل إلى الحظيرة في تمام الخامسة وعندها كان جييجيه ينادي:

-تغيير الحراسة!

تغيير الحراسة يعني أن يغادر المكان كل شاب وشابة عاشقان دايران وأن ينزلوا (حدث مونتابانو نفسه: «بكل ما تعني كلمة ينزلوا») كي يفسحوا المجال لقطيع جييجيه، وهم عاهرات شقروا من الشرق وبلغاريات متنكرات ونيجيريات كخشب الأبنوس ومثليين برازيلين وشواذ مغاربة يسرون في طابور واحد، بالفعل كانوا كمنظمة أمم متحدة للعضو الذكري والمؤخرة والعضو الانثوي.

السيارة الخضراء كانت موجودة وصندوقها مفتوح وحولها ثلاث سيارات شرطة، كانت سيارة فاتسيو بعيدة إلى حد ما، فنزل ثم استقبله جالوتسو:

-لقد وصلنا متأخرين.

كان بينهم وبين رجال الفرقة المسلحة ثمة اتفاق غير مكتوب

يقضي بأن من يصل أولاً إلى مسرح الجريمة يصيح قائلاً: «وصلت للقمّة!»^{٢٨} ويتولى هو القضية، هذا يجنبهم التدخلات والجدل والمخاصمة والمشاحنات، رغم ذلك كان فاتسيو لونه متغير:

-لقد وصلوا أولاً!

-ماذا دهاكم؟ وماذا خسرتم؟ نحن لا نتقاضى أكثر على كل قتيل، ولا نعمل بالقطعة.

إنه تزامن غريب تلك السيارة ذات نفس اللون الأخضر، وُجِدَت بالقرب منها منذ سنة مضت جثة ممتازة سليمة تماماً وقد حيرت تلك القضية مونتابانو كثيراً. قاما بمصافحة الملازم التابع للفرقة العسكرية والذي كان من مدينة برجامو اسمه دونيزي، ثم قال:

-لقد أبلغنا بمكالمة مجهولة.

لذلك أرادوا التحقق من أنه تم العثور على الجثة، لاحظ المأمور أن الميتم متقوقع حول نفسه في صندوق السيارة، فيما يبدو أنه قد أصيب بطلق ناري مرة واحدة ونفذت الطلقة من فمه شاققة شفتاه وأسنانه وخرجت من قفاه مسببةً له ثقب كبير في حجم قبضة اليد، ولم يتم التعرف على ملامح وجهه.

استفسر الملازم بشيء من الإحتقار قائلاً:

-قالو لي أنك تعرف مالك بيت البغاء المفتوح هذا.

فقال مونتابانو بنية واضحة للمراوغة:

-أجل إنه صديقي.

-أتدري أين يمكنني أن أجده؟

-أظن أنه في منزله.

28- كما يقول الفائز في لعبة العسكر واللصوص

-إنه غير متواجد في منزله.

-معذرة، لكن لماذا تريد أن تعرف مكانه مني أنا؟

-لأنك صديقه كما قلت أنت ذلك بنفسك.

-بالفعل هذا صحيح، أيعني هذا أنه يمكنك معرفة مكان أصدقائك
البرجامين وما يفعلونه في هذه اللحظة بالتحديد؟

كانت هناك سيارات تأتي من طريق المقاطعة باستمرار ويسلكو الشوارع
المؤدية إلى الحظيرة وعندما يرون أضواء سارينة سيارات الشرطة يغيرون عصا
ناقل السرعة على وضع الحركة للخلف ويرجعون من حيث أتوا. وصلت إلى
مكان العمل عاهرات الشرق والمثليين جنسيًا البرازيليين والنيجيريّات ومعهم
مرافقة جميلة، لكنهم أيضًا بمجرد أن شموا رائحة عادم السيارات هربوا؛ ربما
كانت تلك الليلة سوداء على أعمال جيجيه.

عاد الملازم إلى القرب من السيارة الخضراء فاستدار مونتابانو
وركب السيارة دون حتى أن يحييه وقال لفاتسيو:

-ابق أنت وجالوتسو هنا وانظروا ماذا يفعلون وماذا يكتشفون
وسأذهب أنا للمكتب.

توقف عند مكتبة ساركوتو، وهي المكتبة الوحيدة في «فيجاتا»
الذي لا زالت تولي اهتمامًا للتعليم أما المكتبتين الأخرتين فلا يبيعا
كتب، بل يبيعا حقائب مدرسية ودفاتر وأقلام، فتذكر أنه قد انتهى
من قراءة رواية مونتابان وأنه ليس لديه رواية جديدة ليقرأها.

-هناك كتاب جديد عن فالكوني وبورسيلينو.

هكذا أخبرته السيدة ساركوتو بمجرد أن رآته يدخل، ولم تفهم بعد أن
مونتابانو يكره قراءة الكتب التي تتحدث عن المافيا والقتلة وضحايا

المافيا، لم تستطع أن تفهم السبب ولم تقتنع، ولماذا إذًا يشتريها؛ فهو لا يقرأ حتى شيئاً من الملخص المطبوع على غلافها. اشترى كتاب للكاتب قونصولو الذي فاز بجائزة أدبية منذ فترة مضت. بعد أن سار بضعة خطوات على الرصيف انزلق الكتاب من تحت إبطه وسقط على الأرض، فأنحنى مونتاالبانو كي يلتقط الكتاب ثم ركب السيارة.

أخبره كاتاريلّا في المكتب أنه لا توجد أخبار جديدة، كانت لدى مونتاالبانو عادة راسخة وهي التوقيع على أي كتاب يشتريه؛ همّ بالتقاط قلم جميل من تلك الأقلام الموجودة على المكتب فوقعت عيناه على العملات المعدنية التي تركها ياكوماتسي: العملة الأولى من النحاس وترجع إلى سنة ١٩٣٤، مرسومًا عليها صورة جانبية للملك وعبرة (فيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا)، وعلى الوجه الآخر للعمله توجد سنبله قمح ومكتوب (٥ س) أي خمسة سنتات؛ العملة الثانية من النحاس أيضًا لكنها أكبر قليلًا من سابقتها، على أحد وجهيها يوجد الوجه المعتاد للملك وكذلك نفس العبارة وعلى الوجه الآخر نحلة تقف فوق زهرة والحرف (س) والرقم (١٠) عشرة سنتات، وهي تعود لسنة ١٩٣٦؛ العملة الثالثة كانت من المعدن لكن من مادة معدنية خفيفة الوزن، على أحد وجهيها كالعادة وجه الملك ونفس العبارة وعلى الوجه الآخر نسر باسطًا جناحيه ومن خلفه رمح الرومان، وعلى هذا الوجه الآخر مكتوب أربعة أشياء: (ل) الذي يعني ليرة واحدة؛ (إيطاليا) والتي تعني إيطاليا؛ (١٩٤٢) وهي سنة سك العملة؛ والرمز (XX) والذي يشير إلى السنة العشرون من العهد الفاشي.

وبينما ينظر مونتاالبانو إلى تلك العملة الأخيرة تذكر ما رآه عندما طأطأ رأسه كي يلتقط الكتاب الذي سقط منه أمام المكتبة؛ فكان قد رأى نافذة عرض المتجر المجاور والتي كانت تعرض بداخلها عملات معدنية قديمة. نهض مونتاالبانو وأخبر كاتاريلّا أنه سيذهب بعيدًا

عن القسم وأنه سيعود في غضون نصف ساعة على الأكثر واتجه نحو المتجر سيراً على الأقدام وكان اسم المتجر «أشياء» وكان يعرض: زهور صحراوية؛ طوابع بريد؛ شمعدانات؛ خواتم؛ بروشات فاخرة؛ عملات؛ وأحجار صلبة، عندما دخل المتجر استقبلته شابة أنيقة ولطيفة بابتسامة، بعد أن تأسف لأنه خذلها، أوضح لها الأمور أنه ما حضر لبيتاع شيئاً؛ بل لأنه قد رأى في نافذة العرض بعض العملات القديمة فأراد أن يعرف ما إذا كان يوجد بالمتجر أو في «فيجاتا» من يفهم في علم المسكوكات القديمة ودراساتها. فقالت الشابة ولا زالت الابتسامة تعلو وجهها، بل أنها كانت سعيدة:

-بالطبع يوجد، إنه جدي.

-أين يمكنني أن أزعه بمقابلتي؟

-لن تزعه على الإطلاق، بل بالعكس سيُسّر لذلك، إنه في الغرفة التي بالداخل، فلتنتظر حتى أخبره بذلك.

لم تستغرق الشابة حتى الزمن اللازم لأن ينظر الأمور إلى مسدس بدون مطرقة خلفية يعود إلى القرن التاسع عشر، وظهرت ثانية:

-فلتسترح سيادتك.

كان مخزن المتجر كمدينة كفر ناحوم^{٢٩} مليئة بأجهزة الجرامافون التي بها بوق وماكينات خياطة أثرية؛ ماكينات كبس؛ لوحات؛ نقوش؛ صحنون للحساء؛ وجليونات. كانت الغرفة عبارة عن مكتبة يوجد بها مخطوطات أثرية مبعثرة، ورزم من كتب مطبوعة مجمعة معاً في جلد رقيق، غطاءات لمصابيح المكتب؛ شمسيات؛ قبعات. وفي وسط الغرفة يوجد مكتب يجلس خلفه رجل عجوز يضيء له مصباح ماركه «ليبرتي» ويمسك العجوز بطابع بريد من خلال ملقاط ويفحصه بعدسة مكبرة.

29- مدينة كنعانية تقع على ساحل بحيرة طبرية شمال فلسطين وتضم كنيسة للروم الارثوذكس ودير للفرنسيسكان وجدران ومدافن أثرية وهو نفس المكان الذي ألقى فيه المسيح موعظة الجبل. (المترجم)

سأل العجوز بغلظة دون حتى أن يرفع عيناه:

-ما الأمر؟

وضع مونتالبانو أمامه الثلاث عملات، فرفع العجوز نظرة من على طابع البريد ونظر نظرة سريعة للعملات وقال:

-لا تساوي شيئاً.

كان هذا العجوز هو الأحد طبعاً من بين كل الشيوخ الذين عرفهم مونتالبانو خلال سير التحقيقات حول موقى كهف الحمل، فحدث مونتالبانو نفسه قائلاً: «كان لابد أن أجمعهم جميعاً في دار مسنين، كان ذلك سيجعل من السهل استجوابهم» ثم قال للعجوز:

-وأنا أعرف أنها لاتساوي شيئاً.

-وماذا تريد أن تعرف إذًا؟

-متى أصبحت تلك العملات غير صالحة للتداول؟

-حأول أن تجتهد أنت في تحديد ذلك.

فخمّن مونتالبانو متردداً:

-عندما أعلن النظام الجمهوري؟

وكان يشعر بأنه طالب غير مستعد للامتحان، ضحك العجوز وكان صوت ضحكته كالضوضاء الصادرة عن احتكاك عبوتين لبن فارغتين ببعضهما.

-هل أخطأت؟

-لقد أخطأت، بل وخطأك جسيم؛ فقد نزلت قوات الأمريكان هنا في الليلة بين التاسع والعاشر من شهر يوليو عام ١٩٤٣، وفي شهر

أكتوبر من نفس العام أصبحت تلك العملات غير صالحة للتداول وتم استبدالها بعملة الـ «إيه إم ليرة» تلك العملة الورقية التي طبعتها حكومة قوات الحلفاء المحتلة (Amgot)) وحيث أن تلك العملة كانت منها ورقة بفئة خمسة ليرة وفئة عشرة ليرة، اختفت السنتات من التعاملات النقدية.

عاد فاتسيو وجالوتسو بعد أن حلّ الظلام فبوبخهم المأمور:

-ويحكم! لقد أتممت المهمة ببطء شديد!

رد فاتسيو:

-نحن؟! ألا تدري ماذا فعل الملازم؟ قبل أن يمس المييت انتظر قدوم القاضي والطبيب باسكوانو وهم من تأخرا في إنجاز المهمة.

-وماذا بعد؟

-لقد توفي المييت اليوم، إنه ميت طازج جداً، لقد قال باسكوانو أنه لم تمر أكثر من ساعة ما بين جريمة القتل والبلاغات. كان المييت يحمل جيبه بطاقة تحديد الهوية: اسمه جوللو بيترو، بالغ من العمر اثنين وأربعون عاماً عيناه زرقتان وشعره أصفر، بشرته محمرة، من مواليد بلدة «ميرفي»؛ قاطن في مدينة «فيلا» في ٣٢ شارع «ماتيوقي»؛ متزوج ولا توجد ملاحظات خاصة عنه.

-ولماذا لما ترجع إلى خانة الحالة الاجتماعية؟

لم يعبأ فاتسيو بذلك الاستفزاز وواصل حديثه معتزلاً بكرامته:

-لقد ذهبت إلى مونتلوزا ورجعت للأرشيف، لقد عاش المدعو جوللو فترة شباب ليس بها شيء مميز: مجرد سرقتين ومشاجرة ثم أصبح سلوكه هادئ أو على الأقل كان يبدو هذا، وكان يتاجر في الحبوب الغذائية.

-بالفعل أنا ممتن لك لأنك أردت أن تقابلني فوراً.

هكذا قال مونتالبانو للناظر الذي فتح له الباب.

-ماذا تقول! لقد أسعدتني أنت بمجيئك.

ثم أدخله واصطحبه إلى صالون المنزل ودعاه للجلوس ثم نادى:

-أنجيلينا!

ظهرت عجوز قليلة الحجم مستغربة من الزيارة الغير متوقعة، وقد كانت لطيفة ومعتنية بنفسها جداً، وترتدي نظارة ذات عدسات سمكة تلمع من خلفها عينان مفعمتان بالحيوية ومنتبھتان. فقال مونتالبانو لنفسه: «إنه دار المسنين»

-اسمح لي أن أقدم لك زوجتي أنجيلينا.

فانحنى مونتالبانو إعجاباً بها؛ فقد كانت حقاً تعجبه السيدات المسنات اللاتي يعتنن بمظهرهن حتى وهن في المنزل:

-معذرة لإزعاجكم في وقت العشاء.

-عن أي إزعاج تتحدث؟! بل بالعكس سيدي المأمور، ألدك أي مشغوليات؟

-لا إطلاقاً.

-لماذا لا تظل معنا لتناول الطعام؟ لدينا طعام مسنين؛ فنحن يجب أن نحفظ بمعدتنا خفيفة لدينا أكلة التنيرومي^٣ وسمك البربوني بالزيت والليمون.

30- تصنع من براعم نبات الكوسة

-حضرتك بذلك تدعينني إلى وليمة.

خرجت السيدة من الصالة وهي مسرورة، وقال الناظر بوجوه له:

-تفضل بالحديث.

-لقد نجحت من تحديد الوقت الذي وقعت فيه جريمة كهف الحمل
المزدوجة.

-حسنًا، ومتى وقعت؟

-لقد وقعت بالتأكيد ما بين بداية عام ١٩٤٣ وشهر أكتوبر من نفس
العام.

-وكيف توصلت لهذا؟

-الأمور بسيطة، بحسب ما قاله المحاسب بورانو فقد بيع الكلب
الفخاري بعد عيد ميلاد المسيح لعام ١٩٤٢ فيمكن افتراض أنه
بعدما انقضى عيد «لابيفانا»^{٣١} من عام ١٩٤٣ أصبحت العملات التي
وجدت في الصحن غير صالحة للتداول في أكتوبر من نفس العام.

توقف لبرهة ثم أضاف:

-وهذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا.

لكنه لم يخبره بهذا الشيء، ظل منتظرًا في صبر أن يرتب بوجوه
أفكاره، ونهض ثم خطا بعض الخطوات في الغرفة ثم تكلم.

-لقد فهمت أيها القائد؛ أنت تريد أن ترمي إلى أن كهف الحمل
كان ملكًا لريتزيتانو في تلك الفترة.

31- عيد بُني على أسطورة شعبية إيطالية بدأت جذورها قبل أنتشار المسيحية في إيطاليا.
وهي مماثلة لأسطورة سانتا كلوز أو بابا نويل. وفي هذا العيد تظهر سيدة عجوز دائمة
الابتسام، اسمها لا بيفانا. يحتفل بهذا العيد ليلة ٦ يناير من كل عام. (المترجم)

-هو ذاك بالضبط، وقد قلت لي أنت أن منذ ذلك الحين فصاعدًا تم إغلاق الكهف بالصخرة؛ لأن عائلة ريتزيتانو كانوا يحتفظوا في داخل الكهف ببضاعة سيبيعونها في السوق السوداء ، ولا بد وأنهم يعرفون بوجود الكهف الآخر الذي وُضع به القتيلان.

فنظر له الناظر متحيرًا:

-لماذا تقول وُضع؟

-لأنهم قد قتلوا في مكان آخر وهذا مؤكد.

-ولكن ما معنى هذا؟ لماذا يوضعان هناك بهذه الطريقة المنظمة، وكأنهما نائمان ومعهما الإبريق والصحن الذي به النقود والكلب؟

-هذا ما أتساءل عنه أنا أيضًا، والشخص الوحيد الذي يمكن أن يخبرنا بشيء عن هذا الأمر هو للو ريتزيتانو صديقك.

دخلت السيدة أنجيلينا:

-الطعام جاهز.

أكلة التنبرومي هي أوراق وبراعم كوسة تزرع بصقليه، تلك الكوسة الطويلة الناعمة ذات اللون الأبيض الممزوج بلون أخضر فاتح. تم إعداد تلك الأكلة بعناية تحولت تلك الأكلة إلى عذوبة ورقّة غمرت مونتالبانو على الفور؛ فقد كان يشعر مع كل قضة بأن معدته يتم تنظيفها وتصبح لامعة، كما رأى بعض الفقراء المتزهدين يفعلون في التلفاز.

فسألت السيدة أنجيلينا:

-ما رأيك به؟

فقال مونتالبانو:

-طعام رشيق.

وعندما تفاجأ العجوزان، إحمر وجهه خجلاً وراح يشرح:

-معذرة، أحياناً أسيئ استخدام الصفات.

سمك البربوني المسلوق والمتبل بالزيت والليمون وبهار البروستد كان في نفس خفة التينيرومي. لم يستأنف الناظر الموضوع الذي طرحه عليه مونتالبانو إلا عند تناول الفاكهة ولكن ليس قبل أن ينهي حديثه عن مشكلة المدرسة وعن الإصلاح الذي قررت الحكومة الجديدة إجراؤه، ومن ناحية أخرى، القرار الذي اتخذته بإلغاء المدرسة الثانوية.

قال الناظر:

-في روسيا في عهد القيصرية كانت هناك مدرسة ثانوية، حتى وإن كانت تأخذ تسمية روسية، عندنا المدرسة الثانوية كانت تسمى «جينتيلي»، في الوقت قام القيصر بإصلاحاته التي وضعت كل مواد الدراسات الإنسانية في المقام الأول. حسناً، لم يجرؤ الشيوعيون في هذا الوقت من أتباع لينين على إلغاء المدرسة الثانوية، لم يجرؤ على هذا إلا ذلك الثري الوصولي نصف المتعلم محدود القدرات، ذاك الوزير الذي يمكنه أن يفكر في مثل هذا الأمر، ما اسمه؟ جواستيللا؟

فقالت السيدة أنجيلينا:

-كلا، فاستيلا.

في الواقع كان اسمه غير هذا وذاك، لكن المأمور امتنع عن تصحيح اسمه.

-كنت رقيق اللو في كل شيء، لكن ليس في المدرسة؛ فهو كان يسبقني في الصفوف الدراسية؛ فعندما كنت أنا في الصف الثالث

الثانوي كان هو قد تخرج. في ليلة دخول قوات الاحتلال تم تدمير منزل للو اللذي كان عند سفح جبل الـ «كراستو»، على حد علمي أن ثمة عاصفة قد هبت ذات مرة وكان للو في تلك الليلة وحيداً في الفيلا وقد أصيب إصابة خطيرة، رآه فلاح بينما كان الجنود الإيطاليين يضعونه في الشاحنة وكان ينزف بشدة. هذا آخر شيء عرفته عن للو ومنذ ذلك الحين لم تصلني أخبار عنه رغم أنني بحثت عنه.

-هل من الممكن أن يكون هناك أناس على قيد الحياة من تلك العائلة؟

-لا أدري.

لاحظ الناظر أن زوجته شردت، وأصبحت عيناها نصف مفتوحتان وزائغتان، فقال لها الناظر:

-أنجيلينا!

انتفضت السيدة العجوز وابتسمت لمونتالبانو:

-معذرة، يقول زوجي دائماً أنني سيدة خيالية لكنه لا يقصد بذلك المدح، بل يقصد بذلك أنني من حين لآخر أذهب مع الخيالات.





الفصل الخامس عشر

بعد تناول العشاء مع بورجو عاد مونتالبانو إلى منزله ولم تكن دقائق الساعة أعلنت العاشرة، كان لا يزال الوقت مبكرًا للذهاب للنوم، كان التلفاز يعرض نقاشات عن المافيا ونقاش آخر عن السياسة الخارجية لإيطاليا ونقاش ثالث عن الوضع الاقتصادي، وندوة عن أوضاع مصحة «مونتلوزا»، ونقاش حول حرية تداول المعلومات، وفيلم وثائقي عن انحراف الأطفال الأحداث في موسكو وفيلم وثائقي آخر عن فرس النهر وفيلم وثائقي ثالث عن زراعة التبغ، كذلك فيلم حرب أمريكي لحرب العصابات تدور أحداثه في شيكاغو في الثلاثينيات، كما كانت تُعرض الإعادة اليومية للبرنامج الذي يظهر فيه ناقد فني سابق يعمل الآن كنائب برلماني ومفكر سياسي يهاجم القضاة وساسة اليسار السياسي والخصوم معتقدًا

أنه سان جست^{٣٢} في حين أنه ينتمي إلى جماعة من باعة السجاد ومعالجين الكآلو والمشعوذين والراقصين العراة الذين يظهرون أكثر منه على الشاشة الصغيرة.

أطفأ التلفاز وذهب ليجلس على كرسي الشرفة بعد أن أشعل الأضواء الخارجية ومعه مجلة كان قد اشترك فيها، وهي ذات طباعة فاخرة وبها مقالات شيقة، يحررها مجموعة شباب من محبي البيئة في المقاطعة، طالع الملخص ولم يجد أي شيء شيق؛ فراح يشاهد الصور والتي غالبًا ما تتناول أحداث جارية خاصة بقصد تسليط الضوء على شيء ما، الأمر الذي أحيانًا تنجح فيه المجلة.

فاجأه صوت جرس الباب؛ قال لنفسه أنه لا ينتظر أحدًا، لم تهر سوى برهة حتى تذكر أن أنا قد اتصلت به بعد الظهر، ولم يستطع أن يرفض اقتراحها بأن تزوره، كان يشعر بأنه مدين لتلك الفتاة لأنه قد استخدمها بنذالة -وقد كان على استعداد أن يعترف بذلك- في القصة التي ألّفها عن تخليص إنجريد من ظلم حماها.

طبعت أنا قُبلة على وجنته وأعطته طردًا:

-لقد أحضرت لك حلوى «البترافرنولا»^{٣٣}.

وهو صنف ينذر وجوده الآن وكان مونتالبانو يحبه كثيرًا، غير أن لا أحد يعرف لماذا عزف صانعي الحلوى عن صنعه.

-لقد ذهبت في عمل في مدينة «ميتيكا» ورأيت تلك الحلوى معروضة في نافذة العرض فاشتريته لأجلك، فلتنتبه لأسنانك.

كلما أصبحت الحلوى أكثر صلابة أصبحت أشهى.

32- لويس أنطوان ليون دي سان جست والمعروف بـ سان جست: ثوري وقائد عسكري وسياسي فرنسي، ولد في أغسطس ١٧٩٧ وتم إعدامه وعمره ٣٦ عامًا. (المترجم)

33- حلوى شديدة الصلابة تصنع من السكر والحليب واللوز. (المترجم)

-ماذا كنت تفعل؟

-لا شيء كنت أقرأ مجلة، تعالي معي إلى الشرفة.

جلسا على المقعد، وواصل مونتالبانو مشاهدة الصور بينما وضعت
أنا رأسها على يديها وراحت تتأمل البحر.

-يال جمال المنظر عندك هنا!

-فعلاً.

-لا يُسمع إلا صوت أمواج البحر.

-صحيح.

-هل أزعجك بكلامي؟

-لا.

فصمتت أنا، ثم تحدثت مرة أخرى بعد قليل:

-سأذهب للداخل لأشاهد التلفاز؛ فأنا أشعر ببرد بسيط.

-حسنًا.

لم يرد المأمور أن يشجعها؛ فقد كان من الواضح أن أنا كانت ترغب
أن تظفر بمتعة لها وحدها؛ وهي أن تؤدي دور رفيقته، وأن تتخيل
نفسها تقضي ليلة معه كالنساء الأخريات.

تحديدًا في الصفحة الأخيرة في المجلة رأى صورة تعرض كهف من
الداخل (كهف فراجاباني) والذي كان في الحقيقة مدافن، مجموعة
من المقابر المسيحية حفرت بداخل خزانات قديمة. كانت الصور
توضح النقد الأدبي لكتاب صدر لتوه لكاثب يدعى أليشيدي
مارفنتانو وعنوانه «الطقوس الجنائزية في مونتيلوزا». أكد الناقد أن

نشر هذه الدراسة النقدية الموثقة بعناية لمارفنتانو جاءت لتجيب عن تساؤلات وتكتسب قيمة علمية كبيرة بسبب براعة التحقيق في موضوع كان محل التأمل منذ قبل التاريخ إلى الحقبة المسيحية البيزنطية.

جلس مونتالبانو يتفكر طويلاً فيما قد انتهى من قراءته لتوه؛ وخطرت له فكرة أن الإبريق والصحن الذي به النقود والكلب هم جزء من طقوس الدفن، لم تخطر بباله تلك الفكرة ولو حتى من بعيد. وقد كان ذلك خطأ؛ فرمما كان يجب عليه أن يبدأ التحقيق إنطلاقاً من تلك النقطة. انتابته حالة استعجال شديد: دخل المنزل وفصل مقبس الهاتف وأخذ معه الجهاز، فسألته أنا التي كانت تشاهد فيلم حرب العصابات:

-ماذا تفعل؟

-سأذهب إلى غرفة النوم كي أقوم ببعض الاتصالات كي لا أزعجك هنا.

طلب رقم قناة «ريتي ليبرا» وطلب التحدث مع صديقه نيكولو زيتو:

-بسرعة يا مونتالبانو ففي خلال ثوان سأكون على الهواء مباشرةً.

-أتعرف شخص يدعى مارفنتانو قد كتب..

-أشيدي؟ نعم أعرفه، ماذا تريد منه؟

-أريد أن أتحدث معه، هل معك رقم هاتفه؟

-هو ليس لديه هاتف، أنت في المنزل؟ سأطلبك أنا وأخبرك.

-أنا بحاجة للتحدث معه خلال اليوم أو غداً.

-سأتصل بك بعد ساعة على أقصى تقدير وسأخبرك بما يجب أن

تفعله.

قام بإطفاء إضاءة الكومودينو، وفي الظلام تمكن أن يتأمل بشكل أفضل في الفكرة التي خطرت له، راح يسترجع صورة كهف الحمل تمامًا كما بدا له عندما دخله لأول مرة واستبعد من الصورة الجثتين وبقي البساط والصحن والإبريق والكلب الفخاري، رسم مثلث بين الثلاث أشياء فنتج مثلث كامل لكنه مقلوب من اتجاه المدخل وفي منتصف المثلث توجد الجثتان، هل هناك معنى لهذا؟ يجب أيضًا دراسة اتجاه المثلث.

أخذ يفكر ويتباعد عن الموضوع ويتخيل ثم غلبه النوم في النهاية، بعد فترة من الوقت لم يعرف مدتها تحديدًا، أيقظه جرس الهاتف فأجاب بصوت مبحوح:

-هل أنت نائم؟

-نعم، غفوت.

-أنت تنام وأنا أرهق نفسي لأجلك، على كل حال، ألسيدي في انتظارك غدًا الساعة الخامسة والنصف عصرًا، إنه يسكن في بلدة «جاللوتا».

«جاللوتا» هي بلدة تبعد بضعة كيلومترات عن «مونتلوزا»، وهي عبارة عن بيوت قليلة للفلاحين، معروفة بعدم إمكانية الوصول إليها في الشتاء عندما تنحدر المياه بقوة.

-إعطني العنوان.

-عن أي عنوان تتحدث؟! ستجده أول منزل على اليسار من اتجاه القادم من «مونتلوزا»: هي فيلا كبيرة آيلة للسقوط، ربما يجد فيها مخرج أفلام رعب ضالته، لا يمكن أن تخطئ في هذا العنوان.

غطّ في النوم مرة أخرى بمجرد أن وضعت السماعة، استيقظ فجأة حيث أن شيئاً ما كان يتحرك على صدره، لقد كانت أنا الذي كان قد نسي أمرها تماماً، كانت تتمدد على الفراش إلى جواره وراحت تفك أزرار قميصه وتقبّل كل جزء من جسده يمكنها الوصول إليه، عندما وصلت إلى سُرته رفعت رأسها وأدخلت يدها تحت قميصها لتداعب نهدها، ثم ألصقت فمها بفم مونتالبانو، وحيث أن الرجل لم يبد أي ردة فعل إزاء قبّلتها الحارة، أبعدت أنا يديها عن صدره الذي كانت تداعبه أيضاً.

نوى مونتالبانو الحديث:

-اسمعي يا أنا، لا داعي لهذا فلن يحدث شيئاً.

فانفتضت أنا من على الفراش، وانزوت في دورة المياه، ولم يتحرك مونتالبانو حتى عندما سمعها تنتحب ببكاء طفولي، كطفله حُرمت من حلوى أو لعبة، رَأها في ظلها على باب دورة المياه الذي تركته مفتوحاً، وقالت له قبل أن تنصرف:

-إن قلب الحيوان المتوحش أرق من قلبك.

طار النوم من عيني مونتالبانو؛ فقد ظل على قدميه حتى الرابعة فجراً يقلب الأوراق، ولم يتوصل لأي شيء. وصل إلى مكتبه غاضباً متعكر المزاج؛ فقد كانت قصة أنا تثقل كاهله، وكان يشعر بالندم لأنه عاملها بهذا الشكل، ما زاد على ذلك أنه ساوره شك في الصباح: هل هو متأكد إذا كانت إنجريد في مكان أنا، أنه سيتصرف بنفس الطريقة.

كان ممي أوجيلو يقف على الباب وفيما يبدو أنه منفعل بعض الشيء:

-أريد أن أتحدث إليك بشكل عاجل.

-ماذا تريد؟

-أريد أن أعلمك بتطورات التحقيق.

-أي تحقيق؟

-حسنًا، لقد فهمت، سأتيك في وقت لاحق.

-لا، ابق مكانك الآن واحك لي عن أي تحقيق لعين تحدث.

-كيف لا تعرف؟! التحقيق عن تجارة السلاح.

-وفي رأيك هل أسندت لك تلك المهمة؟

-في رأيي؟! لقد حدثتني عن هذا، ألا تذكر؟ لقد فهمت الأمر ضمنيًا.

-ممي، الشيء الوحيد الذي يفهم ضمنيًا هو أنك بالفعل ابن عاهرة، ولكي تحفظ كرامة أمك فلتوضح ما تقول.

-إدًا فلنعمل الآتي: أخبرك أنا بما قد فعلت ثم تقرر ما إذا كان ينبغي أن أواصل التحقيق أم لا.

-هيا أخبرني إدًا.

-أولًا لقت فكرت في أنه يجب ألا يغيب إنجراسيا عن أعيننا لحظة واحدة؛ لذلك عينت اثنين من رجالنا لمراقبته ليل نهار، فلا يستطيع حتى أن يذهب ليتبول دون أن أعرف.

-من رجالنا؟ أجعلت رجالنا بالقرب منه؟ ألا تعرف أنه يعرف كل شيء عن رجالنا حتى عدد شعر مؤخراتهم؟!

-أنا لست بهذا الغباء؛ ليسو من رجالنا في «فيجاتا»، أقصد من شرطة بلدة «راجونا»، والذين قد نقلهم رئيس المباحث الذي رجعت إليه قبل أن أفعل ذلك.

نظر إليه مونتالبانو بإعجاب:

-أرجعت إلى رئيس الباحث بالفعل؟ أحسنت يا ممي، لكم استطعت أن توسع دائرة علاقاتك بشكل جيد!

لم يرد أوجيلو بنفس النبوة، بل فضل أن يواصل شرحه:

-هناك أيضًا مكالمة هاتفية ربما تعني شيئًا ما، الورقة التي دونت عليها نص المكالمة في مكتبي، سأذهب لأحضرها.

-ألا تحفظها بذاكرتك؟

-بلى، ولكن عندما تسمعها أنت سيمكنك أن تكتشف..

-مم، أنت الآن قد اكتشفت كل ما يمكن اكتشافه، لا تضيع وقتي وأخبرني.

-حسنًا: قام إنجراسيا بالاتصال من المتجر بشركة برانكاتو في كاتانيا وطلب أن يتحدث إلى برانكاتو شخصيًا، عندئذ تزمز إنجراسيا من الأخطاء التي وقعت خلال نقل الشحنة الأخيرة وقال أنه لا يصح أن تصل الشاحنة مبكرًا جدًا بهذا الشكل؛ حيث أن هذا قد تسبب له في مشاكل كثيرة، وطلب مقابلته لبحث مسألة وضع نظام جديد أكثر أمنًا لشحن البضائع، كان أقل ما يقال عن إجابة برانكاتو في هذا الشأن أنها إجابته مذهلة: فقد رفع صوته وسأل إنجراسيا غاضبًا كيف له أن يجرؤ ويتصل به، وعندما سأل إنجراسيا عن توضيح ما يقول، قال له برانكاتو أنه مفلس وأن البنوك قد أوصته بعدم التعامل معه.

-وماذا كانت ردة فعل إنجراسيا.

-لاشيء، لم يحرك ساكنًا، وأغلق خط الهاتف دون حتى أن يلقي التحية.

-هل فهمت ماذا تعني هذه المكالمة؟

-بالطبع، أن إنجراسيا يستنجد من قاموا بنهبه.

-إبق على مقربة من إنجلترا.يا.

-قلت لك أنني فعلت ذلك بالفعل.

ثم صمتا لفترة وجيزة

-ماذا أفعل؟ هل أستمّر في تولي التحقيق؟

لم يجبه مونتالبانو، فعلق أوجيلو قائلاً:

-لكم أنت مأكراً.

...

-سالفو؟ هل أنت بمفردك في المكتب؟ أيمكنني التحدث بحرية؟

-أجل، من أي مكان تحدثيني؟

-من منزلي، أنا طريحة الفراش مصابة بنوبة حمى.

-أنا آسف لسماع ذلك.

-كلا، ليس عليك أن تتأسف إنها مجرد حمى النمو.

-لم أفهم، ماذا تقصدين؟

-إنها حمى تصيب الأطفال والرُّضع وتستمر ليومين أو ثلاثة بدرجة حرارة تسعة وثلاثون أو أربعون، لكن لا داعي للقلق فهو أمر طبيعي؛ فهي حمى النمو، عندما تمر تلك الحمى ينمو الأطفال بضعة سنتيمترات وأنا على يقين أنه عندما أشفى أنا أيضاً من تلك الحمى سأهمو، أقصد أن سينمو تفكيري وليس جسدي، أود أن أقول لك أن أنوثتي لم تهان أبداً كما هنتني أنت.

-أنا...

-دعني كي أنهى حديثي، أنا بالفعل مجروحة، أنت قذر وشرير وأنا لا أستحق منك هذا.

-أنا، تعقلي، إن ما حدث الليلة ما هو إلا لمصلحتك..

أغلقت أنا خط الهاتف فحتى لو حاولت إفهامه بمائة طريقة أن ما حدث لا يمثل مشكلة كبيرة، فقد كان مونتايبانو يفهم أن الفتاة الآن تعاني آلام كأنها كلبة، وتشعر بأنها أخط من خنزير؛ لأن على الأقل لحم الخنزير يؤكل.

وجد الفيلا أمامه في مدخل بلدة «جوللوتا»، غير أنه رأى إستحالة أن يعيش أحدًا في تلك الحطام، رأى بوضوح نصف سقف به فتحة كبيرة في الطابق الثالث، لابد وأن الأمطار تدخل منها، كان يكفي القليل من الرياح لتحطيف دفعة النافذة التي لازالت متماسكة بأعجوبة، ظهرت بعض الثغرات بحجم قبضة اليد في الجدار في الجزء العلوي من الواجهة فيما بدا الطابق الثاني والطابق الأول والطابق الأرضي أفضل حالًا. كان الملاط المغلف للمنزل قد اختفى منذ سنوات وجميع النوافذ محطمة ومتقشرة لكنها كانت على الأقل تغلق وإن كانت غير معوجة، توجد بوابة حديدية نصف مفتوحة، تم فتحها بالقوة ومائلة إلى الخارج منذ فترة غير معلومة وهي على هذا الوضع، كذلك توجد حشائش برية وطمى. كانت الحديقة عبارة عن ركام عشوائي من أشجار ملتوية وشجيرات كثيفة، تتشابك بقوة، واصل سيرة في الممر فوق حجارة متباعدة، ثم توقف أمام الباب الذي قد فقد لونه. بدأ الظلام يحل؛ فتغيير التوقيت من الصيفي إلى الشتوي في الواقع يقصّر عدد ساعات النهار. قام بدق الجرس أو بمعنى أصح قام بعصره لأنه لم يسمع أي صوت ولو من بعيد، حاول مرة أخرى قبل أن يدرك أن الجرس لا يعمل منذ عصر ما قبل اكتشاف الكهرباء، فطرق الباب مستخدمًا مطرقة الباب التي على

شكل رأس حصان، أخيراً عند الطريقة الثالثة سمع وقع خطوات متناقلة، فُتِح الباب دون صوت قفل أو كالون فقط بصوت كأنه أنين روح في المظهر^{٣٤}.

-لقد كان مفتوحاً، يكفي أن تدفعه وتدخل وتناديني.

كان من يتحدث عبارة عن هيكل عظمي، لم ير مونتالبانو في حياته إنساناً في مثل تيبس هذا الرجل، أو بالأحرى قد رأى مثله ممن على فراش الموت وقد تيبسوا وجفوا بفعل المرض، غير أن هذا الرجل كان لا يزال واقفاً على قدميه -قدمين مقوستين- وفيما يبدو أنه حيّ، كان يرتدي لباس الرهبان الذي تحول لونه من الأسود إلى أن اللون المائل للأخضر، وياقته الغليظة التي كانت بيضاء أصبحت ذات لون رمادي قاتم، في قدميه حذاء ممسمر كحذاء الفلاحين الذي لم يعد موجود مثله، الرجل أصلع تماماً، وجهه كجمجمة وضعت عليها نظارة مذهبة بها عدسات سميقة جداً يتشتت النظر بها، حدث مونتالبانو نفسه بأن الميطان اللذان كانا في الكهف -وقد ماتا منذ خمسين عاماً- على جسدهما لحم أكثر من هذا الراهب، فلا حاجة للتأكيد على أنه عجوزاً جداً.

دعاه للدخول بحفاوة واصطحبه إلى صالة فسيحة كانت مكدسة عن آخرها بالكتب ليس فقط على الأرفف، بل على الأرض أيضاً مكونة أكوام والتي أحياناً ما تلامس السقف المرتفع وقد كانت متماسكة في توازن غريب، لم يكن هناك ثمة ضوء يدخل من النوافذ فقد كانت الكتب المكدسة فوق أعمدة الدرابزين تغطي الزجاج بالكامل، كان الأثاث الموجود هو: مكتب وكرسي ومقعد طويل، بدا لمونتالبانو أن ضوء المكتب هو بالفعل ضوء لمصباح جازولين.

قام الراهب العجوز بإزاحة الكتب من على المقعد وجعل مونتالبانو يستريح عليه.

34- في الديانة المسيحية مكان لتكفير الذنوب قبل دخول الفردوس (المترجم)

-حيث أنه لايمكنني تخمين كيف يمكنني مساعدتك فلتفضل بالحديث.

-كما أخبروك، أنا مأمور شرطة و..

-لا لم يخبروني بشيء وأنا لم أسأل، لقد جاءني شخص من البلدة في ساعة متأخرة من ليلة أمس وأخبرني بأن شخصاً ما من «فيجاتا» يريد مقابلتي فأجبته بأن يتفضل بالمرجئ في الخامسة والنصف. إذا كنت مأمور شرطة فقد أخطأت مجيئك إليّ، كما أنك تضيع وقتك.

-ولماذا سأضيع وقتي؟

-لأنني لم أظأ بقدمي خارج هذا المنزل منذ ما لايقل عن ثلاثين عاماً، ولماذا أخرج؟ فقد اختفت الوجوه القديمة اختفت والوجوه الجديدة لا ترضيني، هناك من يجلب لي متطلباتي كل يوم كما أنني لا أشرب إلا اللبن وأشرب حساء الدجاج مرة في الأسبوع.

-ربما قد علمت من التلفاز أن..

لم يلبث أن بدأ في نطق تلك العبارة حتى قاطعه؛ فقد بدت له كلمة تلفاز غريبة.

-في هذا المنزل لا يوجد ضوء كهربي.

-حسنًا ربما قرأت في الصحف أن..

-أنا لا أبتاع الصحف.

لماذا يواصل الحديث بالطريقة الخاطئة؟ أخذ مونتاالبانو شهيقاً ومعه شيئاً من التأهب وحكى له كل شيء، بداية من تجارة الأسلحة حتى القتلان في كهف الحمل .

-تمهل كي أشعل الضوء كي نتحدث أفضل.

فتش بين أوراق على المنضدة فوجد علبة أعواد ثقاب تستعمل في المطبخ فأشعل واحدًا منها بيد مرتعشة، فتجمد مونتالبانو وحدث نفسه قائلاً: «إذا سقط منه عود الثقاب سنشوى في ثلاث ثوان». غير أن العملية تمت بنجاح وأصبح الحال أسوأ؛ حيث أن المصباح أصدر ضوءًا ضعيفًا على نصف الطاولة، بينما غرق الجانب الذي يجلس فيه العجوز في ظلام أكثر شدة. شاهد مونتالبانو بدهشة الراهب وهو يمد يده ويحكم قبضته على زجاجة صغيرة بغطاء غريب، وكان على المنضدة ثلاثة زجاجات أخرى مثلها: اثنين فارغتين وواحدة ممتلئة إلى نصفها بسائل أبيض، لم تكن زجاجات بل كانت (بيرونات) كل واحدة منها مزودة برضاعات، وانفعل بشكل شديد؛ فقد بدأ العجوز يرضع.

-معدرة؟ فليس لدي أسنان.

-ولماذا لا تشرب الحليب في سلطانية أو من فنجان، أو في كوب كما هو معتاد؟

-لأنني هكذا أتلذذ أكثر، مثل ما أنك تدخن من الغليون.

قرر مونتالبانو أن ينصرف بأسرع وقت ممكن؛ فنهض وأخرج من جيبه الصور التي التقطها ياكوماتسي وأعطاها للراهب.

-هل يمكن أن يكون هذا طقس من طقوس الدفن؟

نظر العجوز إلى الصور متحمسًا وتأوه.

-ماذا كان بداخل الصحن؟

-عملات معدنية من الأربعينيات.

-والإبريق؟

-لا شيء، لم يوجد به أثر لشيء؛ لا بد وأنه كان يحتوي على مياه فقط.

ظل العجوز لبعض الوقت يرضع ويتأمل، فعاد مونتالبانو ليجلس مرة أخرى، ثم قال الراهب وهو يضع الصور على المنضدة:
-ليس لها معنى.



الفصل السادس عشر

كان مونتالبانو في قمة ضيقه؛ فتحت وطأة أسئلة القس، شعر أن رأسه مشوشة، وما زاد على ذلك أن في كل مرة كان لا يستطيع الرد فيها على القس، يتأوه بشكل غريب، ويتحجج لأخذ رشفة ذات صوت أعلى من سابقتها، ثم التقط البرونة الثانية.

-في أي اتجاه كانت رؤوس القتيلان موجهة؟

-أكان الإبريق مصنوع من فخار عادي جدًا أم من مادة أخرى؟

-كم كانت تبلغ النقود داخل الصحن؟

-كم يبعد بالتحديد الإبريق والصحن والكلب الفخاري عن الجثتين؟

وأخيرًا ختم الاستجواب بقوله: «كل هذا ليس له معنى»

فأكدت نتيجة الاستجواب ماكان قد قاله القس لتوه.أخفى المأمور
ارتياحه عندما أدرك أن بإمكانه النهوض وإلقاء التحية والإنصراف.

-انتظر، لما العجلة؟

فاستسلم مونتاالبانو وجلس.

-صحيح أنه ليس طقس جنائزي، ولكن ربما يكون شيئاً آخر.

فجأة نفخ المأمور عن نفسه الإرهاق والإحباط وعاد إليه كامل
صفائه الذهني، فمارفانتانو ذو عقل لمّاح:

-أخبرني، سأكون ممتناً بأي رأي.

-هل قرأت حضرتك لأميرتو إيكو؟

بدأ مونتاالبانو يتصبّب عرفاً، وقال في نفسه: «يا إلهي! الآن يختبرني في
الأدب» ثم قال له:

-لقد قرأت له روايته الأولى وكتابي يومياته الصغيرين اللذان بديا
لي..

-أما أنا فلا؛ فأنا لا أعرف الروايات، كنت أقصد كتاب «منهج
السيمائية العامة» قد تفيدك بعض الاستشهادات الموجودة به في
هذا الصدد.

-أنا آسف لم أقرأه.

-ألم تقرأ إذاً «سيمائية كرسيفا»؟

فقال مونتاالبانو الذي بدأ يغضب:

-لا، ولا أريد قراءته.

وساوره شك أن العجوز يخدعة، عدئُ استسلم الشيدي مارفتانو وقال:

-حسنًا، سأضرب لك مثلًا بسيطًا.

فقال مونتاالبانو في نفسه: «سيكون إذًا في مستوى ثقافتني».

-إذًا حيث أنك مأمور إذا وجدت شخصًا قُتل بطلق ناري وقد وضعوا في فمه حصى، فماذا تظن به؟

فقال مونتاالبانو مصممًا على الانتقام:

-تدري حضرت أن تلك أمور قديمة، فهم الآن يقتلون دون إعطاء تفسيرات.

-حسنًا، لهذا الحصى الموجود في الفم تفسير عندك إذًا.

-بالطبع.

-وماذا يعني؟

-يعني هذا أن القتيل قد تكلم كثيرًا، وقال أشياء كان يجب ألا يقولها، وأنه قام بالتجسس.

-بالضبط، سيادتك قد فهمت التفسير لأنك تعرف الشفرة الخاصة بالتعبير في هذه الحالة الرمزية، لكنك إذا كنت تجهل الشفرة ماذا كنت ستفهم؟ لاشيء، ستري أنه مجرد قتيل مسكين تم وضع حصًا في فمه لسبب (غير معلوم).

فقال المأمور:

-بدأت أفهم.

-نعود إذًا لموضوعنا: شخص ما قتل شابين لسبب لا نعرفه نحن، كان يمكنه أن يخفي الجثتين بطرق عديدة: في البحر؛ تحت الأرض؛ تحت الرمال، غير أنه لم يفعل ذلك ووضعهما داخل كهف، ليس هذا فقط بل وضع إلى جوارهما صحن وإبريق وكلب فخاري، فماذا أراد بفعلته تلك؟

فأجاب مونتاالبانو بصوت منخفض:

-لقد أراد إرسال بيان ورسالة.

فختم الراهب قوله:

-صحيح إنها رسالة لكنك لم تتمكن من قراءتها لأن الشفرة ليست معك.

-لقد جعلتني أفكر، لكن لا بد وأن تلك الرسالة موجهة لأحد ما، وبالطبع ليست موجهة إلينا نحن بعد الحادثة بخمسين عامًا.

-ولما لا؟

فكر مونتاالبانو قليلاً ثم نهض:

-سأنصرف؛ فلا أريد أن آخذ المزيد من وقتك، ما قلته لي كان في غاية الأهمية.

-أود أن أفيدك أكثر من هذا.

-كيف؟

-لقد قلت لي منذ قليل أنهم يقتلون هذه الأيام دون إعطاء تفسيرات، لكن التفسيرات موجودة دائماً ودائماً ما تُعطى، وإلا فلن تستطيع القيام بعملك، كل ما في الأمر أن الشفرات قد تعددت وأصبحت مختلفة.

-أشكر.

...

تناولوا سمك الأنشوجة اللازعة، الذي أعدته السيدة إليزا زوجة رئيس المباحث، فقد أستطاعت أن تعد الطعام بمهارة وحرفية، يكمن سر النجاح في معرفة الوقت المحدد بالثانية الذي يجب أن تظل فيه الصينية بداخل الفرن. وبعد العشاء جلست السيدة وحيدة في الصالة لمشاهدة التلفاز بعد أن وضعت على مكتب غرفة زوجها زجاجة من ويسكي «تشيفاز» وأخرى لويسكي «أمارو» وكأسين.

على مائدة الطعام تحدّث مونتالبانو بحماس عن ألسيدي مارافنتانو وعن طريقة الفريدة في الحياة وعن ثقافته وعن ذكاؤه، فيما أبدى رئيس المباحث شيئاً من الفضول مجاملةً للضيف أكثر منه إهتماماً حقيقياً.

بمجرد أن أصبحا بمفردهما بادر رئيس المباحث بالحديث:

-أنصت يا مونتالبانو، أنا أعي جيداً ما قد ينتابك من شغف بسبب العثور على القتيلين في الكهف، اسمحلي: من معرفتي لك منذ فترة طويلة، لم أكن أتوقع أن تجذبك تلك القضية لمجرد ما ظهر من دلالات غير مفهومة، كما أنك في النهاية وإن وجدت تفسير لها سيتكتشف أنه لا فائدة لهذا على الإطلاق مما قد يحبطك بشدة، ومعدرة هذا لا يليق بك.

-وكيف أنه عديم الفائدة؟

-بل عديم الفائدة، اسمحلي أسألك: إن القاتل -أوفلنكن كرماء ونقول القتل- حيث أنه قد مر ما يزيد عن الخمسون عاماً، فإما أن يكون قد مات أو أن يكون قد تجاوزوا السبعون عاماً، أتتفق معي؟

فاعترف بالمأمور على مضض:

-أجل.

-إذاً معذرة لما سأقوله؛ فهو ليس من أسلوبى في الحديث، أنت لا تقوم بالتحقيق بل أنت بهذا الشكل تنهك تفكيرك وتضيع عقلك.

إغتم مونتالبانو ولم تكن لديه الرغبة للكلام وليس لديه رد.

-لقد كان بإمكانى أن أسند إليك هذا الأمر كنوع من التدريب إذا كنت لا أخشى أن ينتهى بك الحال أن تستهلك فيه خلاصة تفكيرك بغض النظر عن التحقيقات التي تقوم بها بخصوصية أفكارك ومهارتك، فثار المأمور:

-كلا، هذا ليس صحيح!

-بل صحيح، لاحظ أن ما أقوله لك ليس أمر؛ نحن نتجاذب أطراف الحديث في منزلي كالأصدقاء. لماذا أوكلت قضية تجارة السلاح وهي في غاية السهولة إلى نائبك وهو شرطي جدير بها جداً، لكنه بالطبع ليس في مستواك؟

-أنا لم أوكل إليه شيئاً، بل هو من..

-لا تتصرف كالأطفال يا مونتالبانو، لقد ألقيت عليه جزء كبير من التحقيق لأنك تعرف جيداً أنه لايمكنك أن تتولى التحقيق بالكامل، وثلاثة أرباع عقلك مشغول بالقضية الأخرى، أخبرني بصراحة إذا كنت مخطئ.

بعد توقف لبرهة، قال مونتالبانو بصراحة:

-لا لم تخطئ.

-إذاً فلنغلق هذا الموضوع وننتقل لموضوع آخر: لماذا لا تريد أن أرقبك؟

-سيادتك لا زلت مُصرّاً على الاستمرار في مضايقتي.

خرج المأمور سعيدًا من بيت رئيس المباحث سواء بسبب الأنشوجة اللازمة، أو بسبب أنه تمكن من الحصول على تأجيل لمقترح الترقية، كانت الأسباب التي قدمها غير مقنعة، لكن رئيسه تكرم وتظاهر بأنه يصدقها، فهل يجوز أن يخبره بأن مجرد ذكر فكرة النقل أو تغيير عاداته كانت كفيلة بأن تصبه بالحمى؟

كان الوقت لا يزال مبكرًا ولم تزل هناك ساعتين قبل مواعده مع جيجه؛ فمر على قناة «ريتي ليبرا» فقد كان يريد معرفة المزيد عن الشيدي مارافتانو. قال نيكولو زيتو:

-شيء عجيب أليس كذلك؟ هل كان يشرح وهو يرضع الحليب من البرونة؟

-ولما لا يشرب الحليب من البرونة؟

-لقد كان كل هذا غير حقيقي؛ إنه يمثل.

-ماذا تقول؟! إنه بلا أسنان.

-ألا تعرف أنه قد تم اختراع طاقم الأسنان منذ أمد طويل؟ إن لديه طاقم أسنان ويستعمله بشكل ممتاز، يقولون أنه أحيانًا يلتهم ربع عجل وماعز صغير مشوي، عندما يكون بمفرده.

-لكن لماذا فعل هذا؟

-لأنه ممثل بالفطرة، وكوميديان إذا أردت. -ألم نكن على يقين من أنه راهب؟

-لقد اعتزل الرهبنة.

-وهل أَلَّفَ الأمور التي أخبرني بها أم أنها حقيقية؟

-بإمكانك الثقة به، إنه ذو معرفة غير محدودة، عندما يخبرك بشيء فهو أفضل من الإنجيل في ذلك، أتعرف أنه منذ ما يقرب من عشر

سنوات أطلق النار على شخص ما؟

-حقاً؟!

-أجل سيدي، دخل لص صبي ليلاً إلى الطابق الأرضي من المنزل، واصطدم بكومة من الكتب وأوقعها محدثاً بذلك ضجة كبيرة، استيقظ مارافنتانو الذي كان نائماً فوقها، نزل وأطلق عليه النار من بندقية أمامية التعمير تشبه مدفع للصيد، أضجت القذيفة مضاجع نصف سكان البلدة، وأسفرت عن: إصابة ساق اللص وتدمير قرابة العشرة كتب، أما هو فقد كسرت كتفه حيث أن ردة فعل السلاح كانت هائلة، غير أن اللص يؤكد أنه لم يدخل تلك الفيلا بغرض السرقة بل لأن الراهب نفسه هو من دعاه للحضور، ولكن فجأة وبدون سبب مقنع أطلق عليه النار، وأنا أصدقه.

-تصدق من؟

-أصدق اللص المزعوم.

-ولكن لماذا أطلق عليه النار؟

-أتعرف ماذا خطر ببال أليشيدي مارافنتانو؟ ربما أراد أن يجرب ما إذا كانت البندقية لازالت تعمل أم لا، والإحتمال الأكبر هو أنه أراد أداء مشهد سينمائي.

-اسمع، الآن أنا سأكشف اللغز، أليك كتاب «منهج السيميائية» لأمبيرتو إيكو.

-أنا؟! هل أنت مجنون؟

كي يأخذ السيارة التي كان قد أوقفها في موقف قناة «ريتي ليبرا»، امتصت ملابسه كمية من المياه؛ فقد هطلت أمطاراً بشكل مفاجئ، قطرات رقيقة لكنها غزيرة. وصل إلى المنزل وكان لازال هناك متسع

من الوقت قبل الموعد، قام بتغيير ملابسه ثم جلس على المقعد المواجه للتلفاز، لكنه لم يلبث أن قام ليدخل مكتبه ويأخذ بطاقة بريدية مصورة كانت قد وصلت إليه في الصباح.

إنها من ليفيا، كما أخبرته هاتفياً لقد ذهبت لمدة حوالي عشرة أيام إلى ابنة عمها في ميلانو، على الجزء اللامع للبطاقة طُبعت صورة كاتدرائية ميلانو المعروفة، كان يوجد على الصورة رزاز لامع على منتصف الصورة، مسحها مونتالبانو بطرف سبابته، كانت القطرات رطبة جداً ولزجة بعض الشيء، فدقق النظر على المكتب وجد السكاتادرتزو -وهو حلزون ضخم لونه بني غامق- تزحف على غلاف كتاب القنصولو، لم يتردد مونتالبانو؛ فقد كان الاشمئزاز المتزايد الذي شعر به في الحلم قوياً جداً، فأمسك برواية لمونتالبان انتهت من قراءتها وضرب بها بقوة على كتاب القنصولو، فسحق حلزون السكاتادرتزو بعد أن أطبق عليه الكتابين وأصدر صوتاً تقزز منه مومنتالبانو، ثم ذهب ليلقى بالكتابين في صندوق القمامة، لكي يبيعهم في اليوم التالي.

جيجيه لم يكن موجود، لكن المأمور كان يعرف أنه لن ينتظر طويلاً فصديقة ليس من عادته أن يخلف مواعده، لقد نجا من الأمطار فقد توقفت، لكن لازال موج البحر هائج جداً، كان لا زالت هناك برك واسعة على الشاطئ، وهناك رائحة نفاذة لخشب مبتل تنبعث من الرمال. قام بإشعال لفافة تبغ، وفي ضوء القمر الخافت لاحظ ظهور مفاجئ لشكل أسود: سيارة تقترب ببطء شديد ومصابيحها مطفأة، قادمة من الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي قدم منه هو، وهو نفس الاتجاه الذي من المفترض أن يأتي منه جيجيه، أخذ حذره، وقام فتح درج لوحة التحكم بالسيارة والتقط المسدس ووضع الطلقة بالماسورة وأغلق باب السيارة جزئياً بحيث يكون مستعداً للقفز خارجها، عندما أصبحت السيارة الأخرى قاب قوسين أو أدنى منه، أشعل مصابيح السيارة فجأة، وقد كانت سيارة جيجيه لم يكن هناك شك في هذا،

لكنه من الوارد جدًا أن يكون من يقودها ليس جيغيه.

سمع صياح من السيارة الأخرى:

-أطفأ الأنوار!

كان بالتأكيد صوت جيغيه؛ فنفذ المأمور كلامه، تحدثا وهما متجاورين
كلًا في سيارته عبر النوافذ بعد أن أخفضا زجاج النافذتين، قال
مونتالبانو غاضبًا:

-أي حماقة تفعل؟! كنت على وشك إطلاق النار عليك.

-أردت أن أرى ما إذا قد جاءوا عندك أم لا.

-ومن عساه أن يأتي إليّ؟

-سأقول لك الآن: لقد وصلت هنا منذ نصف ساعة واختبأت خلف
حاجز «بونظاروسا».

-تعال إلى هنا.

نزل جيغيه وركب سيارة مونتالبانو، كاد أن يلتف حول نفسه
أمامه.

-أتشعر بالبرد؟

-لا، لكني رغم ذلك أرتعش.

كانت تنبعث منه رائحة فزع وخوف، حيث أن مونتالبانو يعرف
بحكم الخبرة أن للخوف رائحة خاصة وطعم حامضي، ولون أخضر
مائل للصفرة.

-أتعرف الشخص الذي قتلوه؟

-لقد قتلوا الكثير، عن أي شخص تتحدث؟

-عن بترو جوللو، الذي حملو جثته إلى حظيرة الدعارة.

-أكان من زبائنك؟

-لو كان زبوناً لعرفته، إن هذا هو رجل طانو اليوناني، إنه المحصل الخاص به، وهو نفس الرجل الذي أخبرني بأن طانو يريد مقابلتك.

-وما الذي يدهشك يا جيجه؟ إنها القصة المعتادة: ما تغلب به إلعاب به، هذا نظام نستخدمه حتى نحن في السياسة، يتم حالياً تسليم كل الأعمال التي كان يتولاها طانو؛ لذلك تتم تصفية كل أملاكه، وأنت لم تكن شريكه ولا موظف عنده، فمما الخوف إذا؟

فقال جيجه بشكل قاطع:

-لا، ليست الأمور على هذا النحو، لقد أخبروني وأنا في مدينة «تراباني».

-وكيف هي الأمور؟

-يقولون أنه كان هناك ثمة اتفاق.

-اتفاق؟

-أجل يا سيدي؛ اتفاق بينك وبين طانو، يقولون أن تبادل إطلاق النار ما كان إلا اتفاق وخداع ومسرحية، وهم مقتنعون أنني مشترك أيضاً في تأليف تلك المسرحية الصغيرة وبترو جوللو وشخص آخر والذي من المؤكد أنهم سيقتلونه في الأيام القادمة.

تذكر مونتالبانو المكاملة التي تلقاها بعد المؤتمر الصحفي، عندما دعاه صوت مجهول بـ«الممثل المغفل الكاذب». تابع جيجه حديثه:

-لقد شعروا بالإهانة، لم يتحملوا أن تقوم أنت وطانو بوطاً كرامتهم؛ فقد جعلتوهم يبدون في صورة الأغبياء، وما زاد على ذلك العثور على الأسلحة. والآن قل لي ماذا يجب أن أفعل.

-هل أنت متأكد من أنهم يضعونك أيضاً في مخططهم؟

-أجزم بهذا، لأنهم قد حملو لي جثة جوللو وتحديدًا في بيت البغاء وهو ملك لي؟ هل من أمر أوضح من هذا؟!

تفكر مونتالبانو في مارافنتانو وفي حديثه عن الشفريات.

وقع شيء كأنه انكشاف لذلك الظلام الدامس، أو وميض لمدة ثانية يُرى بطرف العين، ما حدث أنه قبل اندلاع اطلاق نار كثيف بلحظة، استجاب جسم مونتالبانو لأوامر عاجلة قادمة من عقله: إنحنى حتى منتصف جسده وفتح باب السيارة بيده اليسرى وقفز إلى خارجها بينما كانت الطلقات تدوي من حوله، تهشم زجاج السيارة، وتفتقت من السيارة قطع معدنية، وأحالت ومضات سريعة جدًا الظلام إلى الحمرة.

ظل مونتالبانو بلا حراك منحصراً بين سيارته وسيارة جيجه، عندئذ فقط أدرك أن المسدس بيده، لقد وضعه على لوحة التحكم عندما دخل جيجه السيارة، لابد وأنه قد أمسكه بشكل تلقائي. بعد أن توقفت تلك الضجة ساد صمت شديد؛ لا شيء يتحرك، لاشيء إلا صوت تلاطم الأمواج، ثم سُمع صوت يبعد عشرين متراً تقريباً من ناحية نهاية الشاطئ وبداية هضبة المارنا:

-كل شيء على ما يرام؟

فأجابه صوت آخر لكنه قريب جداً:

-انظر إذا كانا قد ماتا هما الاثنين ولننصرف بعدها.

حاول مونتالبانو جاهداً أن يتخيل ما سيقوم به الرجل من

حركات كي يتحقق من موتهما: سُمع صوت الرمال المبللة «تشف.. تشف..». الآن لابد وأن الرجل بجوار السيارة وبعد لحظة سينحنى لينظر بداخلها.

هب مونتالبانو واقفًا وأطلق رصاصة واحدة، فسمع بوضوح صوت وقوع جسم على الرمال وسمع صوت نهجان وما يشبه حشجة ثم بعدها لم يسمع شيء. سأل الصوت البعيد:

-جوجو، هل كل شيء على ما يرام؟

دون أن يصعد مونتالبانو إلى السيارة وضع يده فوق ذراع تشغيل أضواء المصابيح وانتظر، لم يسمع أي صوت، قرر أن يلعب على عامل الحظ وراح يعد في عقله، وحين وصل إلى الخمسين أضواء المصابيح ووقف مستقيمًا. ظهر على بعد ما يقرب من عشرة أمتار رجل باغته ضوء السيارة ويده مدفع رشاش وقد وقف مذهولًا، أطلق مونتالبانو النار فجاء ورد الرجل على الفور بوابل من الرصاص بشكل عشوائي، شعر المأمور وكأن لكمة كبيرة أصابت جنبه الأيسر فترنح واستند بيده اليسرى على السيارة ثم أطلق النار من جديد ثلاث طلقات متتابة، فقفز الرجل المسلط عليه الضوء ثم استدار وأطلق ساقيه للريح.

بدأ مونتالبانو يرى ضوء المصابيح الأبيض يتحول إلى الأصفر وعيناه بدأت تعتم ورأسه يدور، فجلس على الرمال حيث أدرك أن قدماه لن تقوى على حمله وأسند ظهره إلى السيارة، كان يتوقع الألم، لكن عندما شعر به كان شديدًا جدًا لدرجة أنه جعله يئن ويبكي كطفل صغير.





الفصل السابع عشر

بمجرد أن استيقظ أدرك في الحال أنه في غرفة مستشفى، وتذكر كل شيء بالتفصيل: مقابلته مع جيجيه، الكلمات التي قالها، إطلاق النار وحادث ذاكرته عن لحظة مكوثه بين السيارتين ممدداً على الرمال المبتلة وجنبه الذي يؤلمه بشكل غير محتمل، بيد أن ذاكرته لم تُسقط كل الأحداث، فعلى سبيل المثال كان يتذكر: وجه ممي أوجيلو وهو مضطرب وصوته المتقطع: «بماذا تشعر؟.. لماذا تشعر؟.. ستصل الإسعاف حالاً! أنت بخير إطمئن».

لكن كيف استطاع أوجيلو العثور عليه؟

ثم تذكر وهو بداخل المستشفى، شخصاً يرتدي بالطو أبيض يقول: «لقد نرف كثيرًا» ولم يتذكر شيئاً بعدها. حاول أن ينظر حوله، كانت الغرفة بيضاء ونظيفة كما أنه توجد نافذة كبيرة يدخل من

خلالها ضوء الشمس، لم يستطع الحركة فقد كانت محاقن المحاليل معلقة بذراعة بيد أن جنبه كان لا يؤلمه بل كان يشعر بأنه قطعة ميتة من جسده، حاول تحريك ساقيه لكنه لم يفلح، واستسلم للنوم بهدوء.

استيقظ مرة أخرى مساءً في ظروف مختلفة تمامًا، فقد كانت المصابيح مضاءة، ثم أغلق عيناه في الحال لأنه أدرك وجود أشخاص في الغرفة ولم تكن لديه رغبة في الحديث، بعد ذلك وبدافع من الفضول رفع جفنيه بقدر ما يكفيه فقط كي يرى ما حوله بالكاد. كانت ليفيا جالسة بالقرب من الفراش على الكرسي المعدني الوحيد، وخلفها تقف أنا، على الجانب الآخر للفراش وقفت أيضًا إنجريد، كانت عينا ليفيا مبللة بالدموع، وأنا تبكي بلا انقطاع، وإنجريد قد شحب لونها وعلا الوجوم وجهها.

فقال مونتالبانو فرعًا: «أيها المسيح!» ثم أغلق عيناه وراح في النوم هربًا منهم..

تقريبًا عند السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، قامت ممرضتان بتنظيفه وتغيير المحاليل، وفي تمام الساعة حضر رئيس القسم يتبعه خمسة مساعدين، جميعهم يرتدون البالطو الأبيض. قام رئيس القسم بمراجعة الورقة المعلقة في مؤخرة السرير، ثم كشف الملانة وأدار مونتالبانو على جانبه المصاب.

ثم شخّص الحالة: «أرى أن كل شيء على خير ما يرام؛ لقد نجحت العملية بشكل تام».

عملية؟ عن أي عملية يتحدث؟ آها، لابد وأنها عملية استخراج الطلقة النارية التي أصابت مونتالبانو. لكنه من الصعب أن تستقر طلقة مدفع رشاش بداخل الجسم، وألا تنفذ إلى الجانب الآخر. أراد أن يسأل ويستفسر لكن الكلمات لم تخرج من فمه، غير أن رئيس القسم فهم نظراته والأسئلة التي كان المأمور يريد أن يطرحها:

-كان علينا إجراء لك عملية عاجلة؛ فقد اخترقت الطلقة القولون.

القولون؟ وماذا يفعل القولون في جنبه؟ لا علاقة للقولون بالجوانب، لابد وأن يكون موجود في البطن، ولكن إذا كان القولون موجود في البطن فهذا يعني أن...وانتفض بقوة حتى أن الأطباء لاحظوا- أن من الآن ولبقية حياتي سيتحتم عليّ أن أقتات على الحساء؟

أخيراً نطق مونتالبانو بصوت مسموع: «..حساء؟!» فقد حفز الخوف من هذا المشهد أحباله الصوتية. سأل رئيس القسم مساعديه:

-ماذا قال؟

فقال أحدهم:

-أظنه قال «حذاء»

ثم تدخل آخر قائلاً:

-كلا، بل قال «اعتداء».

ثم خرجوا وهم يتجادلون حول الموضوع.

عند الثامنة والنصف فُتح الباب وظهر كاتاريل:

-كيف حالتك أيها القائد؟

لو أن هناك شخص في العالم يرى مونتالبانو الحديث معه غير مجدي لكان ذاك الشخص هو كاتاريل، لم يجب المأمور فقط هز رأسه كأنه يقول أن حالته أقل سوءاً.

-أنا هنا حراسة، لحراسة سيادتك؛ فهذا المستشفى مكان عام، به

من يدخل ومن يخرج ومن يذهب ومن يجئ، وربما يحدث أن يدخل شخص خطرٍ يضر الشر ويريد أن ينهي العملية التي شرع بها، هل كلامي واضح؟

وقد شرح ما يقصد بشكل جيد جدًا:

- أتدري سيدي القائد؟ لقد تبرعت بدمي لك.

ثم عاد ليتولى نوبة الحراسة، وراح مونتالبانو يفكر في ألم أن ثمة سنوات سوداء في انتظاره؛ فسيعيش بدم كاتاريللا ويتغذى على حساء السميد^{٣٥} الناعم.

أول ما طبع على وجه مونتالبانو من قبلات كثيرة على مدار اليوم كانت قبلات فاتسيو:

-أتدري سيدي القائد أنت بارع جدًا في إطلاق النار؟ لقد أرديت أحدهما بطلقة واحدة أصابت حلقة، وأصبت الآخر.

-هل أصبت الآخر؟

-أجل سيدي، لا ندري تحديدًا مكان الإصابة، لكن الطبيب ياكوماتسي لاحظ وجود بقعة حمراء كبيرة على بعد ما يقرب من عشرة أمتار من السيارة وقد كانت دماء.

-هل تعرفتم على القاتل؟

-بالطبع.

أخرج ورقة من جيبه وقرأ:

-مونفو جيرلانفو من مواليد «مونتلوزا» في السادس من سبتمبر

35- أحد منتجات القمح وتصنع منه الحلوى كذلك. (المترجم)

عام ١٩٧٠، أعزب ويسكن في ٤٣ شارع «كرسبي» - «مونتلوذا»، سمات مميزة: لاتوجد.

حدث مونتالبانو نفسه: «عقدة السجل المدني لن تتركه»

-وهل له سوابق؟

-لا شيء على الإطلاق سيدي القائد، خالٍ من السوابق الجنائية.

وضع فاتسيو الورقة في جيبه مرة أخرى:

-ليفعلًا فعلتھما هذه لابد وأنهم دفعوا لھما نصف مليون على أقصى تقدير.

توقف للبرهة، يبدو أن فاتسيو يريد أن يقول شيئًا لكن ليس لديه الشجاعة، فقرر مونتالبانو أن يساعده:

-هل لقي جيجيه حتفه عند إطلاق النار؟

-لم يعان كثيرًا؛ فقد أطاح وابل الطلقات بنصف رأسه.

دخل الآخرين وانهالت عليه القبلات والعناق، وحضر من «مونتلوذا» ياكوماتسي والطبيب باسكوانو، قال ياكوماتسي الذي كان متأثرًا ولكنه حاقّدًا بعض الشيء:

-كل الصحف تكتب عنك.

وقال باسكوانو:

-بصراحة أنا حزين لأنني لم أشرح جثتك؛ فلدي فضول أن أعرف شكل جسمك من الداخل.

وقال ممي أوجيلو:

-كنت أنا أول من وصل إلى مكان الحادث، وحين رأيتك في تلك الحالة وفي هذا المشهد انتابني الرعب لدرجة أنني كدت أنغوط على نفسي.

-كيف عرفت بما حدث؟

-اتصل شخص مجهول بالمكتب وقال أن هناك ثمة تبادل لإطلاق النار عند سفح المرتفع الصخري «سكالا دايتوري»، كان جالوتسو في نوبة الحراسة، فاتصل بي على الفور وأخبرني بشيء لم أكن أعرفه: وهو أنك عادةً ما تقابل جيجه في المكان الذي أبلغ بوجود إطلاق نار فيه.

-أكان جالوتسو يعرف ذلك؟

-بل كان الجميع يعرف ذلك، فيما يبدو أن نصف البلدة تعرف! عندها لم أغير ملابسي حتى، وخرجت «بالبيجامة» كما كنت..

رفع مونتايبانو يده متثاقلاً وقاطع حديثه قائلاً:

-أتنام بالبيجامة؟

فقال أوجيلو في حرج:

-أجل، لماذا تسأل؟

-لا شيء، أكمل.

-بينما كنت في السيارة أقود بسرعة كبيرة، اتصلت بالإسعاف من الهاتف المحمول وكان خيراً ما فعلت؛ فقد كنت نزفت الكثيراً من الدم.

فقال مونتاالبانو ممتنًا:

-شكرًا.

-على ما الشكر! ألن تفعل لي نفس الشيء لو كنت مكاني؟

راجع مونتاالبانو ضميره بسرعة، ففضّل ألا يرد، فتابع أوجيلو حديثه:

-بالمناسبة، أردت أن أخبرك بشيء غريب: أول شيء سألتني عنه عندما كنت لازلت ممددًا على الرمال وتتألم هي أن أزيح الحلزونات التي تزحف فوق جسدك، لقد دخلت في حالة هذيان ولذلك قلت لك «حسنًا سأزيلها»، لكن لم تكن هناك أي حلزونات.

وصلت ليفيا، احتضنته بقوة وبدأت تبكي، وتمددت بجواره على الفراش واقتربت منه على قدر استطاعتها، فقال مونتاالبانو:

-ابق على وضعك هذا.

كانت تروقه رائحة شعرها وقد أسندت رأسها على صدره.

-كيف عرفت بما حدث؟

-من الراديو، أو بمعنى أصح استمعت ابنة عمي للخبر وكان بالفعل إيقاظ رائع.

-ماذا فعلت حينها؟

-أول ما فعلت هو أنني اتصلت هاتفياً بشركة أليطاليا^{٣٦} وحجزت تذكرة على طائرة متجهة إلى باليرمو، بعد ذلك اتصلت بمكتبك في «فيجاتا»، فحولوا المكالمة إلى أوجيلو الذي كان في غاية اللطف؛ فقد هدأ من روعي وعرض عليّ أن يأتي ليستقبلني في المطار، وبينما كنا في السيارة حكى لي كل شيء.

36 -شركة طيران إيطالية (المترجم)

-ليفيا، ماذا عن حالتني؟

-أنت بخير بالنسبة لما حدث لك.

-هل أصبحت عاجزًا للأبد؟

-ما هذا الذي تقوله؟!

-هل سأكل بدون ملح وتوابل طيلة عمري؟

...

قال له رئيس المباحث مبتسمًا:

-أنت تجعلني عاجزًا عن التصرف.

-لماذا؟

-لأنك تستمر في القيام بأعمال من اختصاص الشريف^{٣٧} أو بالأحرى كمنتقم ليلى، وينتهي بك الحال بالظهور في كل القنوات وكل الصحف.

-ليس ذنبي.

-كلا ليس ذنبك، ولكن لن يكون ذنبي أنا أيضًا إذا اضطرت لتقينك، يجب أولًا أن تتحسن صحتك قليلًا، لحسن الحظ لن يمكنك أن تتحرك من هنا لمدة حوالي عشرون يومًا.

-أهذا كثير؟!

37- كلمة "الشريف" اختصار لمصطلح "شيري ريف". وهذا المصطلح يأتي من أصل أنجلوسكسوني حيث يوصف به المختص بحفظ الأمن الـ"ريف" بينما المقطع الآخر "شيري" يعني الملك. وقد انتقل المصطلح من إنجلترا إلى البلدان الأخرى. (المترجم)

-بالمناسبة، إن وكيل الوزارة ليكالسي جاء إلى «مونتلوزا» ليستطلع الرأي العام حول الصراع ضد المافيا، وأعرب عن اعتزامه زيارتك بعد الظهر.

فصاح مونتالبانو غاضبًا:

-لا أريد رؤيته!

وهو رجل إنغمس كثيرًا في أمور المافيا، والآن يغيّر مساره، أيضًا بموافقة المافيا. في تلك اللحظة دخل رئيس القسم، كان يوجد في الغرفة ستة أفراد، فتغير وجهه:

-لا تؤاخذوني، لكن أرجوكم أن تتركوه بمفرده؛ لا بد أن يستريح. فبدأوا في الانصراف فيما كان يقول للمرضة بصوت مرتفع:

-ومن الآن الزيارات ممنوعة.

فقال رئيس المباحث لمونتالبانو بصوت منخفض:

سيغادر وكيل الوزارة اليوم في تمام الخامسة عصرًا، للأسف لن يتمكن من الحضور إليك ليحييك بسبب أمر الطبيب رئيس القسم. وابتسم كلاهما.

بعد بضعة أيام نزعوا محاقن المحاليل من ذراعه، ووضعوا له الهاتف على الكومودينو، في ذاك الصباح جاء لزيارته نيكولو زيتو الذي بدا كأنه بابا نويل:

-لقد أحضرت إليك جهاز تلفاز وجهاز فيديو وكاسيت، كما جئتكم بالصحف التي تحدثت عنك.

-ماذا يوجد بالكاسيت؟

-قمت بتسجيل وعملت المونتاج لكل ما قلته أنا من حماقات في «تيلي فيجاتا»، وما قاله الإعلاميون عن الواقعة في باقي القنوات.

...

-ألو، سالفو؟ أنا ممي، كيف حالك اليوم؟

-أحسن، أشكرك.

-اتصلت بك لأخبرك بأنهم قتلوا صديقنا إنجراسيا.

-توقعت ذلك، متى وقعت الحادثة؟

-صباح اليوم، أطلق عليه النار وهو قادمًا إلى البلدة في سيارته اثنان يركبان دراجة بخارية سريعة جدًا، لم يستطع من كان حوله من الناس إلا محاولة إسعافه، لكن بلا جدوى، اسمع يا سالفو سأحضر لك صباح غدًا، يجب أن تدلي لي رسميًا بكل تفاصيل إطلاق النار عليك.

طلب من ليفيا أن تشغل له شريط الفيديو، لا لأنه أثار فضوله لكنه فعل ذلك فقط لقضاء الوقت. ترك قريب جالوتسوالذي يعمل في «تيلي فيجاتا» لخيالة العنان في تأليف خيالات ترقى لمستوى مؤلف فيلم على شاكلة «لصوص القوس المفقود». فهو يرى أن إطلاق النار جاء كنتيجة لاكتشاف الجثتين المحنطتين في الكهف، ما هو السر المرعب والمطلسم وراء تلك الجريمة القديمة جدًا؟

لم يجد الصحفي حرجًا في أن يذكر بشكل عابر أيضًا النهاية الحزينة التي لاقاها مكتشفي مقابر الفراغة وربط هذا بالملكيدة التي نصبت للمأمور، راح مونتالبانو يضحك حتى شعر بوخزة في جنبه، ثم ظهر وجه ببو راجونيزي

المحلل السياسي لنفس القناة الخاصة، وهو شيوعي سابقًا وتابع سابق لتيار الديمقراطية المسيحية، والآن هو مؤيد بشدة لحزب المجددين. قام راجونيزي بطرح سؤال بشكل حاسم: ماذا كان يفعل المأمور مع تاجر مخدرات الذي يشاع أنه صديقه؟ أكانت هذه الصداقة تليق بالرقى الأخلاقي الذي يجب أن يتحلى به كل مسئول عام؟ وختم المحلل حديثه بحدة قائلاً: «لقد تغير الزمن لقد هزت البلدة رياح التجديد بفضل الحكومة الجديدة ولا بد من مسيرة العصر، لابد من القضاء نهائياً على السلوكيات البالية والمؤامرات القديمة.

شعر مونتاالبانو بوخزة أخرى بسبب الغضب فتأم؛ فنهضت ليفيا بسرعة وأطفأت التلفاز:

-أتلقي بالاً لحديث ذلك الوغد؟

وبعد حوالي نصف الساعة من الإلحاح والتوسلات وافقت ليفيا على تشغيل التلفاز مرة أخرى، كان تعليق نيكولو زيتو الذي بدا ودوداً ومستاءً ومتعقلاً: كان ودوداً تجاه صديقه المأمور الذي هناه أخلص التهانى، ومستاءً لأن على الرغم من كل وعود رجالات الحكومة لازال هناك مجال متسع للمافيا في الجزيرة، وكان متعقل لأنه ربط بين القبض على طانو اليوناني واكتشاف أمر الأسلحة، وقد كان مونتاالبانو هو المخطط لهاتين الضربتين الموجهتين للجريمة المنظمة مما جعله يظهر كالأخصم الذي يجب تصفيته بأي ثمن.

وسخر من الافتراض القائل بأن المكيدة التي حيكت للمأمور هي كانتقام للقتيلان اللذان انتهك حرمتهم وتساءل: من أين لهم أن يدفعوا أجر القتلة؟ ربما من العملات المعدنية التي أصبحت غير صالحة للتداول الموجودة في الصحن؟

بعد ذلك عاد للحديث الصحفي الخاص لقناة «تيلي فيجاتا» والذي كان يقدم للقاء مع أليشيدي مارافنتانو وقدمه في تلك المناسبة

على أنه متخصص في الغيبات، الراهب الذي اعتزل الرهينة كان يرتدي لباس رهبان مرقع بقطع قماش مختلفة الألوان وكان يرضع من البرونة. وأمام إلحاح الأسئلة التي كان الغرض منها حمله على الإقرار بصلة محتملة بين المكيدة التي تعرض لها المأمور وما يسمى بانتهاك المقدسات، مارافنتانو -مِهارة ممثل قدير- أقر ولم يقر في نفس الوقت تاركًا بذلك الجميع في حيرة ضبابية.

ثم أُختتم الفيلم الذي أعده زيتو باختصار للتعقيب السياسي لـراجونيزي، غير صحفي غير معروف ظهر ليعلن أن زميله لن يتمكن من الظهور؛ فقد وقع ضحية لاعتداء وحشي من قبل مجرمين لازالو مجهولون، قد تعدوا عليه واختطفوه ليلة البارحة أثناء عودته إلى منزله بعد أن انتهى من عمله في «تيلي فيجاتا»، ووجه الصحفي اتهام عنيف لقوات الأمن التي أصبحت غير قادرة على الحفاظ على أمن المواطنين.

- لماذا أراد زيتو عرض تلك المقطوعة التسجيلية عليك وهي لاتخصك؟

هكذا سألت ليفيا بسلامة نية أهل الشمال، ولم تفهم ما بين السطور.

أخذ أوجيلو يستجوبه وتورتيللا يدوّن المحضر، روى المأمور أن جيجيه كان له زميل دراسة وصديق وأن صداقتهما استمرت لسنوات على الرغم من أن كلاً منهما يعيش حياة مناقضة للآخر تمامًا، أضاف في المحضر أن جيجيه طلب مقابلاته، غير أنهم لم يتمكنوا إلا من قول القليل من الكلمات بعد أن حيا كلاً منهما الآخر بقليل:

-كان قد بدأ في ذكر أمر تجارة السلاح، وقال لي أنه قد علم حديثًا متداولًا عن بعض الأشياء التي ربما تهمني، لكن لم يتسع الوقت لكي يخبرني بها.

تظاهر أوجيلو بأنه يصدقه، واستطاع مونتالبانو إخباره بتفاصيل مراحل تبادل إطلاق النار، ثم قال لمي:

-الآن أخبرني أنت.

فقال أوجيلو:

-فلتوقع على المحضر أولاً.

فوقع مونتالبانو ثم حياه تورتيلًا وانصرف إلى المكتب، وقال أوجيلو:

-لا يوجد الكثير لأحكيه؛ لقد قامت دراجة بخارية بتخطي سيارة إنجراسيا فالتفت الشخص الذي يركب في الخلف وفتح النار وانتهى الأمر، وانتهى المطاف بسيارة إنجراسيا إلى السقوط في جرف.

فعلق مونتالبانو:

-لقد أرادو بتر العضو الفاسد.

ثم سأل بشيء من الحزن لشعوره بأنه خارج اللعبة:

-فيما تفكروا أن تفعلوا؟

-لقد وعدني رجال شرطة كاتانيا الذين كنت قد أبلغتهم بأنهم لن يطلقو سراح برانكاتو.

-آمل أن تتم الأمور على خير.

ربما لم يدرِ أوجيلو بأنه بإبلاغة شرطة كاتانيا قد صدق على حكم الإعدام على برانكاتو. بعد صمت وجيز سأل مونتالبانو بحدة:

-من يكون هذا؟

-من تقصد؟

-شاهد هذا المقطع.

استخدم جهاز «الريموت كنترول» وعرض له نص خبر الإعتداء على راجونيزي، قرأ ممي بعناية الجزء الذي شعر أنه تفاجأ به:

-أتسألني أنا عن هذا؟ ثم أن هذا شيء لا يخصنا، فراجونيزي يسكن في «مونتلوزا».

-كم أنت برئ يا ممي! أنت تلحق أناملك!

ووضع خنصره على وجه أوجيلو كما يفعل مع الأطفال.



الفصل الثامن عشر

بعد مرور أسبوع حل الملل محل الزيارات والأحضان والمكالمات والتهاني، وأقنع مونتالبانو ليفيا بالعودة إلى ابنة عمها في ميلانو؛ فلا داعي لأن تضيع عطلتها كما أن الآن المناسبة غير ساحة للحديث عن الرحلة إلى القاهرة التي خططت لها، واتفقا على أن ليفيا ستعود ثانية بمجرد خروج المأمور من المستشفى، عندئذٍ فقط حددت كيف وأين ستقضي الأسبوعين المتبقين من العطلة.

كذلك فإن الضجة حول مونتالبانو وما حدث له أصبحت شيئاً فشيئاً كصدى الصوت ثم اختفت تماماً، كان أوجيلو أو فاتسيو يأتيها ليجلسا معه يومياً، ويمكننا لقليلاً من الوقت يحكيها له المستجدات وما آلت له بعض التحقيقات، في كل صباح بمجرد أن يفتح عيناه يعتمد مونتالبانو أن يفكر ويتمعن في مسألة قتيلا كهف الحمل

ويتساءل: متى سيتثنى له أن ينعم مجدداً بأمان الله دون أن يزعجه أي أحد ويتمكن من أن يفكر تفكيراً متباطئاً، يستطيع من خلاله أن يصل إلى فكرة تحفزه.

لابد وأن يستثمر هذا الموقف؛ فحسم أمره وانطلق كحصان جامح يعدو وبعد قليل وجد نفسه في مرحلة الخبب^{٣٨} ثم السير وهنا هيمن الخمول شيئاً فشيئاً على جسده وعقله، فقال في نفسه: «لا زلت في مرحلة النقاهة».

كان جالساً على المقعد ويده جريدة أو مجلة وفي منتصف مقال أطول قليلاً من باقي المقالات شعر بإرهاق وزاغت عيناه، ثم راح في سبات وهو مبلى بالعرق.

((الشرطي فاتسيو قال لي أن سيادتكم ستعود للمنزل اليوم، أقدم لك التهاني ، وقال الشرطي لي أنه يجب أن يكون خفيفاً.

أدبيلينا))

كانت تلك الورقة الخاصة بالخدمة موجودة على منضدة المطبخ فهرع مونتابانو ليتحقق مما تقصده الخادمة بقولها أن يكون الطعام خفيفاً، وقد كان هناك سمكتين «ميرلوتسي» متبلتان بالزيت والليمون، قام بنزع مقبس الهاتف؛ فهو يريد أن يتعود من جديد على التواجد بالمنزل في هدوء، كان لديه الكثير من أظرف البريد غير أنه لم يرد فتح ولا واحد منها ولا أن ينظر في بطاقة بريدية واحدة، كل ما فعله هو أن تناول الطعام ثم خلد إلى النوم.

قبل أن يضطجع طرح سؤالاً على نفسه: إذا كان الأطباء قد طمأنوه على استعادة قواه كاملةً، فلماذا كان لا يزال يشعر بغصة في حلقه من الحزن؟

ظل لمدة العشر دقائق الأولى يقود السيارة في قلق، وكان منتبهاً إلى

38- مرحلة متوسطة لسرعة الفرس بين العدو السريع والسير. (المترجم)

ردة فعل جنبه أكثر من انتباهه للطريق، بعد ذلك نظرًا لأنه تحمل الاهتزازات الشديدة، فقام بزيادة سرعة السيارة واجتاز «فيجاتا» متخذًا طريق «مونتلوزا»، وعند تقاطع «مونتأبرتو» انعطف يسارًا قاطعًا عدة كيلومترات ثم دخل في طريق ممهد ووصل إلى ساحة بها منزل ريفي. نزل من السيارة وكانت ماريانا أخت جيجيه والتي كانت معلمته في المدرسة كانت جالسة على مقعد من التبن مجاور للباب بمجرد أن رأت المأمور سارت نحوه:

-سالفو، كنت أعرف أنك ستأتي لزيارتي.

فقال مونتالبانو وهو يعانقها:

-حضرتك أول من زرت بعد خروجي من المستشفى.

بدأت ماريانا في البكاء بهدوء بدون عويل، بل أزرفت دموع فقط وأغرورقت عينا مونتالبانو بالدمع أيضا.

قالت له ماريانا:

-تفضل بالجلوس.

جلس مونتالبانو بجوار السيدة وأمسكت بيده وراحت تداعبها.

-هل تألم جيجيه؟

-لا، لقد أدركت بينما كانوا يطلقوا النار علينا أنهم قتلوا جيجيه فورًا، ثم أكدوا لي ذلك فيما بعد، أظن أنه حتى لم يستوعب ما يحدث.

-أصحيح أنك ستقتل من قتل جيجيه؟

-أجل.

-سيكون جيجيه مسرورًا لذلك حيثما هو الآن.

تنهدت ماريانا، وقبضت بقوة أكبر على يد المأمور:

-لقد كان جيجه يحبك من كل قلبه.

خطر ببال مونتابانو عنوان كتاب (صديق حياقي):

-وكذلك أنا كنت أحبه بشدة.

-أتذكر حينما كان شقي؟

شقي: أي طفل شقي، وشاب منحرف؛ حيث أن ماريانينا بالطبع لا تقصد السنوات الأخيرة، ولا تقصد العلاقة المتوترة بين جيجه والقانون بل تقصد ذلك الزمن البعيد عندما كان أخيها الأصغر مشاغب وصعلوك، فابتسم مونتابانو.

-أتذكر سيادتك تلك المرة حين قذف بألعاب نارية داخل سخان نحاسي وكان هناك شخص يصلحه فأغشي عليه من المفاجأة؟

-وتلك المرة حينما أفرغ حجارة أقلام الكوبيا بداخل حقيبة يد المعلمة لونجو .

وظلا قرابة الساعتين يتحدثان عن جيجه ومغامراته، وكانا يتوقفا دوما عند مواقف تعود إلى مرحلة المراهقة على أقصى تقدير.

ثم قال مونتابانو:

-لقد تأخر الوقت سأنصرف.

-كنت سأقول لك أن تبقى لتأكل معي، لكن يبدو أن بحالتك سيكون الطعام ثقيل على معدتك.

-أي طعام أعدت؟

-أتوباتدري بالحساء.

الأتوباتندري هو تلك الحلزونات الصغيرة ذات اللون البني الفاتح، التي عندما تنام تصدر رائحة وتتجمد لتصبح رقاقة بيضاء، ثم تنغلق أو بمعنى أصح أن تسد فتحة القوقعة، كان أول رد فعل لمونتالبانو هو أن رفضه مشمئزًا. إلى متى ستظل تلك الفكرة المستحوذه عليه تلاحقه؟ بعدها قرر بهدوء أعصاب أن يقبل الدعوة متحديًا بذلك كلاً من معدته ونفسيته.

كان عليه أن يقاوم نفسه أمام الطبق الذي كان يصدر رائحة خفيفة جدًا ذات لو أصفر مائل للبني، بيد أنه بعد أن التقط أول حلزون أتوباتندري بالشوكة وتذوقه، شعر فجأة أنه قد تحرر؛ فقد تلاشى الهاجس وتبدد الحزن، ولا شك أن أيضًا معدته قد تأقلمت مع الوضع.

في المكتب ضاق ذرعًا بالأحضان، جفف تورتيلا بسرعة دمعة سألت على وجنته وقال:

-أقدر قيمة عودة سيادتك بعد إطلاق النار عليك!

-أين أوجيلو؟

فقال كاتاريلا:

-إنه في مكتب سيادتك؟

فتح الباب دون أن يطرقه، فانتفض ممي من على المقعد الموجود خلف المكتب وكأن أحدًا قد باغته وهو يسرق واحمر وجهه:

-لم أمس شيئًا يخصك، ما في الأمر أن هنا المكالمات..

-ممي لقد أحسنت صنعًا.

هكذا أوجز مونتالبانو في كلامه مقاومًا رغبته في أن يركل مؤخرة من تجرأ على أن يجلس على كرسيه. ثم قال له أوجيلو:

-سآتي اليوم إليك في منزلك.

-وماذا ستفعل في منزلي؟

-لترتيب أمر الحراسة.

-حراسة من؟

-ماذا تقصد بمن؟ حراستك أنت؛ فليس صحيح أن أولئك لن يعيدوا المحاولة؛ حيث أن محاولته الأولى لم تحقق النتائج المرجوة.

-أنت مخطئ؛ لن يحدث لي شيئاً بعد ذلك لأنك يا ممي أنت من اطلق النار عليّ.

بدا ممي وكأنه تم إيلاج مقبس كهرباء ذو فولت عالٍ في مؤخرته؛ فقد أحمر لونه وأخذ يرتجف، وكأن دمه هرب بعيداً عن جسده، ليتّرك لونه شاحباً كاملياً، ثم تمكن من التحدث بشكل فظ:

-ماذا أصاب عقلك؟!

فارتأى مونتالبانو أنه بذلك قد انتقم بما يكفي لانتهاك أوجيلو لمكتبه وقال:

-إهدأ يا ممي، لقد خانني التعبير؛ فأنا أقصد أنهم أطلقوا عليّ النار بسبب عمل أنت قمت به.

-وضّح ما تقول.

قالها أوجيلو وهو ينهار على المقعد ممرراً منديل حول فمه وعلى جبينه.

-يا عزيزي، أنت بدون أن تستشيريني ولا أن تطلب موافقتي عينت شرطيين لمراقبة إنجراسيا، ماذا تظن به؟ أهو غبي لدرجة أنه لن يفتن إليهم؟ لقد أخذ منه الأمر حوالي نصف يوم كي يكتشف أمرهم

ويعرف أنه مُراقب، لكنه بالطبع ظن أنني من أعطى الأمر، ويعرف أنني قمت بعدة حماقات والتي من أجلها قمت أنا بوضعه تحت المراقبة، ولكي يستعيد صورته أمام برانكاتو الذي كان ينوي أن يصفي أعماله معه -في المكالمة التي أخبرني أنت بها- فقام باستأجار وغدين للقضاء عليّ إلا أن خطته باءت بالفشل. عندئذ قام برانكاتو أو من يعمل لحسابه بالقضاء على إنجراسيا وأفكاره العبقريّة الخطرة، ومن ناحية أخرى لا يمكن نسيان القتل الغير مبرر للمسكين المحارب ميزوراكّا فقد دبر له وقام بمحوه من على وجه الأرض، وإذا لم تكن أنت قد نهبت إنجراسيا لكان جيّجه لازال حيّاً يرزق وأنا لا أعاني من هذا الألم في جنبي، هذا كل ما في الأمر.

فقال ممي منهكاً:

-إذا كان الأمر كذلك فأنت محق.

- يمكنك أن تطمأن، هو كذلك.

هبطت الطائرة على مسافة قريبة جداً من صالة الوصول؛ فلم يكن الركاب بحاجة إلى مواصلات. رأى مونتالبانو ليفيا وهي تنزل من على سلم الطائرة وهي تتجه مطأطأة الرأس نحو مدخل الصالة، فاختماً مونتالبانو في وسط الزحام وراح يرقب ليفيا التي كانت تجمع حقائبها من على سير الحقائق بعد انتظار طويل ووضعتها فوق عربة يد ثم توجهت نحو موقف سيارات الأجرة.

كانا قد اتفقا هاتفياً ليلة البارحة على أنها ستستقل القطار من باليرمو إلى «مونتلوزا» وهو يكتفي بأن يذهب لاستقبالها في المحطة، غير أنه قرر أن يعدّ لها مفاجأة بوجوده في مطار «بونتارايسي»:

-هل أنت بمفردك، أيمكنني توصيلك؟

توقفت ليفيا فجأة وصاحت بينما كانت متجه نحو سيارة التاكسي:

-سالفو!!

ثم تعانقا في سعادة

-تبدو في حالة جيدة جدًا.

-أنت أيضًا تبدين جميلة، منذ نصف ساعة وأنا أنظر إليك منذ أن نزلتي من الطائرة.

-ولماذا لم تظهر لي قبل الآن؟

-يرقوني أن أراك وأنت بدوني.

ركبا السيارة وبدل من أن يدير مونتالبانو المحرك، إحتضنها وقبّلها ووضع يده على صدرها، وخفض رأسه وراح يداعب ركبتيها وبطنها بوجنته. فقالت ليفيا وهي تتنفس بصوت مرتفع:

-فلنذهب من هنا وإلا سيلقون القبض علينا بتهمة ارتكاب فعل فاضح في الطريق العام.

خلال طريقهما إلى باليرمو اقترح المأمور عليها اقتراح والذي خطر له فجأة:

-ما رأيك أن نتوقف في المدينة؟ أريد أن أريك «الوفتشيريا»^{٣٩}.

-لكني رأيته قبل ذلك، تلك اللوحة التي رسمها جاتوزو.

-صدقيني أنني أعرف أن تلك اللوحة سيئة للغاية، إننا سنحجز غرفة في فندق ثم نتسكع قليلًا ونذهب لسوق «فوتشيريا» بعدها ن

39 - لوحة لـ ريناتو جاتوزو رسمها سنة ١٩٧٤ وهي تعد من أشهر لوحاته تصور سوق

فوتشيريا في باليرمو. (المترجم)

نام وفي الصباح نساfer إلى «فيجاتا»، فأنا ليس لدي أي التزامات فيمكنني اعتبار نفسي سائح.

عندما وصلا إلى الفندق غيرا ما كانا ينويانه من الاستحمام بسرعة ثم الخروج؛ فلم يخرجوا بل مارسا الحب وناما ثم استيقظا بعد عدة ساعات ثم مارسا الحب مرة أخرى، ثم خرجا من الفندق حينها كان تقريبًا الليل قد حلّ، ثم ذهبوا إلى سوق «فوتشيريا». إنزعجت ليفيا وتشوش ذهنها بالأصوات ودعوات البيع ونداءات الباعة ومن الأحاديث والخلافات والمشاجرات الصاخبة، كذلك انزعجت من الألوان الصارخة ومن آراء مزيفة ومجمله. إختلطت رائحة اليوسيفي برائحة السمك النيئ برائحة أحشاء ضائي مقلية ومرشوش عليها جبن «الكاتشو كالفاللو» تلك الأكلة المعروفة باسم «لاموزا» مع رائحة مقلية؛ فقد كان خليط من الروائح فريد من نوعه يكاد يكون سحريًا. توقف مونتالبانو عند محل بيع ملابس مستعملة.

-عندما كنت في الجامعة كنت آتي إلى هنا كي أتناول الخبز مع «اللاموزا» والتي إذا تناولتها الآن يمكن ببساطة أن تفجر كبدي، لقد كان هذا المحل فريد من نوعه في العالم كله، الآن يبيع ملابس مستعملة وكانت الأرفف في ذلك الحين كلها خالية، ويجلس مالك المحل السيد شيزارينو يستقبل الزبائن خلف منضدة الاستقبال والتي كانت أيضًا خالية تمامًا.

-أي زبائن إذاً وجميع الأرفف خاوية؟

-لم تكن خاوية بالمعنى المعروف، لكن يمكن القول بأنها كانت ممتلئة بالرغبات والطلبات؛ فقد كان هذا الرجل يبيع أشياء مسروقة بالطلب، فتذهبين إلى السيد شيزارينو وتقولين له: «أنا بحاجة لساعة يد مستعملة، أو تقولين: «أحتاج للوحة معينة، منظر بحري يعود للقرن التاسع عشر، أو أن تقولين: «يلزمني خاتم من هذا النوع. فيقوم هو بتجميع الطلبية ويدون على قطعة من ورق المعكرونة تلك الورقة الصفراء الخشنة التي كانت موجودة في الماضي ثم يتفق على السعر ويحدد لك وقت تأتين إليه، وفي التاريخ المحدد بدون أن يتأخر يومًا

واحدًا يستخرج من تحت المنضدة الكبيرة البضاعة المطلوبة ويسلمها لك، ولم يكن يعترف بالعروض التجارية.

-معذرة ولكن ما حاجته في أن يكون له متجر؟ أقصد أن مهنة مثل هذه يمكن أن يؤديها في أي مكان كمقهى أو في جانب من الطريق..

-أتدريين بماذا يسميه أصدقائه في سوق «فوتشيريا»؟ يسمونه السيد شيزارينو مالك المحل أو صاحب المتجر؛ لأن السيد شيزارينو لايعتبر نفسه مخطط لجرائم سرقة كما يقال اليوم ولاتاجر بضائع مسروقة، بل هو تاجر كأخرون كُثُر، والمتجر الذي يدفع إيجارة وفاتورة كهربائية يشهد بهذا فلم يكن سوى واجهة أو غطاء.

-جميعكم مجانيين.

...

قالت زوجة الناظر وهي تضم مونتالبانو إلى صدرها لبرهة:

-كابني، دعني أعانقك مثل إبني.

وزاد على ذلك زوجها قائلاً:

-لاتتخيل كم كانت قلقة عليك.

كان الناظر قد اتصل هاتفيا بمونتالبانو في الصباح كي يدعوه لتناول العشاء لكن مونتالبانو رفض واقترح أن يكون اللقاء بعد الظهر، فاستضافوه في صالة المنزل.

استهل الناظر بوجوه الحديث:

-ندخل مباشرة في لب الموضوع، لن نضيع وقتك.

-لدي كل الوقت الذي تريدهونه؛ فأنا الآن عاطل عن العمل.

-لقد أخبرتك عندما كنت تتناول معنا العشاء أن زوجتي سيدة

خيالية. حسنًا، بمجرد أن غادرت منزلنا راحت زوجتي تتخيل، كنا نريد أن نتصل بك قبل هذا لكن حدث ما حدث.

قالت السيدة وهي مستاءة بعض الشيء:

-نريد أن نحتكم إلى السيد المأمور فيما إذا كانت هذه خيالات أم لا؟

ثم تابعت حديثها مستنكرة:

-تحدث أنت أم أحدث أنا؟

-إنها خيالاتك أنت.

-لا أدري ما إذا كنت تتذكر أم لا؛ لكن عندما سألت زوجي أين يمكن أن تجد للو ريتزيتانو أجابك بأنه لا يعرف عنه أي أخبار منذ يوليو ١٩٤٣، حينها تذكرت شيئًا: وهي أن لي صديقة قد اختفت في نفس الفترة، أو بمعنى أصح أن قد وصلتني أخبار عنها فيما بعد لكن بشكل غريب والذي...

شعر مونتالبانو بقشعريرة في ظهره، فقد قتل شايي كهف الحمل وهما في ريعان الشباب وقال:

-كم كانت تبلغ من العمر صديقتك هذه؟

-سبعة عشر عامًا، لكنها كانت تكبرني بكثير؛ فقد كنت وقتها لم أزل طفلة، ولكننا كنا نذهب للمدرسة سويًا.

قامت بفتح ظرف بريد كان فوق المنضدة الصغيرة وأخرجت منه صورة فوتوغرافية أرتها للمأمور:

-لقد التقطنا هذه الصورة في آخر يوم في الدراسة في الصف الثالث

الثانوي هي تلك التي تقف على يسار آخر صف وأنا بجوارها.

جميع من في الصورة مبتسمين، يرتدون الزي الفاشي لجماعة الشابات الايطاليات، وهناك معلم يؤدي التحية الرومانية.

بسبب الوضع المفزع الذي كانت فيه الجزيرة بسبب القصف، أغلقت المدارس في آخر يوم في شهر إبريل ووفروا علينا عشاء إمتحان الشهادة الثانوية المرعب ونجح من نجح ورسب من رسب بالاقتراع. ليزتا وهو اسم صديقتي تلك ولقبها هو موسكاتو، قد انتقلت مع عائلتها للعيش في بلدة صغيرة بعيدة عن الساحل، وكانت ترسل لي خطاب كل يومين، لا زلت أحتفظ بجميع خطاباتها أو على الأقل ما وصل منها؛ فأنت تعرف أن البريد في تلك الفترة.. أيضا نرحت عائلتي وذهبتنا بعيداً عن الساحل عند شقيق لوالدي.

عندما انتهت الحرب أرسلت خطابات لصديقتي إلى كلاً من عنوان البلدة الصغيرة وعنوان «فيجاتا»، ولم يصلني أي رد الأمر الذي قلقتني، وأخيراً في نهاية عام ١٩٤٦ عدنا إلى «فيجاتا» وذهبت أنا لزيارة والدا ليزتا، كانت أمها قد ماتت وحاول والدها في بداية الأمر ألا يقابلني، ثم حدثني بشكل سيء قائلاً أن ليزتا قد وقعت في غرام جندي أمريكي وقد رافقته على غير رغبة من أفراد العائلة، وأضاف أن ابنته بالنسبة له قد ماتت.

فقال مونتابانو:

-بصراحة، أرى أنها قصة مقبولة.

فتدخل الناظر مستعيذاً:

-ماذا قلت لك أنا؟

-لاحظ أيها القائد أنه رغم ذلك، الأمر غريب حتى وإن لم نأخذ

في الحسبان ما حدث بعد ذلك: أولاً هذا الأمر غريب لأن ليزتا إن كانت قد وقعت في غرام جندي أمريكي لأخبرتني، بذلك بأي طريقة، ثم أن في الخطابات التي كانت تبعث بها لي من «سِرَاديالكو»- وهو اسم البلدة التي لجأوا إليها- كانت تطرق وتطرق على نفس المسمار: أي ذلك العذاب الذي سببه لها فراق ذلك الحب الحاد الغامض وهو شاب لم ترد ذكر اسمه لي.

-هل أنت متأكده من وجود ذلك الحب الغامض بالفعل؟ ألا يمكن أن يكون هذا الحب ما هو إلا أوهام فترة الشباب؟

-لم تكن ليزتا ممن يسلمون أنفسهم للأوهام.

فقال مونتابانو:

-تعرفين أن في سن سبعة عشر سنة وللأسف ما بعدها، لايمكن التأكد من حقيقة المشاعر.

فقال الناظر:

-مضطر أن أقبل هذا الهراء.

دون أن تنطق كلمة واحدة أخرجت السيدة صورة أخرى من الظرف توضح شابة ترتدي فستان عرس وتشبك ذراعها بذراع شاب يرتدي ملابس جندي أمريكي.

-لقد وصلتني هذه الصورة من نيويورك كما يوضح طابع البريد في الشهور الأولى لعام ١٩٤٧.

وختم الناظر بقوله:

-يبدو لي أن الصورة لا تدع مجال لأي شك.

-كلا، بل أنها تثير الشكوك.

-وكيف هذا سيدتي؟

-لأنه لا توجد سوى تلك الصورة داخل الظرف، هذه الصورة لليزتا والجندي وفقط لا توجد بطاقة ولا أي شيء، ولا يوجد حتى خلف الصورة كلمات مرفقة لها، يمكنك التحقق من هذا، والآن أيمنك لسيادتك تفسير سبب أن ترسل لي صديقة صدوقة ومقربة فقط صورة بدون كلمة واحدة؟

-هل تحققتي من وجود خط يد صديقتك على الظرف؟

-العنوان مكتوب بآلة كاتبة.

فقال مونتاالبانو:

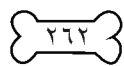
-آها

-وأريد أن أقول لك شيئاً أخيراً، إليزا موسكاتو هي ابنة عم لـلو ريتزيتانو وكان لـلو يحبها بشدة كأخته الصغرى.

فنظر مونتاالبانو للناظر وقال:

-إنه يعشقها.

فأذعن الناظر لرأيه.





الفصل التاسع عشر

زاد غضب مونتاالبانو أكثر وراح يدور ويلف حول نفسه أكثر، وكذلك زاد اقتناعه بأنه على الطريق الصحيح، لم يكن حتى بحاجة إلى التريض والتأمل الذي اعتاد عليه حتى نهاية حاجز الميناء؛ فبمجرد أن خرج من منزل بورجو وفي جيبه الصورة الفوتوغرافية للعرس توجه منطلقاً صوب «مونتلوزا»:

-هل الطبيب موجود؟

فقال الحارس:

-أجل لكنه مشغول بالعمل، سأخبره حالاً.

كان باسكوانو ومعه اثنين من المساعدين يقفون حول رف من الرخام وضع عليه جثة عارية ذات عينان جاحظتان، وكان الميتم محق في أن تظل عيناه محمليقتان كأنه مذهول؛ فقد كان الثلاثة يشربون

النبيد في كؤوس من ورق، وفي يد الطبيب زجاجة خمر.

-هلم إيلنا، إننا نحتفل.

شكر مونتالبانو أحد المساعدين الذي قدم له كأساً وصب له
باسكوانو قدر أصبعين من الخمر، سأل المأمور:

-نخب من هذا؟

-نخبي أنا؛ فلقد أهتمت بتلك الجثة عملية التشريح رقم ألف.

شرب مونتالبانو واستدعى الطبيب على انفراد وعرض عليه
الصور:

-هل يمكن أن يشبه وجه قتيلة كهف الحمل وجه تلك الشابة التي
في الصورة؟

فقال باسكوانو بكل أدب:

-لماذا لاتذهب لتتغوط؟!

فرد المأمور:

-معذرة.

استدار مونتالبانو للخلف وخرج، لقد كان هو الأبله وليس
الطبيب، فقد تسرع بسبب الحماس وذهب لباسكوانو ليطرح عليه
أغبي سؤال يمكن لباسكوانو تصوره.

لم يكن أحسن حظاً مع المعمل الجنائي.

-هل يوجد ياكوماتسي؟

-لا هو عند رئيس المباحث.

-من المسئول عن معمل التصوير الفوتوغرافي؟

-دي فرانشييسكو، وهو موجود في الطابق الأرضي.

نظر دي فرانشييسكو للصورة كأنه لايعلم بإمكانية صناعة صور على شريط تصوير حساس للضوء.

-ماذا تريد مني؟

-أريد معرفة ما إذا كانت تلك الصورة قد خضعت للمونتاج أم لا.

-حسنًا، هذا ليس اختصاصي، ما أعرفه فقط هو التصوير والتحميض، أما الأمور الأكثر تعقيدًا فنرسلها إلى باليرمو.

بعد ذلك دارت العجلة في الاتجاه الصحيح وبدأ الجانب الإيجابي للأحداث: قام بالاتصال بالمصور الفوتوغرافي التابع للمجلة التي نشرت النقد الأدبي لكتاب مارافنتانو، وقد كان يذكر لقبه:

-آسف لإزعاجك، ألسنت أنت السيد كونتينو؟

-أجل أنا، من يتحدث؟

-أنا المأمور مونتالبانو، أود رؤيتك.

-تشرفني معرفة سيادتك، يمكنك أن تأتي الآن إذا أردت.

يسكن المصور في الجزء القديم من مدينة «مونتلوزا» في واحد من تلك المنازل التي نجت من انهيار جبلي والذي محى حي بأكمله كان يحمل اسمًا عربيًا.

-في الواقع أنا لا أحترف التصوير؛ فأنا معلم تاريخ في المدرسة

الثانوية، لكن يا عزيزي أنا تحت أمرك.

-أيمكن لحضرتك أن تخبرني ما إذا كانت تلك الصورة خضعت للمونتاج الفوتوغرافي أم لا؟

فقال كونتينو وهو ينظر للصورة:

-يمكنني المحاولة، أتدري متى التقطت هذه الصورة؟

-لقد قالوا لي أنها التقطت تقريباً في عام ١٩٤٦.

-فلتأتيني بعد غدٍ.

فخفض مونتاالبانو رأسه ولم يقل شيئاً.

-أهو أمر عاجل؟ إذا فلنفعل كالأتي: أنا في خلال ساعتين تقريباً سيكون بإمكانني إعطاءك إجابة ولكنها ستكون بحاجة لتأكيد.

-حسنًا.

قضى الساعتين في معرض فني حيث كان هناك معرض لرسام صقلي بالغ من العمر سبعين عاماً مازال مرتبطاً بالأصالة الشعبية، لكن ألوان لوحاته مبهجة وصارخة وزاهية جداً. كان ينظر للوحات الزيتية نظرة شاردة وبنفاذ صبر تماماً كما يشعر إزاء رد كونتينو، وكان ينظر كل خمس دقائق إلى ساعة يده:

-هيا أخبرني.

-لقد انتهيت للتو: في تقديري إن هذا بالفعل مونتاج، تم عمله باتقان شديد.

-ومما عرفت ذلك؟

-من الظل الموجود على خلفية الصورة، لقد تم وضع صورة الشابة في المونتاج بدلاً من صورة العروسة الحقيقية.

لم يكن المأمور هو من أخبر المصور بهذا، فلم يكن كوتينو على علم بالقصة ولم يشرح له المأمور شيئاً عن هذه النتيجة.

-سأخبرك بما هو أكثر من هذا: لقد خضعت صورة الفتاة لبعض التعديلات.

-ماذا تقصد؟

-أي أن الفتاة التي في الصورة -كما يقال- قد تم تكبير ملامحها بعض الشيء.

-أيمكنني أن آخذ الصورة؟

-بالطبع فأنا لم أعد بحاجة لها، لقد حسبت أن الأمر سيكون أكثر صعوبة، لا توجد حاجة لتأكيد كما كنت قد أخبرتك.

-لقد أفدنتي بشكل هائل.

-اسمع سيدي المأمور، إن رأيي هذا رأيي شخصي تمامًا، أتفهمني؟ وليس له أي صفة قانونية.

لم يقوم رئيس المباحث باستقباله وحسب، بل قام أيضًا بفتح ذراعية له في سرور:

-يالها من مفاجأة جميلة! ألدك متسع من الوقت؟ فتأتي معي إلى

منزلي؛ فأنا أنتظر مكاملة من ابني، وستسر زوجتي كثيرًا لرؤيتك.

ماسيمو نجل رئيس المباحث هو طبيب ينتمي إلى جمعية من المتطوعين، ليس لهم مكان عمل محدد؛ فيذهبون إلى البلدان التي مزقتها الحروب ويقدمون عملهم على أفضل ما يستطيعون.

-أتعرف؟ إن ابني طبيب أطفال، هو الآن متواجد في رواندا، أنا حقًا قلق عليه.

-ألا زالت هناك اشتباكات؟

أنا لا أقصد الاشتباكات، بل أنني في كل يتثنى له الاتصال بنا، أشعر بأن الفرع والتألم يسيطران عليه أكثر.

بعد ذلك صمت رئيس المباحث، وبالطبع كي يلهيه عن تلك الأفكار التي تملكته بدأ مونتايبانو في إبلاغة بالأخبار:

-أنا متأكد بنسبة تسع وتسعون بالمائة من أنني قد توصلت لمعرفة اسم الفتاة التي عثر عليها مقتولة في كهف الحمل.

لم يتحدث رئيس المباحث بل نظر إليه وهو يفتح فمه.

-تدعى إليزا موسكاتو، كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا.

-وكيف عرفت هذا؟!

فقص عليه مونتايبانو كل شيء. أمسكت زوجة رئيس المباحث بيده كأنها تمسك بيد طفل حيث أجلسه على الأريكة، وتحادثا قليلًا، ثم نهض المأمور وقال أن لديه التزامات وأن عليه أن ينصرف، ولم تكن هذه هي الحقيقة؛ بل أنه أراد ألا يكون متواجدًا معهما أثناء مكاملة ابنهما، فيجب أن يستمتع رئيس المباحث وزوجته بمفردهم بصوت ابنهم البعيد في هدوء، حتى وإن كان الحديث مليء الحزن والألم، فرن الهاتف بعد أن خرج من المنزل.

-لقد أوفيت بوعدى وها أنا أعيد لك الصورة.

-إدخل إدخل.

تنحت السيدة بورجو جانبًا لتدعه يدخل، سأل زوجها بصوت عالٍ
من غرفة السفرة:

-من الطارق؟

-إنه المأمور.

-فلتدخليه إذًا!

هكذا صاح الناظر وكأن زوجته رفضت أن تدخل المأمور. قد كانا
يتناولوا العشاء، فسألته السيدة لتدعوه للعشاء:

-هل أضيف صحنًا لك؟

ثم وضعت صحنًا دون انتظار إجابة، وجلس مونتالبانو وقدمت له
السيدة حساء سمك ثقيل كما يجب أن يكون وذو نكهة البقدونس
المنعشة.

-هل تمكنت من اكتشاف شيء ما؟

هكذا سألت السيدة بدون أن تلاحظ نظرات الاستياء من زوجها
الذي اعتبر هذا الهجوم غير لائق.

-للأسف أجل سيدتي، أعتقد أن تلك الصورة ما هي إلا مونتاج
فوتوغرافي.

-يا إلهي! إذا فمّن أرسل لي بها أراد أن يخدعني!

-نعم، أعتقد أن هذا كان الغرض مما حدث، كذلك الغرض من هذا
هو محاولة التخلص من تساؤلاتك عن ليزتا.

تحدثت بما يشبه الصياح في وجه زوجها:

-أرأيت أنني كنت محقة؟!

فسألها الناظر:

-ولما تحدثيني بتلك الطريقة؟

-لأن ليزتا قد ماتت بينما هم أرادوا إقناعي أنها على قيد الحياة،
وأنها تعيش سعيدة ومتزوجة!

-أتدريين، ربما ليزتا نفسها قد قامت بـ..

فقالت السيدة وهي تضرب بمنديل السفرة على المنضدة:

-لا تتفوه بحماقاتك تلك!

ساد صمت ممزوج بإحراج، ثم استطردت السيدة قائلة:

-لقد ماتت، أصبح أيها المأمور؟

-آسف أن أقول لك نعم.

نهضت السيدة وخرجت من غرفة السفرة وهي تغطي وجهها
بيديها، وبمجرد أن خرجت سمعوا لها ما يشبه النحيب المتألم، فقال
المأمور:

-أنا آسف.

فقال الناظر بشفقة متبّعاً منطقاً له في الجدل الزوجي:

-لقد كانت تبحث عنها.

-اسمح لي بسؤال، هل حضرتك على يقين من أن ما كان بين ليزتا
وليزتا هي فقط تلك المشاعر التي حدثتني عنها أنت وزوجتك؟

-هلأ أوضح أكتر؟

فقرر مونتاالبانو أن يتحدث بصراحة شديدة:

-أستبعد أن يكون للو وليزتا على علاقة حب؟

راح الناظر يضحك نافيًا تمامًا ذلك الافتراض بحركة من يده ثم قال:

-اسمع، لقد كان للو متيم بفتاة من «مونتلوزا» والتي لم تعرف شيئًا عنه بعد يوليو من سنة ١٩٤٣، ولا يمكن أن يكون هو الميت الموجود في كهف الحمل لسبب بسيط هو أن الفلاح الذي رآه مصاب ويحمله الجنود على الشاحنة لنقله لمكان لا أعرفه، هو شخص أمين وجاد.

فقال مونتاالبانو:

-إذًا كل هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا، هو أنه غير صحيح أن ليزتا قد هربت مع جندي أمريكي، وبالتالي فإن ما قاله والد ليزتا لزوجتك لا يعدو كونه افتراءات وأكاذيب، أتعرف من يكون والد ليزتا؟

-فيما يبدو لي أنني أتذكر أن اسمه ستيفانو.

-أهو لا يزال على قيد الحياة؟

-لا، لقد مات عجزًا منذ حوالي خمس سنوات.

-ماذا كان يعمل؟

-على ما أظن أنه كان يتاجر في الأخشاب، لكن لم يكن أحد في بيتنا يذكر اسم ستيفانو موسكاتو.

-لماذا؟

-لأنه كان هو أيضًا ليس بالشخص الصالح، لقد كانت علاقته متوتره مع أقربائه من عائلة ريتزيتانو، أتعلمني؟ كانت لديه مشاكل

قانونية لا أعلم تحديدًا ما هي طبيعتها، وفي تلك الفترة في العائلات المتحضرة طيبة السمعة لا يتم ذكر تلك النوعية من الأشخاص، فقد كان هذا كالحديث عن الغائط، معذرة في استخدام هذا اللفظ.

عادت السيدة بورجو وعيناها محمرتين وبيدها خطاب قديم:

-هذا هو آخر خطاب جاءني من ليزتا عندما كنت في بلدة «أكوابندنتي» التي انتقلت للعيش فيها مع والداي.

سراديفالكو

١٠ يونيو ١٩٤٣

عزيزتي أنجيلينا، كيف حالك؟ وكيف حال أفراد عائلتك؟ لا تتخيلي كم أغبطك لأنه لا يوجد أي وجه مقارنة بين حياتك في بلدة من الشمال وهذا السجن الذي أقضي فيه أيامي، لا تظني أنني أبالغ عندما أقول سجن؛ فما زاد على الحراسة الخائفة التي يفرضها أبي عليّ، تلك الحياة المملة والسخيفة في بلدة مكونة من بضعة منازل.

تصوري أن يوم الأحد الماضي عندما كنت خارجة من الكنيسة ألقى عليّ التحية شاب يسكن هنا لم أكن حتى أعرفه، ففطن أيّ إلى ذلك فاستدعاه على انفراد وانهاled عليه بالصفعات، إنها تصرفات مجانيين! تسليتي الوحيدة هو الخطاب. لدي صديق طفل يبلغ من العمر عشر سنوات ابن أحد أبناء عمومتي، إنه ولد ذكي، هل تصورتي أبدًا أنه يمكن أن يكون الأطفال أخف ظلًا منّا؟

منذ بضعة أيام عزيزتي أنجيلينا وأنا أعيش في يأس؛ وصلتي بأعجوبة -قد يطول شرحها- بطاقة بريدية مكتوب بها أسطر قليلة منه هو هو! يقول لي فيها أنه يائس وأنه لم يعد يحتمل فراقني، وأنهم قد تلقوا أمرًا بالرحيل بعد أن توقفوا وقتًا طويلًا في «فيجاتا». أنا أشعر بأنني سأموت إن لم أره، قبل أن يرحل ويذهب

بعيدًا، لابد ثم لابد ثم لابد أن أقضي معه بضعة ساعات وإن
كلفني الأمر القيام بعمل جنوني، سأخبرك بما تم وحتى ذاك الحين
أبعث إليك بأشواقى الحارة جدًا.

صديقتك المخلصة.

ليزتا

قال لها المأمور:

-أنت إذا لا تعرفين من هذا الشخص.

-لا، لم ترد أن تخبرني عنه أبدًا.

-ألم ترد إليك خطابات أخرى منها؟

-أتمرح؟ إن وصول هذا الخطاب بحد ذاته يعتبر معجزة؛ فمضيّق «مِسينة»
في تلك الفترة لا يمكن اجتيازه؛ فقد كانويقصفوه باستمرار، ثم نزلت القوات
الأمريكية في التاسع من يوليو وانقطعت الاتصالات بشكل نهائي.

-معذرة سيدي، أتذكرين عنوان صديقتك في بلدة «سيراديفالكو»؟

-بالطبع، منزل عائلة «سورنتينو»، منزل رقم ١٨ في شارع «كرسبي».

همّ بوضع المفتاح في فتحة الكالون لكنه توقف مذعورًا؛ فقد
سمع من داخل المنزل أصوات وضوضاء، فكّر في أن يعود للسيارة وأن
يتسلح بالمسدس، لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك. فتح الباب بهدوء،
دون أن يصدر أقل صوت. وفجأة تذكر بأنه كان قد نسي تمامًا ليفيا
ولا يدري كم انتظرت من الوقت، فقضى نصف الليل محاولًا أن
يصالحها.

في تمام الساعة صباحًا قام على أطراف قدمه وطلب رقم هاتف
وتحدث بصوت منخفض:

-فاتسيو؟ أريدك أن تسدي إليّ معروفًا، عليك أن تتظاهر بأنك مريض.

-ليس لدي مانع.

-أريد خلال الليلة معرفة كل شيء عن حياة وموت وأفعال شخص يدعى ستيفانو موسكاتو، توفي هنا في «فيجاتا» منذ خمس سنوات، أسأل عنه في البلدة وانظر في سجل البطاقات وحيثما شئت وإلى من شئت، أؤكد عليك في ذلك.

-لا تقلق.

وضع سماعة التليفون وأخذ ورقة وقلم وكتب:

حبيبتي، عليّ أن أخرج بسرعة لظرف طارئ ولا أريد إيقاظك، وسأعود إلى المنزل بعد الظهر بكل تأكيد، لماذا لا تستقلين سيارة أجرة وتذهبين لزيارة المعابد؟ بالفعل إنها رائعة. قبلاقي.

خرج من المنزل كاللص؛ فلو استيقظت ليفيا ستكون مشكلة خطيرة. استغرق ساعة ونصف كي يصل إلى بلدة «سراديالكو»، كان جو الصباح صحواً، وجاءته رغبة في أن يُصفر بفمه لحناً؛ فقد كان يشعر بسرور. تذكر كايفس وهو كلب والده الذي كان يجوب المنزل كله منزعجاً وحزيناً، لكنه كان يبدو نشيطاً بمجرد أن يرى سيده عاكفاً على تجهيز الأوراق ثم يتحول إلى كتلة نشاط عندما يأخذه إلى حقل الصيد.

وجد فوراً شارع «كرسي»، وجد منزل رقم ١٨ عبارة عن قصر صغير من طراز القرن التاسع عشر مكون من طابقين، كان يوجد جرس ولافته مكتوب عليها «سورنتينو». سألتها فتاة لطيفة تبلغ من العمر تقريباً عشرون عاماً عما يريد:

-أود التحدث مع السيد أندريا سورنتينو.

-إنه والدي، وليس موجود الآن في المنزل، قد تجده في مقر البلدية.

-أيعمل هناك؟

-هو تقريباً كذلك، إنه عمدة البلدة.

قال أندريا سورنتينو:

-بالطبع أتذكر ليزتا.

وحالته جيدة جداً مقارنةً بعمره الذي تجاوز الستون عاماً؛ فلم يكن له سوى بضعة شعرات بيضاء ووجه مفعم بالحيوية.

-لكن لماذا تسألني عنها؟

-إنه تحقيق سري جداً، أنا آسف لأنني لن يمكنني أن أقول لك شيئاً، لكن صدقني يهمني جداً أن أعرف معلومات عنها.

-وهو كذلك أيها المأمور، اسمع: لي ذكريات رائعة لليزتا؛ كنا نتجول طويلاً سوياً في الريف وكنت أشعر بالفخر وأنا بجانبها، أشعر بأنني رجل كبير، وكانت تعاملني كأنني في نفس عمرها، بعد أن تركت عائلتها «سراديفالكو» وعادت إلى «فيجاتا» لم أعرف أي أخبار عنها إطلاقاً.

-ولماذا؟

تردد العمدة لبرهة:

-حسناً، سأخبرك لأنها قصص قد انقضت: أعتقد أن والدي ووالد ليزتا كانت بينهما خصومة هائلة وقد تشاجرا، في آخر شهر أغسطس من عام ١٩٤٣ عاد والدي إلى المنزل منزعجاً، وقد كان في «فيجاتا» لزيارة العم ستيفانو -كما كنت أناديه- وكان شاحباً وحرارته مرتفعة بسبب أمر لا أعلمه، أتذكر أن أمي فزعت بشدة

وبالتالي فزعت أنا أيضًا. لم أكن أعرف ما الذي جرى بينهما لكن في اليوم التالي وعلى المائدة قال أبي أنه يجب عدم ذكر اسم موسكاتو في منزلنا بعد الآن، وأطعت أمره رغم أنني كنت أرغب بشدة أن أسأله عن ليزتا، تعرف سيادتك تلك المشاجرات الهائلة بين الآباء...

-أتذكر حضرتك ذلك الجندي الأمريكي الذي كانت ليزتا تعرفه هنا؟

-هنا؟ جندي أمريكي؟!

-أجل، على الأقل كما أظن أنني فهمت: لقد تعرفت على جندي أمريكي في «سراديفالكو» وعشقا بعضهما البعض ثم صحبته وبعد فترة تزوجا في أمريكا.

-لقد سمعت أقاويل غير مؤكدة عن قصة الزواج تلك، لأن عمتي شقيقة أبي جاءتها صورة تظهر ليزتا وهي ترتدي فستان عرس ومعها جندي أمريكي.

-ولما تعجبت إذًا؟

-تعجبت من قولك أن ليزتا تعرفت على الجندي الأمريكي هنا، اسمع: عندما إحتل الأمريكيان بلدة «سراديفالكو» كانت ليزتا قد اختفت من منزلنا منذ عشرة أيام على الأقل.

-ماذا تقول؟!

-أجل يا سيدي، في عصر يومًا ما، ربما كانت الساعة الثالثة أو الرابعة رأيت ليزتا تتأهب للخروج من المنزل، سألتها إلى أين ستكون نزهتنا اليوم؟ فطلبت مني ألا أحزن فهي تفضل التنزه بمفردها في ذاك اليوم، وقد شعرت بجرح كبير. في المساء عند وقت العشاء لم تكن ليزتا قد عادت، فخرج العم ستيفانو وأبي وبعض الفلاحين للبحث عنها، بيدأنهم لم يجدوها، لقد قضينا أوقات مرعبة؛ فقد كان هناك بعض الجنود الإيطاليين والألمان يتجولون ففكر الرجال الكبار في أن وقعت

لها جريمة اغتصاب. في عصر اليوم التالي حيّانا العم ستيفانو وقال أنه لن يعود إن لم يعثر على ابنته، وبقيت والدّة ليزتا في منزلنا، مسكينة تلك السيدة المكلومة.

ثم حدث الإحتلال بعد ذلك وفرقتنا جبهة القتال، في نفس اليوم الذي نزلت فيه القوات عاد ستيفانو موسكاتو ليأخذ زوجته وقال أنه قد وجت ليزتا في «فيجاتا» وأن هروبها لم يكن إلا تصرف صبياني. الآن إذا استوعبت حديثي ستدرك أنه لا يمكن أن تكون ليزتا قد تعرفت على خطيبها هنا في «سراديفالكو»، بل في «فيجاتا» بلدتها.





الفصل العشرون

أعرف أن المعابد رائعة؛ فمنذ أن عرفتك قمت بزيارتها قرابة الخمسون مرة، لذلك يمكنك أنت تُدخل كل عمومد بها في المكان الذي تعرفه. سأسافر لقضاء بعض مصالحتي ولا أعرف متى سأعود.

هكذا كانت رسالة ليفيا تقطر سخطاً، الأمر الذي أحزن مونتابانو، لكنه شعر بجوع متوحش لدى عودته من «سراديفالكو»، ففتح الثلاجة ولم يجد شيئاً. ليفيا التي لم تكن تريد وجود الخادمة أثناء وجودها «بفيجاتا» دفعتها نزعته السادية^{٤٠} إلى القيام بتنظيف المنزل بشكل أشد دقة، فلم يوجد في جنبات المنزل حتى فتات الخبز.

عاد إلى السيارة وذهب إلى مطعم سان كالوجيرو الذي كان يصدد إغلاق الأبواب

40- نزة تقوم على التلذذ بانزال الآلام بالآخرين. (المترجم)

-مطعمنا مفتوح لأجلك دائماً سيدي المأمور.

قام المأمور انتقاماً من ليفيا وأيضاً بسبب الجوع بالتهام الطعام بشكل ربما يودي به إلى الطبيب.

...

قال مونتاالبانو:

-هناك عبارة جعلتني أفكر.

عندما قالت ليزتا إنها ربما تقوم بعمل جنوني؟

كان يجلس في الصالة لاحتساء القهوة كل من المأمور والناظر والسيدة أنجيلينا. أمسك مونتاالبانو بيده خطاب الشابة موسكاتو وقد انتهى لتوه من قراءته بصوت مسموع.

-لا يا سيديتي؛ فنحن نعرف أنها قامت بذلك العمل الجنوني فيما بعد، لقد قال لي السيد سورنتينو -الذي لا يوجد لديه سبب أن يكذب علي- أن بعد أيام قلائل من وصول الأمريكان، خطرت لـ ليزتا هذه الفكرة العبقريّة بأن تفر من «سراديغالكو» لتأتي إلى هنا إلى «فيجاتا» للقاء حبيبها.

فسألت السيدة في حزن:

-وكيف نفذت ذلك؟

فتدخل الناظر الذي قرر أن يشارك في الحوار، مسلماً على مضض بفكرة أن ربما تكون خيالات زوجته ذات قيمة حقيقة يوماً ما:

-لقد طلبت من قائد سيارة عسكرية أن يوصلها، ففي تلك الفترة كان من السهل القيام بذلك فالإيطاليين والألمان كانوا يجوبون الشوارع باستمرار. وفتاة جميلة مثلها لا يجب أن تتعب.

فقلت السيدة:

-وماذا عن القنابل؟ والقذائف المدفعية؟ يا إلهي، يال شجاعتها!

فسأل الناظر في ضيق:

-ماذا قلت إذًا؟

-عندما كتبت ليزتا للسيدة بأن حبيبها أخبرها بتلقيهم أمر بالرحيل عن «فيجاتا» بعد مكوثهم لفترة طويلة فيها.

-لم أفهم.

-اسمعي سيدتي، تلك العبارة تفيد بأنه قد ظل في «فيجاتا» لفترة طويلة، مما يعني ضمناً أنه ليس من أهل «فيجاتا»، الأمر الثاني: هو أنه أخبر ليزتا بأنه مرغم ومجبر على ترك البلدة، الأمر الثالث: كان يستخدم صيغة الجمع في حديثه؛ وبالتالي فإن ثمة مجموعة أشخاص هم من سيرحلون وليس هو فقط. كل هذا يجعلني أظن أنه جندي، ربما أكون مخطئ غير أن هذا هو التفسير الأكثر منطقية.

فقال الناظر:

-منطقية!

-أخبريني سيدتي: متى كانت أول مرة أخبرتك فيها ليزتا بأنها وقعت في الحب، أتذكرين هذا؟

-أجل أتذكر هذا، لأنني في هذه الأيام لا أفعل سوى أنني أحاول جاهدة أن أتذكر كل التفاصيل الدقيقة للقاءاتي مع ليزتا. لقد كان هذا بالتأكيد بين شهري مايو ويونيو في عام ١٩٤٢، لقد نشطت ذاكرتي بدفتر مذكرات عثرت عليه.

تزمز زوجها قائلاً:

-لقد قلبت المنزل رأسًا على عقب.

-يجب معرفة ما هي الحاميات العسكرية التي كانت موجودة هنا بين بداية عام ١٩٤٢ -وربما قبل ذلك أيضًا- وحتى يوليو لعام ١٩٤٣.

قال الناظر:

-وهل تظن أن ذلك بالأمر اليسير؟ مثلًا أنا أتذكر حشد من الناس كما كان توجد بطاريات صواريخ مضادة للطائرات وأخرى مضادة للسفن وقطار مسلح بالمدافع كان مخبأ بداخل نفق، وأتذكر وجود جنود بالحي وآخرون في الحصون التي تحت الأرض، أما جنود البحرية فلا؛ فقد كان أولئك يذهبون ويجيئون، عمليًا إن هذا البحث مستحيل.

أصابهم هذا باليأس، ثم نهض الناظر:

-سأذهب للاتصال ببورانو؛ فلقد كان متواجدًا بصفة مستمرة في «فيجاتا» قبل الحرب وأثناءها وبعدها، أما أنا فقد نزلت في وقت ما.

استطرد السيدة حديثها:

-ربما كانت مشاعرها تجاهه مجرد إعجاب، ففي تلك السن لا يمكن للانسان التمييز، لكن من المؤكد أنه يمثل لها أمرًا مُلِحًا لدرجة أنه يكلفها الهروب من المنزل ويكلفها عصيان أبيها الذي كان كالسجّان أو على الأقل كان سجّانًا في رأيها هي.

كان هناك ثمة سؤال على شفتي مونتالبانو ولم يرد طرحه لكن فطرته كصائد غلبت عليه:

-معذرة لمقاطعتك، هل لك أن تحددني.. أقصد: هل لك أن تخبريني بما تقصده ليزتا بكلمة «سجّان»؟ أكانت الغيرة المعروفة عن أهل

صقلية على الابنة؟ أكان حب للسيطرة؟

نظرت إليه السيدة لبرهة ثم نظرت للأسفل:

-اسمع، كما قلت لك فإن ليزتا كانت أكبر مني بكثير وكنت أنا وقتها طفلة. لقد منعني أبي من الذهاب إلى منزل موسكاتو، لذلك كنا نتقابل في المدرسة أو في الكنيسة، وكان يمكننا أن نتحدث سويًا في هدوء لبضعة ساعات، والآن أنا أفكر كثيرًا فيما كانت تقصده؛ أظن أنني وقتها لم أفهم بعض الأمور..

-أي أمور تلك؟

-مثلًا، كانت ليزتا تسمي والدها بـ «أبي» حتى يومًا ما، بعده كانت تسمية دومًا بـ «ذاك الرجل». هذا أيضًا ربما لا يعني شيئًا، لكنها جاءتني مرة أخرى وقالت لي: «سينتهي بي الحال بأن يتسبب «ذاك الرجل» في ضرر لي، «ضرر بالغ». حينها فكرت في أنها تقصد ضربات باليد أو بالعصى، أفهمني؟ أما الآن فقد ساورني شك هائل حول المعنى الحقيقي لتلك العبارة.

توقفت السيدة وأخذت رشفة من الشاي ثم استأنفت حديثها:

-لطالما كانت شجاعة، بل شجاعة جدًا؛ ففي المخبأ عندما كانت القنابل تنهال على البلدة وكنا نرتعد ونبكي من الفزع والخوف كانت هي من تشجعنا وتطمأننا. لكنها تحتاج لمضاعفة ما كان لديها من شجاعة كي تفعل ما فعلته، أي أن تتحدى والدها وتسافر تحت القذائف المدفعية وتأتي إلى هنا لتمارس الحب مع شخص ليس حتى خطيبها بشكل رسمي، في تلك الفترة كنا مختلفين الشباب في هذه الأيام.

قاطع الحوار الداخلي للسيدة عودة الناظر وهو منفعل جدًا:

-لم أجد بورانو، ليس في المنزل، هيا أيها المأمور فلنذهب.

-هل سنبحث عن المحاسب؟

-للا، لقد خطرت لي فكرة، إذا حالفنا الحظ وصح تخميني سأندر
للقدّيس كالوجيرو خمسين ألف ليرة في العيد القادم.

القدّيس كالوجيرو هو قدّيس أسود يعشقه أهل البلدة. قال مونتالبانو
وقد غمره الحماس:

-إذا صح تخمينك فسأزيد على ذلك بخمسين ألف إضافية، لكن هل
يمكن أن أعرف إلى أين نحن ذاهبون؟

-سأخبرك فيما بعد.

فألحّت السيدة قائلةً:

-أتركوني فجأة في حيرتي هذه؟

كان الناظر قد خرج من الباب مسرعاً، فيما انحنى مونتالبانو وقال:

-سأطلعك أنا على كل المستجدات.

همس الناظر بمجرد خروجهما من المنزل:

-كيف لي أن أنسى أمر الـ باتشينو؟!

-من تكون تلك السيدة؟

هكذا سأله مونتالبانو، حيث أنه تخيلها سيدة قبيحة تبلغ من العمر
خمسين عاماً. لم يجب الناظر فسأل مونتالبانو سؤال آخر:

-هل نستقل السيارة؟ هل سنذهب إلى مكان بعيد؟

-أي مكان بعيد هذا؟ إنه على بعد خطوات.

-هلأ أخبرتني من تكون السيدة باتشينو في هذه؟

-لماذا تطلق عليها سيدة؟ إنها سفينة دعم كانت تستخدم في إصلاح الأعطال التي قد تطرأ على السفن الحربية، رست في الميناء تقريباً عند نهاية سنة ١٩٤٠ ولم تتحرك منذ ذلك الحين. طاقمها كان مكون من بحارة كانوا في نفس الوقت فنيين محركات ونجارين كهربائيين وسباكين وقد كانوا جميعاً شباب، أصبح الكثير منهم كأنهم في منزلهم نظراً لبقائهم لفترة طويلة، انتهى بهم الحال لأن أصبحوا من أهل البلدة وكونوا صداقات، كذلك خطبوا الفتيات، اثنان منهم تزوجا من فتاتان من هنا ومات واحد منهم يدعى تريباكوفتش والآخر يدعى مارين صاحب ورشة سيارات الموجودة في ميدان «جاريبالدي»، أتعرفه؟

-إنه الميكانيكي الخاص بي.

هكذا قال مونتابانو وفكر في حزن أنه سيستأنف رحلته في ذكريات المسنين.

رجل بالغ من العمر خمسين عاماً يرتدي بذة متسخة جداً، سمين وحاد الطباع لم يحيي المأثور وهاجم الناظر:

-هل أتيت كي تضع وقتك هنا؟! السيارة غير جاهزة بعد، قلت لك أنها تتطلب الكثير من الإصلاح!

-لم أحضر لأجل السيارة، هل والدك موجود؟

-بالطبع موجود، وإلى أين عساة سيذهب؟ إنه ماكث هنا كي يزعجني بقوله لي أنني لا أستطيع العمل وأن الميكانيكيين المهرة في العائلة هو وابن أخيه فقط.

كان هناك شاب في عمر العشرين عاماً يرتدي هو أيضاً بذة العمل

ينظر بداخل غطاء محرك سيارة رفع رأسه وحياّ الإثنين بابتسامة. اجتاز مونتالبانو والناظر الورشة والتي كانت في الأصل مخزن ووصلا إلى ما يشبه فاصل مكون من منضدات.

بالداخل كان يجلس أنطونيو مارين خلف مكتب وقال:

-لقد سمعت كل شيء ولولا أن التهاب المفاصل منعني الخروج،
لعرفت كيف أعلم هذا الولد الذي بالخارج الأدب.

-لقد أتينا بحثًا عن معلومة.

-تفضل بالحديث أيها المأمور.

-يستحسن أن يتحدث الناظر بورجو.

-هل تتذكر كم عدد أفراد طاقم سفينة باتشينوفا الذين قُتلوا أو
أصيبوا أو أصبحوا في عداد المفقودين بسبب الحرب؟

فقال العجوز في تحمس:

-لقد كنا محظوظين.

من الواضح أن الحديث عن تلك الفترة البطولية يروق له؛ ومجرد
أن يبدأ الحديث عن هذا الموضوع وسط عائلته يطالبونه بالتوقف،
ثم استطرد:

-كان من بيننا قتيل لقي مصرعه بسبب شظية من قنبلة كان يدعى
أرتورو ريبلاتو، ومصاب بشظية أيضًا اسمه سيلفيو ديستيفانو، وآخر
مفقود يدعى ماريو كونش، أندرون؟ لقد كنا مترابطين جدًا فيما بيننا،
كان معظمنا من فينيسيا وتريستي..

سأل المأمور:

-هل فقد في البحر؟

-بحر؟ أي بحر؟ لقد كانت سفينتنا دائماً راسية في المينا، في الحقيقة لم نكن إلا كجزء من المقاعد التي نجلس عليها.

-ولماذا أعتبر أنه مفقود في ذاك الوقت؟

-لأنه لم يعد إلى السفينة ليلة السابع من يوليو عام ١٩٤٣ وقد وقع في عصر ذلك اليوم قصف عنيف وقد كان هو في نزهة حرة، لقد كان كونش من بلدة «مونفالكوني» ولديه صديق من نفس بلده والذي كان صديقي في نفس الوقت ويدعى ستيفانو برمودا. حسناً في صباح اليوم التالي أرغم برمودا جميع أفراد الطاقم على البحث عن كونش. ظللنا يوماً بأكمله نسأل عنه في كل منزل ولم نجد شيئاً، ذهبنا إلى المستشفى العسكري والمستشفى المدني وذهبنا إلى المكان الذي يجمعوا فيه جثث الذين وجدوهم تحت الانقراض ولم نعثر على شيء، حتى أن الضباط انضموا إلينا لأننا قبل ذلك بفترة جاءنا إخطار سابق أوما يشبه التنبيه بأن علينا الإبحار في الأيام القادمة، بيد أننا لم نبحر مطلقاً فقد وصل الأمريكيان أولاً.

-أليس من الممكن أن يكون ببساطة قد هرب من الخدمة العسكرية؟

-كونش؟ بالطبع لا! لقد كان يؤمن بالحرب، كما أنه شاب فاشي، صحيح أنه شاب ماهر لكنه فاشي، كما أنه كان مغرمًا.

-ماذا تعني؟

-كان مغرمًا ومولعًا بفتاة من هنا كما كنت أنا أيضًا من ناحية أخرى، كان يقول أنه سيتزوجها عندما تضع الحرب أوزارها.

-لم تصلكم أخبار عنه بعد ذلك؟

-أتعرف، عندما وصل الأمريكيان، اعتقدوا أن سفينة دعم كسفينتنا والتي كانت تحفة- أنها ستعود عليهم بالنفع، فاحتفظوا بنا في الخدمة العسكرية بالزي الإيطالي وأعطونا شارة نرتديها على ذراعنا

تجنبًا للالتباس. كان لدى كونش كل الوقت اللازم كل يظهر من جديد، لكنه لم يظهر، فقد تبخر. ظللت أنا على اتصال بريمودا كنت أسأله من حين لآخر عما إذا كان كونش قد اتصل به أو إذا كان لديه أخبار عنه، لكن لا شيء على الإطلاق.

-لقد قلت أن كونش كانت له فتاة هنا، أتعرفها؟

-إطلاقًا.

كان هناك ثمة سؤال آخر يريد مونتالبانو أن يطرحه إلا أنه توقف، ونظر للناظر معطيًا إياه الكلمة، فقبل الناظر الاقتراح الذي عرضه عليه مونتالبانو بكرم أخلاق وسأل:

-أتعرف على الأقل اسمها؟

-تعرف أن كونش كان شخصية كتومة جدًّا، لقد قال لي مرة واحدة فقط أن اسمها ليزتا.

ماذا كان هذا؟ نطقت الكلمة وتوقف الزمن، تسمّر مونتالبانو والناظر في مكانهما، ثم وضع المأمور يده على جنبه فقد شعر بوخزة شديدة فيه، ووضع الناظر يده على قلبه واستند على سيارة كي لا يسقط، ففزع مارين:

-يا إلهي ماذا قلت؟! ماذا قلت؟!

بمجرد أن خرجا من الورشة صاح الناظر في سعادة:

-لقد صحّ تخميننا!!

وراح يخطو خطوات راقصة، توقف شخصان كانا يعرفانه ويعرفان عنه الصرامة والجدية وقفا أمامه مذهولان. بعد أن عبر الناظر عما بداخله من فرح عاد جادًّا كما كان:

-لاحظ أن علينا نذرًا للقديس كالوجيرو بمقدار خمسون ألف ليرا على كل فرد منا، لا تنساه.

-لا لم أنسه.

-هل تعرف أنت القديس كالوجيرو؟

-منذ وجودي في «فيجاتا» وأنا أحتفل بالعيد كل عام.

-هذا لا يعني أنك تعرفه: القديس كالوجيرو -كما يقال- لا يتغاضى عن أي شيء، أنا أقول لك هذا لمصلحتك.

-أتمزح؟

-إطلاقاً؛ إنه قديس محب للانتقام من السهل إغضابه، إذا وعده شخص ما بشيء فلا بد من إنفاذ وعده، فمثلاً: إذا نجا إنساناً من حادث سيارة وأنذر نذرًا لهذا القديس ولم يوفِ بنذره، أقسم لك بأنه سيتعرض لحادث آخر وعلى الأقل ستذل قدماه، هل كلامي واضح؟

-واضح بشدة.

-هيا بنا نعود للمنزل، كي تحكي كل شيء لزوجتي.

-أنا؟

-أجل؛ فأنا لا أريد أتركها تشعر بلذة الانتصار لأنها كانت محقة.

...

قال مونتالبانو:

-إختصارًا للحديث، قد تكون الأمور قد سارت على هذا النحو:

يعجبه أن يسرد أخبار التحقيق وهو يرتدي الخف وأمامه فنجان قهوة وهو يجلس في منزل من عصور قديمة:

-البحار ماريو كونش الذي أصبح كواحد من أهل بلدة «فيجاتا» عشق ليزتا موسكاتو وعشقتة لكن كيف تقابلا وتعارفا، الله وحده يعلم ذلك.

قالت السيدة:

-لقد فكرت طويلاً في هذا الأمر، لقد كانت هناك فترة معينة -يبدو لي أنها مابين عام ١٩٤٢ وشهر مارس أو إبريل من عام ١٩٤٣- كانت تتمتع فيها ليزتا بحرية أكبر؛ حيث أن والدها كان عليه السفر بعيداً عن «فيجاتا» للقيام ببعض الأعمال، فلابد أن العشق والمقابلات السرية بينهما أصبحت ممكنة في تلك الفترة.

استأنف مونتاالبانو:

-بالفعل عشق كل منهما الآخر، ثم جاءت عودة والدها لتمنعهما من اللقاء كما أن النزوج حال بينهما أيضاً. حينئذ وصلت الأخبار عن رحيله الوشيك، فهربت ليزتا وكانت تأتي هنا لمقابلة كونش لانعرف أين بالتحديد. وكان البحار كي يظل أطول فترة ممكنة مع ليزتا لا يحضر على متن السفينة، وفي لحظة ما بينما كانا نائمان تم قتلها، وحتى هذه النقطة كل شيء طبيعي.

فاندeshت السيدة وقالت:

-كيف أن هذا طبيعي؟!

-معذرةً، أقصد القول أن عند هنا تتابع الأحداث واضح، ربما يكون من قتلها عاشق مرفوض، أو أن يكون والد ليزتا نفسه هو من باغتها وشعر بأن شرفه قد تلوث، هذا ما يجب اكتشافه.

قالت السيدة:

-وكيف ستعرف ذلك؟ ألا يهتمك من قتل هذان الشابان المسكينان؟

لم يرد أن يجيبها بأن القاتل لا يهتم؛ فما يثير فضوله هو السبب في أن شخصًا ما -ربما يكون القاتل نفسه- نقل الجثمانين إلى الكهف، وأن يعد مسرحية الصحن والإبريق والكلب الفخاري.

قبل أن يعود إلى المنزل مر على متجر مواد غذائية وابتاع مائتي جرام من سباجيتي الكاتشو والفلفل الأسود وقطعة من خبز القمح الخشن، فقد أعد المؤن لأنه على يقين من أنه لن يجد ليفيا، بالفعل لم تكن موجودة وكان كل شيء كما هو عندما خرج للذهاب إلى بورجو.

لم يكن لديه وقت حتى ليضع الكيس على المنضدة فقد رن الهاتف وكان رئيس المباحث:

-مونتالبانو، أود إخبارك بأن ليكالسي وكيل الوزارة اتصل بي اليوم ويريد معرفة لماذا لم أرسل له حتى الآن طلبًا لترقيتك.

-ماذا يريد مني هذا الرجل؟!

-لقد سمحت لنفسني تأليف قصة مؤثرة وغريبة، قلت له.. لم أصارحه بالحقيقة.. لقد تركته ليفهم بنفسه واقتنع بالقصة، يبدو أنه عاشق للقصص العاطفية، لكنه حل المسألة: قال لي أن أكتب له بأن يمنحك علاوة كبيرة، وقد كتبت الطلب وأرسلته، أتريد سماعه؟

-بل أوفر مجهودي.

-يالأسف، كنت أظن أنني قمت بإنجاز صغير.

أعد المائدة، وقطع شريحة سميكة من الخبز، ثم دق الهاتف مرة أخرى، لم تكن ليفيا كما تمنى، بل كان فاتسيو.

-أيها القائد، لقد ظللت أعمل طوال هذا اليوم من أجلك، هذا المدعو ستيفانو موسكاتو ليس شخصًا عاديًا.

-هل هو أحد أفراد المافيا؟

- لا أعتقد أنه من المافيا بالمعنى الدقيق، لكن أظن أنه ذو سلوك عنيف، لديه عدة إدانات بالشجار والعنف والاعتداء، ولم تضح لي عنه جرائم للمافيا؛ فعضو المافيا لا يدان في مثل تلك التفاهات.

-ومتى كانت آخر إدانة له؟

-سنة ١٩٨١ من المؤكد أنه كان في آخر أيام حياته، حين انهال على شخص ما وأوسعاه ضربا بالكرسي وشج رأسه.

-أيمكنك أن تخبرني ما إذا كان قد قضى فترة سجن في الفترة بين عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٣؟

-وكيف لا؟ هناك عقوبة عراق وإصابة، من مارس لعام ١٩٤٢ حتى ٢١ إبريل لعام ١٩٤٣ وقد قضاها في باليرمو في سجن أوتشاردوني

الأخبار التي جاءه بها فاتسيو جعلت «اسباجيتي الكاتشو» بالفلفل الأسمر أشهى، والتي يحبها بشدة.



الفصل الحادي والعشرون

استهل قريب جالوتسو نشرة أخباره بجريمة خطيرة من الواضح جداً أنها تأخذ طابع المافيا وقد وقعت في ضاحية كاتانيا: تاجر معروف ومحترم في المدينة، المدعو كورادو برانكاتو، صاحب مخزن كبير يمد المتاجر بالبضاعة، قرر أن يمنح نفسه راحة في فترة ما بعد الظهر في فيلته الصغيرة الواقعة على مقربة من حدود المدينة.

بعد أن أدخل المفتاح في الكالون فتح الباب وبعدها لم ير شيئاً: حدث انفجار مريع بسبب تركيبة عبقرية كانت تربط فتح الباب بشحنة مادة متفجرة فأدت إلى نسف الفيلا بالكامل ومعها التاجر

وزوجته السيدة تاليا فيكو جوزيبا. وأضاف الصحفي أن التحقيقات تعقدت حيث أن السيد برانكاتو كان تحت الرقابة، ولا يبدو أنه متورط في أي عمل من أعمال المافيا بأي شكل من الأشكال.

أطفاً مونتالبانو التلفاز، وأخذ يصفر بفمه لحن السيمفونية الثامنة للموسيقار شوبرت (الغير مكتملة) وقد أستحضر لحنها بشكل ممتاز، وأدى كل الفقرات بشكل صحيح. قام بطلب رقم هاتف ممي أوجيلو، فبالطبع إن نائبه يعرف معلومات أكثر عن ذلك الحادث لكن أحدًا لم يرد.

أخيرًا بعد أن انتهى مونتالبانو من تناول الطعام قام بإزالة أي أثر للأكل وغسل كل شيء جيدًا حتى الكأس الذي شرب فيه مقدار ثلاث أصابع من النبيذ. خلع ملابسه وكان مستعدًا للنوم عندما سمع صوت سيارة تتوقف وإغلاق أبواب السيارة، ثم صوت السيارة وهي تنصرف، قام بسرعة كبيرة بالدخول تحت الملائة وأطفأ الضوء وتظاهر بأنه يغط في نوم عميق، ثم سمع صوت فتح وغلق باب المنزل ووقع خطواتها التي توقفت فجأة، فأدرك مونتالبانو أن ليفيا توقفت على أعتاب غرفة النوم وأنها تنظر إليه:

-لا تتصرف كالمهرج.

فاستسلم مونتالبانو، أشعل الضوء وقال:

-كيف عرفتي أنني أتصنع النوم؟

-من طريقة تنفسك، هل تعرف أنت كيف تتنفس وأنت نائم؟ كلا، أما أنا فأعرف.

-أين كنتي؟

-كنت في هيراكليا مينوا^{٤١} وسيلينيوس^{٤٢}.

-مفردك؟

-سيدي المأمور، سأخبر سيادتك بكل ماحدث وسأعترف بكل شيء، لكن رجاءً فلتوقف هذا الاستجواب! لقد كان ممي أوجيلو في صحبتي.

ارتسمت علامات الاستياء على وجه مونتابانو وأشار بإصبعه مهدداً:

-أنا أحذرك يا ليفيا! لقد استولى أوجيلو على مكتبي، فلا أريد أن يستولي على شيء آخر ملكي.

فتسمرت ليفيا في مكانها:

-سأتظاهر بأنني لم أفهم فذلك خير لكلانا، على كل حال أنا لست شيء ملكك أيها الصقلي الأبله!

-حسنًا، سامحيني.

وواصل حديثهما حتى بعد أن خلعت ليفيا ملابسها واضطجعت على الفراش، إلا أن مونتابانو قرر ألا يغفر تلك الفعلة لممي، فنهض من الفراش:

-إلى أين أنت ذاهب؟

-سأتصل بممي.

41- مدينة في صقلية، كانت مدينة يونانية قديمة تقع على الساحل الجنوبي من الجزيرة عند مصب نهر هاليكوس.

42- موقع أثري يوناني على الساحل الجنوبي لصقلية جنوب إيطاليا. يقع بين وادي نهرى بيليتشي و موديوني في مقاطعة تراباني. يحتوي الموقع الأثري على خمسة معابد ترتكز على الأكروبول. من المعابد الخمسة فقط معبد هيرا و المعروف أيضا باسم "المعبد إي" أعيد بناؤه. (المترجم)

-هلاً تركته وشأنه! إنه حتى لم يحلم بالقيام بشيء قد يمس شرفك.

-ألو، ممي؟ أنا مونتالبانو، آها أنت وصلت للمنزل للتو؟ حسناً. لالا تقلق، ليفيا بخير تام، إنها تشكرك كثيراً على اليوم الجميل الذي أمتعتها به، كذلك أنا أيضاً أشكرك، اسمع يا ممي هل علمت أنهم قامو بتفجير كورادو برانكاتو في كاتانيا؟ لا أنا لا أمزح، لقد جاء هذا في التلفاز. لا تعرف شيئاً عن هذا؟ وكيف لا تعرف شيئاً عن هذا؟ آه فهمت ، لقد كنت طوال اليوم خارج المنزل، وأيضاً كان زملائنا بكاتانيا كانوا يبحثون عنك في كل مكان، كذلك رئيس المباحث تساءل أين أنت. ماذا ستفعل إذا؟ حاول أن تتصرف في هذه المشكلة، فلتنم جيداً يا ممي.

قالت ليفيا:

-لو قلت أنك شخص حقير فهذا قليل عليك!

قال مونتالبانو وقد دقت الساعة الثالثة صباحاً:

-حسناً، أنا أعترف أن الذنب ذنبي؛ حيث مكثت هنا وتصرفت كأنك غير موجودة وسيطرت عليّ أفكارى، فلطالما اعتدت أن أبقى وحيداً، فلننصرف من هنا.

فسأله ليفيا:

-وأين تترك رأسك؟

-ماذا تقصدين؟

-أقصد أنك ستأخذ رأسك معك بكل ما فيها؛ وبالتالي فلا بد من أنك ستواصل التفكير في شئونك حتى وإن بعدنا عن هنا آلاف الكيلومترات.

-أقسم لك أنني سأفرغ رأسي قبل أن نساfer.

-وإلى أين سنذهب؟

حيث أن ليفيا كانت متأثرة بالصدمة السياحية الأثرية؛ ففكر مونتالبانو جدياً أن يساعدها وقال:

-أنت لم ترين أبداً جزيرة «موتيا»^{٤٣}، أليس كذلك؟ إذاً فما سيتم كلاًتي: فلنساfer صباح اليوم في حوالي الحادية عشرة ونساfer إلى مدينة «مازر»^{٤٤}، هناك صديقاً لي، إنه فالنتي نائب رئيس المباحث والذي لم أره منذ فترة، ثم نواصل رحلتنا إلى مدينة «مرسي علي»^{٤٥} وبعدها نزور «موتيا»، وعند عودتنا من هناك إلى «فيجاتا» سننسق جولة أخرى.

وهكذا تصالحا.

جوليا زوجة نائب رئيس المباحث فالنتي ليست فقط في نفس عمر ليفيا بل أنها كذلك من مواليد مدينة «سستري»، فاستلطفت كلاً

43- هي مدينة قوية قديمة على جزيرة قبالة الساحل الغربي لجزيرة صقلية، بين (دريانونم (تراباني) ولبليبايوم (مارسالا).

44 -الإيطالية: Mazara del Vallo مازارا دل فالو- وهي مدينة إيطالية في أقصى غرب جزيرة صقلية مطلة على البحر المتوسط عند مصب وادي المجنون (Mazaro)، ضمن مقاطعة طرابنش، تبعد عن مدينة طرابنش 55 كم جنوباً، كما تبعد عن الساحل الإفريقي ممثلاً بتونس مسافة ١٠٠ كم.

45- بالإيطالية: Marsala مارسالا- مدينة إيطالية تقع ضمن مقاطعة طرابنش في صقلية سكانها ٨٠,٣٩١ نسمة، ساحلها المنخفض هو أقصى نقطة في غرب الجزيرة وعلى منتصف المسافة بين مدينتي طرابنش ومدينة مازر. أعطاهها العرب اسمها الإيطالي "مارسالا" المستمدة من "مرسي علي" و قد تكون «علي» هنا بمعنى "العظيم" حيث أن ميناء ليليبايوم القديم كان ضخماً. (المترجم)

منهما الأخرى بسرعة، لم يستلطف مونتالبانو تلك السيدة بنفس الدرجة بسبب المكرونة التي طهتها زيادة عن المطلوب بشكل سيئ، هذا الطهو الزائد الذي يمكن أن يلاحظه أي مختل عقلياً، وكذلك بسبب تلك القهوة التي لا يجروء على شربها أحد حتى على ولو متن الطائرات.

بعد الانتهاء مما يسمى الغذاء، عرضت جوليا على ليفيا أن تظل معها في المنزل، وأن تخرجا سوياً في وقت لاحق، بينما تبع مونتالبانو صديقه إلى غرفة المكتب وقد كان في انتظار نائب رئيس المباحث رجل أربعيني ذو سواف طويلة ووجه صقلي محترق من الشمس، قال:

-كل يوم موضوع جديد، معذرة سيدي النائب، لكن يجب أن أتحدث إليك؛ فالأمر مهم.

-أقدم لك البروفيسور فريد رحمن صديق تونسي.

قالها فالنتي، ثم التفت إلى البروفيسور قائلاً:

-هل سيطول شرح هذا الأمر؟

-ربع الساعة على أقصى تقدير.

فقال مونتالبانو:

سأنصرف أنا كي أذهب لزيارة الحي العربي.

فتدخل فريد رحمن:

-لو انتظرتني، سأكون سعيداً بإرشادك في جولتك.

فاقترح فالنتي قائلاً:

-اسمعني، أنا أعرف أن زوجتي لا تحسن إعداد القهوة، على بعد

ثلاثمائة متر من هنا يوجد ميدان «موكارتا»، فلتجلس في المقهى وتحسني قهوة لذيذة، وسيأتي البروفيسور كي يأخذك من هناك.

لم يطلب القهوة مباشرة، بل راح يأكل طبق مكرونة في الفرن، مغذي وذو رائحة طيبة انتشله من العتمة التي سقط فيها بسبب فن السيدة جوليا في الطهي، عندما وصل رحمن أخفى مونتالبانو آثار المكرونة وكان أمامه فقط فنجان برئ من القهوة، وتوجها صوب الحي:

-كم عددكم كعرب هنا في مدينة «مازر»؟

-لقد تجاوزنا ثلث إجمالي عدد سكان المدينة.

-هل تقع حوادث بينكم وبين أهل «مازر»؟

-كلا، قليلاً ما تقع تلك الحوادث، في الواقع ما يحدث لا يذكر مقارنةً بما يحدث في مدن أخرى. أتدري أننا -العرب- بمثابة الذاكرة التاريخية لأهل «مازر» نكاد نكون كشيء من التراث، فنحن أهل البلد الأصليين: الإمام المازري -مؤسس مدرسة القانون المغربية ولد في «مازر» وكذلك الفقيه اللغوي ابن البر الذي نُفي من المدينة عام ١٠٦٨ ؛ لأنه كان مولع بالخمر، بيد أن السبب الرئيسي هو أن أهل «مازر» هم سكان ساحل وساكن الساحل لديهم حسن تصرف؛ ويقدرّون قيمة العيش في الوطن، بمناسبة البحر: أتدري أن الصيادين اللذين يعملون على زوارق هنا لديهم طاقم صيد مختلط ما بين الصقليين والتونسيين؟

-هل لديك وظيفة حكومية رسمية؟

-لا، لقد نجانا الله من الرسمية، كل شيء هنا يسير على خير ما يرام لأن كافة الأمور تتم بشكل ودي؛ فأنا معلم مرحلة ابتدائية لكن أقوم بدور الوسيط بين الأهالي والسلطات المحلية، سأخبرك بمثال لحسن التصرف: لقد منحنا الناظر قاعات دراسة -لنا نحن المعلمون التونسيون- فقمنا بإنشاء المدرسة الخاصة

بنا، لكن المسئول الحكومي المختص رسمياً بالتجهيز لا يعرف شيئاً عن حقيقة هذا الموقف.

الحي عبارة عن قطعة من تونس، تم نسخة ووضعه في صقلية كما هو تماماً: كانت المحلات التجارية مغلقة لأن اليوم هو الجمعة يوم العطلة، لكن الحياة في الأزقة الضيقة كانت زاهية ومنتعشة، اصطحبه رحمن أولاً لزيارة الحمام العام، وهو المكان المعتاد للقاءات الاجتماعية للعرب ثم اصطحبه إلى سقيفة التدخين وهو مقهى يدخلون فيه الشيشة، ثم مرا على ما يشبه المخزن الخاو، وكان هناك رجل مسن ذو ملامح جادة يفتش الأرض متربحاً يقرأ ويعلق على كتاب وأمامه يجلس قرابة العشرون صبي يستمعون إليه بانتباه.

فقال رحمن:

-إنه عالم دين عندنا، يفسر القرآن الكريم.

ثم تابع سيره، استوقفه مونتالبانو واضعاً يده على ذراع رحمن؛ فقد هاله ما رأى على الصبية من شغف ديني حقيقي، فبمجرد أن خرجوا من المخزن أندفعوا في صياح وشجار.

-ماذا كان يقرأ لهم؟

-السورة الثامنة عشر من القرآن وتسمى سورة الكهف.

انتابت مونتالبانو قشعريرة خفيفة في عموده الفقري ولا يعرف سببها وسأل:

-الكهف؟!

-أجل الكهف، تقول السورة أن الله -تلبية لرغبة بعض الشباب كانوا لا يريدون الابتعاد عن الدين الحق- جعلهم يدخلون في نوم عميق بداخل الكهف، ولكي يكون الكهف مظلم تماماً؛ حوّل الله اتجاه الشمس، وناموا ثلاثمائة وتسع سنة وكان نائمًا معهم أيضاً

كلب قابع أمام المدخل في وضع الحراسة أي أن قدماه الأماميتين ممددة ..و

قطع رحمن حديثه عندما لاحظ أن مونتالبانو قد شحب لونه، وأنه يفتح فمه ويغلقه كأنه مختنق.

-سيدي ماذا دهاك؟ هل أنت متعب؟ تريد أن أستدعي طبيب يا سيدي؟

خاف مونتالبانو من ردة فعله هو، شعر بالإرهاك وبالذوار وأن قدماه أصبحت مرتخية، من الواضح أنه يشعر ثانية بالإصابة والعملية الجراحية، في تلك الأثناء تجمع عدد قليل من الناس حول رحمن والمأمور، أمرهم البروفيسور بعض الأوامر وانطلق شخص عربي وعاد ومعه كوب من الماء، وحضر آخر ومعه مقعد من الخوص، أرغم مونتالبانو على الجلوس عليها وكان يشعر بأن شكله مضحك في هذا الوضع، أعادت المياه لمونتالبانو ثباته:

-كيف تقولون بلغتكم: الله أكبر، الله الرحيم؟

فقال له ذلك رحمن، وحاول مونتالبانو جاهداً أن يقلد نغمة كلامه فضحك الناس القليلون المتجمعون من طريقة نطقه لكنهم كرروا الكلام بشكل جماعي.

كان رحمن يتقاسم شقة مع زميل له يكبره سنًا يدعى المدني، والذي كان في هذا الوقت في المنزل. أعد رحمن الشاي بالنعناع بينما كان مونتالبانو يشرح أسباب حالة الإعياء التي أصابته، كان رحمن لا يعلم شيئاً عن العثور على الشابين القتيلين في كهف الحمل بينما سمع المدني حديثاً عن تلك الواقعة.

قال المأمور:

-من فضلك أريد أن أعرف إلى أي مدى توجد صلة بين الأشياء الموضوعة في الكهف وعلى ما نصّت السورة، فيما يتعلق بالكلب

لا يوجد أي شك.

قال المدني:

-الكلب اسمه قطمير لكنهم يسمونه أيضًا قوطمور، أتدري؟ يرى الإيرانيون أن كلب الكهف ذاك أصبح حلقة الوصل بينهم وبين العالم.

-أيوجد في السورة صحن مليء بالنقود؟

-لا، لا يوجد صحن لسبب بسيط هو أن النائمون كان معهم النقود في جيوبهم، عندما استيقظوا أعطوا واحدًا منهم النقود كي يأتيهم بأزكى طعامًا، فقد كانوا جوعى، لكن من أرسلوه خدع في أن تلك النقود التي معه ليست فقط لم تعد صالحة للتداول، بل أنها أيضًا تمثل ثروة في الوقت الحاضر؛ فتبعه الناس حتى واصلوا للكهف بحثًا عن هذا الكنز، وهكذا تم اكتشاف أمر الشباب النائمون.

قال مونتالبانو لرحمن:

-بينما في الحالة التي أتولى التحقيق فيها، هناك تفسير لوجود الصحن لأن الشاب والشابة تم وضعهما عراة في الكهف وبالتالي فإنه يجب وضع النقود في مكان ما.

فقال المدني:

-أوافقك الرأي، لكن في لم يرد في القرآن أنهم كانوا عطشانين وبالتالي فبالنسبة للسورة فإن إبريق المياه شيء غريب جدًا.

أضاف رحمن:

-أنا أعرف العديد من الأساطير عن النائمين، لكن لا توجد أسطورة منها تتحدث عن مياه.

-كم كان عدد النائمون في الكهف؟

-عمدت السورة إلى الغموض؛ ربما لأن العدد لا يهم: ثلاثة ورابعهم كلبهم أو أربعة وخامسهم كلبهم أو خمسة وسادسهم كلبهم أو ستة وسابعهم كلبهم، غير أنه أتفق جمهور المفسرين على أن النائمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

قال المديني:

-إذا كانت تلك المعلومة تفيدك فلتعلم أن السورة تسترجع أسطورة مسيحية وهي أسطورة نائموا أفسس^{٤٦}، وهناك أيضًا مسرحية مصرية حديثة تسمى «أهل الكهف» للكاتب توفيق الحكيم، وهي تفيد بأن الشباب المسيحيون الذين كان الإمبراطور تريانوس ديكوس^{٤٧} يطاردهم، راحوا في نوم عميق واستيقظوا في عهد ثيودوسيوس الثاني^{٤٨}، وقد كان عددهم ثلاثة ومعهم الكلب.

فاستنتج مونالبانو:

-إِذَا مَنْ وضع الجثتين في الكهف يعرف بالتأكيد القرآن ويعرف أيضًا مسرحية ذلك الكاتب المصري.

...

-سيدي الناظر؟ أنا مونالبانو، أحدثك من مدينة «مازر» وأنا على وشك السفر إلى مدينة «مرسى علي»، معذرة للاستعجال، لابد أن أسألك عن شيء في غاية الأهمية: هل يعرف لوريتزيتانو اللغة العربية؟

- للو؟ كلا البته!

46 - وهي من أعظم المدن الاغريقية القديمة في الأناضول، وتقع في منطقة ليديا (Lydia)

- منطقة تاريخية في غرب الأناضول- عند نهر كيستر

47 - دقيانوس (201—251) (Decius)، الامبراطور الروماني (249-251) م شارك

حكمه مع ابنه في السنة الأخيرة، حتى قتلوا سويا معركة abrittus

48 - (10 أبريل 401 - 28 يوليو 450) كان إمبراطورًا بيزنطيًا و إمبراطور الأمبراطورية

الرومانية الشرقية. كان الابن الأكبر أركاديوس إمبراطور الأمبراطورية الرومانية الشرقية بن

ثيودوسيوس الأول امبراطور الأمبراطورية الرومانية البيزنطية الموحدة و ليدوكسيا. (المترجم)

-ألا يمكن القول بأنه قد درسها في الجامعة؟

-أستبعد هذا.

-وفي أي دراسة تخرج للو؟

-في اللغة الإيطالية، وأجازه البروفيسور أوريليو كوترونيو، ربما قال لي موضوع بحث تخرجه لكنني قد نسيت.

-أكان لديه بعض الأصدقاء العرب؟

-على حد علمي لم يكن لديه أصدقاء عرب.

-هل كان هناك عرب في «فيجاتا» بين عامي ١٩٤٢ وعام ١٩٤٣؟

-سيدي المأمور، كان العرب موجودين في وقت احتلالهم وقد عادو في أيامنا فقراء لا محتلين، في تلك الفترة لم يكونو موجودين، لكن ماذا فعل العرب؟

سافروا صوب مدينة «مرسى عليّ»، وقد حلّ الظلام، كانت ليفيا سعيدة ومتحمسة كما أن لقاءها بزوجة خالنتي قد أسعدها. عند أول تقاطع طريق بدلاً من أن ينعطف يميناً، إنعطف مونتالبانو يساراً، على الفور أدركت ليفيا ما حدث وكان عليه تغير مساره بشكل صعب، عند تقاطع الطرق الثاني ربما بنفس طريقة التي أخطأ بها في المرة الأولى، فعل مونتالبانو العكس تماماً؛ فبدلاً من الانعطاف يساراً، إنعطف يميناً دون أن تفتن ليفيا لذلك لانهماكها في الحديث.

وجدا نفسيهما في «مازر» مما أدهشهما بشدة، فاندفعت ليفيا قائلة:

-لابد من التحلي بالصبر معك!

-ولكن أنتِ أيضًا كان عليك أن تنبهيني للخطأ!^{٤٩}

-لا تحدثني بلهجة صقليه! أنت مخادع؛ لقد وعدتني قبل أن تغادر «فيجاتا» أنك ستفرغ رأسك من الأفكار ولكنك لازلت شارد في حكاياتك هذه!

-سامحيني، سامحيني.

ظل مونتالبانو في أوج انتباهه في أول نصف ساعة من الطريق، ثم عادت إليه أفكاره على حين غرة: لقد فسر سبب وجود الكلب وكذلك الصحن بما فيه من نقود، أما الإبريق فلا، لماذا إذًا؟

لم يتمكن حتى من البدء في طرح افتراض؛ فقد أبهرت عيناه مصابيح شاحنة، فأدرك أنه قد انحرف بعيدًا عن حارة السير المخصصة له، وأن الاصطدام الوشيك سيكون مريعًا، حاول بلا جدوى تغيير اتجاه السيارة فيما أربكه كل من صراخ ليفيا وسارينه تنبيه الشاحنة الساخط، راحت السيارة تنحرف يمنة ويسرة على أرض حقل محروث مؤخرًا، ثم توقفت السيارة في حفرة.

لم يتحدثا، لم يكن لديهم ما يقولانه، تنهدت ليفيا بعمق، وكان مونتالبانو مرعوبًا مما كان سيحدث لهما منذ قليل، بمجرد أن تماكنت فتاته نفسها قليلًا، مد يدها أمامها في تذلل مستعطفًا إياها وقال:

-أتدريين؟ لم أرد أن أخبرك بذلك من قبل كي لا أفزعك، لكن ما في الأمر أنني شعرت بتعب بعد الظهر..

49- قال لها هذه العبارة مستخدمًا اللهجة المحلية لصقليه. (المترجم)

بعدها أصبح الأمر ما بين تراجيديا وفيلم لـ لوريل وهاردي^{٥٠}: السيارة لم تتحرك ولو بالقذائف المدفعية، وانزوت ليفيا على نفسها في صمت تام واحتقار لمونتالبانو، أما مونتالبانو عند لحظة معينة توقف عن محاولاته للخروج من الحفرة خشية أن يحرق المحرك، قام بحمل الحقائق وتبعته ليفيا على بُعد خطوات. تعاطف سائق مع المتشردان السائران على جانب الطريق فأوصلهما إلى مدينة «مرسى علي»، بعد أن ترك ليفيا في الفندق ذهب مونتالبانو إلى قسم الشرطة وكشف عن شخصيته ثم قام بإيقاظ شخص المسئول عن سيارة الونش، وبعد الذهاب هنا وهناك، اضطلع بجانب ليفيا التي كانت تضطرب أثناء نومها، وكانت الساعة الرابعة صباحًا.

50- فريق تمثيل كوميدي بين عامي ١٩٢٧ - ١٩٥١ مكون من ستان لوريل وأوليفر هاردي ولوريل يمثل شخصية النحيل الذي يتميز بالغباء المفرط، أما هاردي فهو البدين الذي يحاول أن يظهر بمظهر الذي بينما هو ليس بهذا الدرجة من الذكاء. وهما يمثلان في الغالب شخصيتا مواطنين بسيطين يحاولان دائما البحث عن الوظائف ويواجهان مشاكل وتنتهي بكوارث لعجزهما عن إيجاد حلول سليمة. (المترجم)





الفصل الثاني والعشرون

لكي يعتذر، رأى مونتالبانو أن يكون ودودًا وصبورًا ومبتسمًا ومطيعًا، وقد نجح في ذلك حيث أن ليفيا استعادت حالتها النفسية الجيدة؛ فقد سحرتها جزيرة «موتيا»، وأدهشها الطريق الممتد تحت مستوى سطح الماء ويربط الجزيرة بالساحل المواجه، وفتنتها أرضية فيلا من الفسيفساء المصنوع من حصي النهر ذو اللون الأبيض والأسود.

قال لهم المرشد السياحي:

-هذا هو «التوفيت»، مكان العبادة عند الفينيقيين، لم تكن هنا أية مباني بل كانت الشعائر الدينية تتم في الهواء الطلق.

سألت ليفيا:

-أتقصد القرايين المعتاده للآلهة؟

فصحح لها المرشد:

-للإله، للإله، بعل آمون وكانو يقدمون له الإبن البكر كقريان: كانوا يقتلونه خنقاً ثم يحرقونه ويضعون البقايا في إصيص ويغرزونه في الأرض وبجانبه يضعون لوحة، وقد وجد هنا منها ما يزيد على السبعمئة لوحة.

فتعجبت ليفيا:

-يا إلهي!

-سيدتي، هذا المكان لم يكن بالجميل بالنسبة للأطفال؛ عندما حضر الأميرال ليبيتين والذي أرسله ديونيوسيوس^{٥١} وغزا الجزيرة، قام أهل «موتيا» قبل أن يستسلموا بذبح أنبائهم، وهكذا بطريقة أو بأخرى كان ثمة مصير بائس في انتظار أطفال موتيا في كلتا الحالتين على حدٍ سواء.

فقالت ليفيا:

-فلننصرف فوراً من هنا، لا تحدثني عن هؤلاء الناس أكثر من هذا.

قرروا السفر إلى بانتليريا^{٥٢} ومكثوا هناك ستة أيام أخيراً بدون

51 - هو طاغية يوناني من سرقوسة، في المنطقة المعروفة الآن باسم صقلية، جنوبي إيطاليا. استولى على العديد من المدن في صقلية وجنوبي إيطاليا، وتصدى لنفوذ قرطاج في صقلية وحول سرقوسة إلى أقوى مستعمرة في اليونان. وكان القدماء يرونه نموذجاً للوحشية المستبدة والريبة وحب الانتقام في أسوأ صورها.

52 - بانتليريا بالإيطالية أو قوصرة، جزيرة إيطالية تقع في مضيق صقلية في البحر الأبيض المتوسط على بعد ٧٠ كيلو متر شرق الوطن القبلي، تمثل من ناحية التقسيم الإداري بلدية تابعة لمقاطعة تراباني. (المترجم)

جدال وشجار. كان هذا هو المكان المناسب لتسأل ليفيا ذات ليلة:

-لماذا لا نتزوج؟

-ولما لا؟

وبحكمة قررا أن يفكرا في الموضوع بهدوء؛ فللقيام بذلك سيكون على ليفيا الابتعاد عن منزلها في مدينة «بوكاديسيه»، والتأقلم مع أسلوب حياة جديد.

بمجرد أن أقلعت طائرة ليفيا، هرع مونتالبانو إلى هاتف عام واتصل بصديقة زيتو في «مونتلوزا»، سأله عن اسم شخص فأعطاه رقم هاتفه وهو رقم من باليرمو فطلبه فوراً:

-البروفيسور ريكاردو لوفيكيو؟

-أجل، أنا.

-نيكولو زيتو الصديق المشترك بيننا هو من أعطاني اسم حضرتك.

-كيف حال رُسُو مالبيلو^{٥٣}؟ أنا لم أتحدث معه منذ فترة.

مكبر الصوت الذي يدعو المسافرين إلى روما بالذهاب إلى باب الخروج، أوحى له بفكرة كي يجعل البروفيسور ينصت إليه فوراً:

-نيكولو بحالة جيدة وصحته جيدة، اسمع سيدي البروفيسور: أنا اسمي

53- بطل قصة لجوفاني فيرجا تحكي عن ولد شرير ذو شعر أحمر.

مونتالبانو، ومتواجد الآن في مطار بوتتاريسي^٥ ولدي من الوقت أربع ساعات قبل أن أستقل طائرة أخرى، لابد أن أتحدث معك.

كرر مكبر الصوت النداء كأن حاله كحال المأمور الذي يريد استجابة فورية لطلبه.

-اسمع، هل أنت المأمور مونتالبانو، مأمور «فيجاتا» الذي عثر على الشابين القتيلين في الكهف؟ صحيح؟ انظر يالها من صدفة! أتدري أنني كنت سأبحث عنك في الأيام القليلة القادمة؟ تعال إلى منزلي، أنا أنتظرك، ها هو العنوان.

...

-أنا مثلاً نمت أربعة أيام وأربع ليالٍ متتابة دون طعام ودون أن أمارس أي نشاط حياتي، تضافرت عدة أسباب في هذا النوم: حوالي عشرون لفافة حشيش، وممارسة الجنس لخمس مرات وضربة على الرأس من قبل الشرطة، كان هذا سنة ١٩٦٨، والدتي قلقّت وأردت أن تأتي بالطبيب؛ فقد كانت تظن أنني في غيبوبة عميقة.

البروفيسور لوفيكيو ملامحه كلامح موظف بنك، لم يظهر عليه أثر عمره البالغ خمس وأربعون، ويلمع في عيناه شعاع جنون خافت جداً، يهرع إلى الويسكي السادة في الحادية عشر صباحاً.

واصل لوفيكيو حديثه:

-لم يمثل نومي أي شيء مُعجز؛ فللوصول إلى المعجزة لابد من تجاوز العشرين عاماً من النوم. في القرآن نفسه على ما أظن في السورة

54- مطار باليرمو الدولي. (المترجم)

الثانية مذكور أن ثمة شخص -قال المفسرون أن اسمه عزرا- قد نام مائة عام، بينما نام النبي صالح عشرين عامًا، وكان كذلك نائمًا في مغارة وهو ليس بالمكان المريح للنوم، كذلك لم يكن اليهود أقل منهم فقد أشاروا في التلمود اليورشليمي⁵⁵ إلى أن شخصًا يدعى حماجيل قد نام في الكهف أيضًا سبعون عامًا، وهل يمكن أن ننسى الإغريق؟ فها هو ايبمينديس⁵⁶ قد استيقظ في كهف بعد نوم دام خمسون عامًا، جملة القول: أن في تلك العصور كان يكفي كهف وشخص غلبه النعاس كي تتحقق معجزة، كم سنة نام الشابين اللذان اكتشفتهما؟

-ما بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٩٤، خمسون عامًا.

-هذا وقت ممتاز لكي يستيقظا، هل ستتعقد استنتاجاتك إذا أخبرتك بأن في اللغة العربية يتم استخدام فعل واحد للإشارة إلى النوم والموت؟ وأنه يستخدم فعلًا واحدًا أيضًا للاستيقاظ والبعث؟

-أيها البروفيسور، أنت تسحرني بحديثك، لكن يجب أن أركب الطائرة؛ فلم يعد أمامي سوى وقت قليل جدًا، أخبرني لماذا كنت تريد الاتصال بي؟

-كي لا أدع وجود الكلب يخدعك؛ حيث أن وجود الكلب يناقض وجود الإبريق والعكس صحيح، أفهمتنى؟

-بل لم أفهم إطلاقًا.

-اسمع، إن أسطورة النائمون ليست ذات أصول شرقية، بل مسيحية. قدمها في أوروبا جريجوري ديتورس، تحدث فيها عن سبعة شباب من

55- التلمود اليروشليمي (يسمى أيضا تلمود أرض إسرائيل، وتلمود معرقا، وتلمود الغرب واليروشليمي) ، وهو مؤلف يشرح المشنا، يضيف عليه ويوسعه. وهذه الزيادة في التلمود اليروشليمي تتوسط ما بين الزيادة القصيرة الموجود في عدة مواضع في التوسفا (تقاليد من فترة التنايم) وبين الزيادة الطويلة والمطورة، مثلما في التلمود البابلي. وهو يتضمن بداخله تلمود الأمورايم من أرض إسرائيل ومن بابل على المشنا وكذلك على مجالات أخرى .

56- حكيم وفيلسوف إغريقي عاش ما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

«إفسوس»، لكي يفروا من اضطهاد الإمبراطور ديقيانوس للمسيحية إحتتموا بكهف فأنامهم الله. كهف «إفسوس» مازال موجودًا حتى أنك يمكن أن تجده مذكورًا في موسوعة «تركاني»، وقد بنوا فوقه معبد تم هدمه فيما بعد.

تروي الأسطورة المسيحية أن كان في الكهف ثمة منبع مياه، بالتالي فإن النائمون بعد أن استيقظوا مباشرة شربوا أولًا وبعد ذلك أرسلوا أحدهم في طلب الطعام، لكن لم يأتي ذكر الكلب في أي موضع من الأسطورة المسيحية ولا حتى في أي من الإصدارات الأوروبية اللامتناهية منها. الكلب المدعو قطمير لم يذكر إلا في قرآن مُحَمَّد الذي كان يحب الحيوانات لدرجة أنه قطع كُما كي لا يوقظ قطًا كان نائمًا فوقه.

فقال مونتالبانو:

-لقد تحيرت.

-لا داعي للحيرة سيدي المأمور، قصدت القول ببساطة أنه وضع الإبريق كرمز لنبع الماء الذي كان في كهف «إفسوس»، الخلاصة أن الإبريق الذي ينسب إلى الأسطورة المسيحية يمكن أن يوجد مع الكلب الذي ينسب إلى رواية القرآن. فإذا نظرنا نظرة شاملة لكل الإصدارات التي قدمتها لنا الثقافات المختلفة، نجد أن من ألف تمثيلية الكهف تلك، لابد وأنه شخص لسبب من أسباب الدراسة يعد..وكما يأتي في القصة المصورة، رأى مونتالبانو المصباح الذي أضاء في عقله.

كبس مكابح السيارة فجأة أمام مبنى جهاز مكافحة المافيا؛ لدرجة أن الحارس فزع ورفع المدفع الرشاش، فصاح مونتالبانو، مشهراً أول ما التقطته يده وهي رخصة القيادة:

-أنا المأمور مونتالبانو!

ثم أسرع حتى وقف وهو يلهث أمام شرطي آخر يعمل كحارس للبوابة.

-أخبر الطبيب ديدومينيس بأن المأمور مونتالبانو صاعدًا إليه، هيا أسرع!

استغل مونتالبانو فرصة أنه بمفرده في المصعد؛ فقام بنكش شعره وتوسيع عقدة رباط عنقه وفتح زر ياقة القميص، وكان يريد إخراج جزءًا من القميص خارج البنطال لكنه رأى أن هذا مبالغًا فيه.

قال مونتالبانو هو يلهث قليلًا فيما كان يغلق الباب خلفه:

-ديدومينيس، وجدتهم!

-أين؟

هكذا سألته ديدومينيس مفزوعًا من شكل المأمور ونهض من على مقعده المذهب الخاص بمكتبه المذهب أيضًا.

-إذا كنت حضرتك على استعداد أن تساعدني، سأجعلك تشارك في تحقيق س....

وتوقف ووضع يده على فمه كأنه يمنع نفسه من مواصلة الحديث.

-ما الأمر؟ على الأقل أخبرني بأي تلميح.

-لا أستطيع، صدقني لا أستطيع.

-ما المطلوب مني؟

-أريد معرفة موضوع بحث التخرج في اللغة الإيطالية لكالوجيرو ريتزيتانو خلال الليلة على أقصى تقدير، فيما يبدو لي أن أستاذة

شخص يدعى كوترونيو. لابد وأنه قد تخرج تقريبًا في أواخر عام ١٩٤٢. يعتبر موضوع هذا البحث مفتاح كل شيء، يمكننا أن نعطي ضربة قاضية لـ...

وقطع حديثه ثانيةً وجحظت عيناه وسأل وهو مرعوب:

-أنا لم أقل شيئًا، أليس كذلك؟

انتقل توتر مونتالبانو إلى ديدومينيس:

-وما العمل؟ لابد وأن الطلاب في تلك الفترة كانوا بالآلاف! هذا إن كانت أوراقهم لا تزال موجودة.

-ماذا تقول؟ ليسو بالآلاف، بل عشرات؛ ففي تلك الفترة تحديدًا كان جميع الشباب في جبهة القتال، إنه شيء بديهي.

-ولماذا لا تنجز أنت هذا الأمر إذًا؟

-لأنهم سيضيعون الكثير من وقتي بالروتين المتبع، بينما ستفتح جميع الأبواب أمامكم.

-أين يمكنني أن أجد هذا البحث؟

-سأعود إلى «فيجاتا» سريعًا يجب ألا تفوتني معاينة بعض التطورات في الأحداث، فلتتصل بي في المنزل فور ورود إليك أخبار، أوصيك بهذا، ولا تتصل بي في المكتب؛ فربما يكون هناك شخص متجسس.

ظل منتظرًا بلا جدوى مكاملة ديدومينيس، لكن هذا الأمر لم يقلقه؛ فقد كان على يقين من أن ديدومينيس قد عزم على إتمام هذا الأمر، لكن من الواضح أنه لم يجد الطريق ممهدًا أمامه هو أيضًا.

في صباح اليوم التالي سعد عند رؤيته للخادمة أديلينا، وقال لها:

-لماذا اختفيتي في الأيام القليلة الماضية؟

- لماذا؟! لأن السيدة ليفيا لا تحب رؤيتي في المنزل عندما تكون هي موجودة به.

-وكيف عرفت أن ليفيا قد سافرت؟

-لقد عرفت وأنا في البلدة.

في «فيجاتا» يعرف الجميع كل شيء عن الجميع.

-ماذا اشترت لي؟

-سأعد لك المكرونة بالسردين وبالنسبة للطبق الثاني سأعد لك طبق المرجان بالصلصة.

إنها أصناف شهية لكنها مضرّة بالصحة. ثم عانقها مونتابانو.

دق الهاتف تقريبًا عند الظهيرة وذهبت أديلينا لترد، وكانت تنظف في آخر الشقة، بالطبع كي تزيل آثار وجود ليفيا:

-الطبيب ديدومينييسيس يريد التحدث إليك.

هرع مونتابانو، وقد كان جالسًا في الشرفة يعيد قراءة كتاب (اليوم يبدأ الطيران) للكاتب فويليكنر. قبل أن يلتقط مونتابانو سماعة الهاتف قرر السيطرة على ردة فعله؛ كي لا يتسبب في إزعاج ديدومينييسيس حال ما إذا كان لديه معلومات، فرد بصوت متناقل ومحبط:

-إلو، من يتحدث؟

-لقد كنت أنت على حق؛ كان الأمر يسيرًا، لقد تخرج كالوجيرو ريتزيتانو ومعه مائة وإحدى عشر طالبًا آخرون في الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩٤٢، أحضر قلم فالعنوان طويل.

-تمهل حتى أجد ما يستحق الكتابة أو ما قد يفيد..

استشعر ديدومينييس الفتور في صوت مونتابانو:

-ما بك؟

التعاون بين الرجلين جعل مونتابانو يتخلى عن التحدث بصيغة رسمية مع ديدومينييس:

-ما بي؟! وتسألني ما بي؟! لقد قلت لك أنني أحتاج تلك الإجابة خلال ليلة أمس! الآن تلك المعلومة لم تعد تهمني؛ لقد ذهب كل شيء أدراج الرياح بسبب تأخرك!

-صدقني لقد عرفتھا للتو.

-حسنًا، هيا قل.

-(استخدام اللهجة العامية في المسرحية الطقسية -النائمون السبعة- -ومؤلفها مجهول- في القرن السادس عشر) هل لك أن تشرحلي ما علاقة المافيا بعنوان..

-بل لها علاقة! حتى إن كان له علاقة! الآن فقط لا تلزمني تلك المعلومة بسببك أنت، فبالطبع لا يمكن أن أشكر.

أغلق الخط وانفجر صائحًا في سعادة بعلو صوته، فسمع على الفور صوت كسر زجاج قادم من المطبخ؛ فلابد وأن شيئًا ما سقط من يد أديلينا بسبب الفزع. أخذ مونتابانو وضع الاستعداد وقفز من الشرفة على الرمال وقام بالتشقلب الأول ثم دار حول نفسه ثم تشقلب ثانية ودار حول نفسه ثانية بيد أنه لم يستطع القيام بالتشقلب الثالث وسقط على الرمال بلا حراك، هرعت أديلينا باتجاهه وصاحت من الشرفة:

-أيّتها العذراء، لقد جُنَّ الرجل! لقد كسرت عنقه!

ساوره شك حول معلومة عنوان بحث التخرج؛ فاستقل السيارة
وذهب إلى مكتبة البلدية بمونتلوza وقال للمديرة:

-أبحث عن مسرحية طقسية.

اندهشت المديرة بعض الشيء فهي تعرف أنه مأمور شرطة،
لكنها لم تبد اندهاشها من الأمر، وقالت:

-كل مالدينا من هذا النوع هما كتاي دانكونا^{٥٧} وكتاي
ديبارثولومايس^{٥٨}، لكن تلك الكتب ليست للاستعارة لأبد من
مطالعتها هنا.

وجد مسرحية «النائمون السبعة» في الكتاب الثاني للمختارات
الدبية لـ دانكونا وكان نصًا صغيرًا بسيطًا جدًا. لأبد وأن بحث للو
يتناول حوار بين طبييين ملحدين يتحدثان العامية اللاتينية، لكن ما
كان يهم مونتابانو أكثر هي المقدمة الطويلة التي كتبها دانكونا والتي
جاء بها كل شيء: الاستشهاد بسورة القرآن، وانتقال الأسطورة في
البلاد الأوروبية والأفريقية على اختلاف تفاصيلها، كان البروفيسور
لوفيكو محققًا: فهو إذا فكّر فقط فيما جاء بالسورة الثامنة عشر في
القرآن ستتعدد حساباته؛ فلا بد من إضافة إليها ما أنتجته الثقافات
الأخرى.

قال مونتابانو الذي أخبر بورجو وزوجته بأخر ما اكتشفه:

-أود أن أطرح افتراضًا وأن أريحكم: لقد قلتما لي أن لو كان يعتبر
ليزيتا كأخته الصغرى وكان ينظر لها نظرة تختلف عن الآخرون،
أليس كذلك؟

57- ألساندرو دانكونا (1835 - 1914 م) هو مؤرخ للأدب الإيطالي. كتب بحثًا جيدًا

عن (أسطورة محمد في الغرب)

58- عالم لغة وأدب إيطالي. (المترجم)

فقال العجوزان معًا:

-أجل.

-حسنًا، سأطرح عليكما سؤال: أظن أن باستطاعة لولو قتل ليزتا هي وعشيقها الشاب؟

دون التفكير ولو للحظة، قال العجوزان:

-كلا.

-أنا أيضًا أرى نفس الشيء، لأن لولو هو من وضع القتيلين -كما يقال- في وضع البعث المنتظر. من يقتل لا يريد لضحاياه أن تُبعث من جديد.

فسأل الناظر:

-وماذا به؟

-في حالة أن كانت ليزتا قد طلبت منه استضافتها في موقف طارئ مع خطيبها في فيلا عائلة ريتزيتانو عند جبل «كراستو»، في رأيكم كيف سيكون رد فعله تجاهها؟

لم تلبث السيدة أن فكرت في الإجابة:

-سيفعل كل ما تطلبه منه ليزيتا.

-فلنحاول إذًا أن نتخيل ما حدث في تلك الأيام من شهر يوليو: هربت ليزتا من بلدة «سراديفالكو» ولسوء حظها جاءت إلى «فيجاتا» والتقت بهاريو كونش خطيبها الذي هجر أو -بمعنى أصح- ابتعد عن سفينته. الآن لا يعرف الاثنان أين يختبئ؛ فلو اختبئ في منزل ليزتا كأنهما يذهبا للاختباء في جحر الذئب؛ فهو أول مكان سيبحث فيه والدها، وهكذا طلبت ليزتا المساعدة من لولو ريتزيتانو وهي تعرف أنه لن يرفض طلبها، واستضافهما لولو في الفيلا الموجودة عند سفح

جبل «كراستو» حيث يعيش بمفرده فقد كان أفراد عائلته قد نزعوا جميعًا. نحن لا نعرف من قتل الشابين ولماذا قتلتهما وربما لن نعرف ذلك أبدًا، لكن لا شك في أن من وضع سيناريو الدفن في الكهف هو لئو؛ لأنه قد اتبع الرواية المسيحية والقرآنية للقصة، وفي الحالتين يستيقظ النائمون مرة أخرى، ماذا يعني بذلك؟ ماذا يريد أن يقول لنا بتلك التمثيلية؟ هل يريد أن يقول لنا أن الشابين ما هما لا نائمين وأنهما سيستيقظان يومًا ما أو أن أحدهما سيوظفهما؟ أو ربما تمنى ذلك بالضبط: أن يأتي شخص في المستقبل ويكتشف أمرهما ويوظفهما، وبالصدفة كان من اكتشفهما وأيقظهما هو أنا، لكن صدقاني، لطالما رغبت ألا أكتشف ذلك الكهف.

كان صادقًا، والعجوزان يعرفان ذلك.

-يمكنني أن أتوقف عند هنا؛ فقد نجحت في إشباع فضولي الشخصي، صحيح أن تنقصني بعض الإجابات لكن ما معي يمكن أن يكفيني، وهكذا أستطيع أن أتوقف كما قلت.

قالت السيدة أنجيلينا:

-قد تكفيك أنت تلك الإجابات، لكن أنا أود أن أرى أمامي قاتل ليزتا.

فقال الناظر ساخرًا:

-إذا رأيته ستريه في صورة؛ لأن في وقتنا هذا هناك احتمال بنسبة تسع وتسعون بالمائة أن يكون القاتل قد مات ودُفن لبلوغة من العمر أرزله.

فقال مونتابانو:

-سأزعن لرغبتكما، ماذا أفعل؟ هل أستمري في البحث؟ أم أتوقف؟ فلتقررنا أنتما، جريمتي القتل هاتان لم تعد تهمة أحدهما، ربما تكونا أنتم الاثنين الصلة الوحيدة للقتيلان بتلك الأرض.

فقالَت السيدة وهي لازالت متحمسة:

-أنا أرى أن تواصل التحريات.

واستجمع الناظر أفكاره بعد توقف قصير وقال:

-وأنا أيضًا.

عندما وصل إلى أعلى هضبة «مارينيل»، بدلا من أن يغادر عائداً إلى المنزل ترك السيارة كأنها تسير من تلقاء نفسها على طول الطريق الساحلي. كانت الكثافة المرورية قليلة جداً؛ وبعد دقائق قليلة وصل إلى جبل «كراستو». نزل وسار في الطريق الصاعد المؤدي إلى كهف الحمل، جلس أمام كهف الأسلحة وأشعل لفافة تبغ وظل يرقب غروب الشمس، بينما كان التفكير يرهق عقله: فقد كان يشعر بشكل غامض أن للو لا زال على قيد الحياة، لكن ماذا يفعل كي يقتنصه، كي يخرجَه من وكره؟ عندما بدأ الظلام يحل، توجه نحو السيارة وعندئذٍ ثبتت عيناه على الثقب الكبير الذي يخترق الجبل ومدخل النفق الغير مستخدم والمغلق دوماً بألواح وقوائم الأخشاب، على مقربه من المدخل يوجد مخزن مصنوع من صفائح وبجواره مجرافين مثبت عليهما لافتة، هربت قدماه بسرعة حتى قبل أن يأتيها الأمر من عقله، وصل إلى السيارة متعباً، يؤلمه جهازه التنفسي بسبب الركض. كان مكتوب على اللافتة: (الشركة العقارية لصاحبها جايتانو نيكولوزي وابنه - باليرمو - ٣٣ شارع «لامارامورا» - مناقصة حفر نفق صالح للسير - رئيس المشروع المهندس: كوزيمو زيرتا المساعد: سالفاتوري بيريكوني). كان مكتوب بعدها بعض البيانات التي لم تكن تهم مونتالبانو، ركض مرة أخرى حتى وصل للسيارة، ثم انطلق نحو «فيجاتا».





الفصل الثالث والعشرون

لم يرد أحدًا على اتصاله بشركة مقاولات جايتانو نيكولوزي وإبنه بباليرمو والتي قد أتى برقم هاتفها من مكتب اشتراكات الهواتف، كان الوقت متأخر جدًّا، ولا بد وأن مكاتب الشركة قد أصبحت خالية، راح مونتالبانو يحاول ويحاول وشيئًا فشيئًا كان يفقد الأمل، بعد أن أفرغ غيظه بسلسلة من الشتائم، أتى برقم هاتف المهندس كوزيمو زيريتا، مفترضًا أنه هو أيضًا من باليرمو، وقد صحَّ تخمينه.

-اسمع أنا المأمور مونتالبانو مأمور «فيجاتا»، ماذا فعلتم في مسألة المصادرة؟

-أي مصادرة؟

-مصادرة الأراضي التي يمر من خلالها الطريق والنفق الذي نفذته شركتكم.

-حسنًا، إن هذا الشأن ليس من اختصاصي، أنا مسؤول فقط عن أعمال الإنشاء، أو بمعنى أصح أنا مسؤول عنها إذا لم يأت أمر بوقف كل شيء.

-إذًا مع من ينبغي أن أتحدث؟

-مع أحدًا من الشركة.

-لقد اتصلت ولم يرد أحدًا.

- إذًا مع الكومندتور^٩ جايتانو أو ابنه أرتورو عندما يخرجوا من سجن «أوتشاردون».

-الأمر كذلك إذًا؟

-أجل، إختلاس ورشوة.

-ألا يوجد أمامي أي بصيص من الأمل؟

-هناك أمل في رافة القضاة الذين يمكن أن يخرجوهم على الأقل بعد خمسة سنوات، أنا أمزح، اسمع يمكنك أن تحاول مع المسؤول عن الشؤون القانونية بالشركة المحامي ديبارتولوميو.

...

-فلتعلم سيدي المأمور، أنه ليس من اختصاص الشركة تولي إجراءات المصادرات، بل تختص بذلك البلدية التابع لها الأرض المصادرة.

59- رتبة شرفية. (المترجم)

-إِذَا فَمَاذَا تَفْعَلُونَ أَنْتُمْ؟

-هذا ليس من شأنك.

ثم أغلق المحامي خط الهاتف؛ وكان غاضبًا بعض الشيء، ربما كان عمل ديبارتولوميو هو أن يزيل عن نيكولوزي الأب والابن التعثرات التي يقابلونها لكنه لم ينجح هذه المرة في ذلك.

بعد أقل من خمس دقائق من فتح المكتب وجد مهندس المساحة تومينيلو المأمور مونتالبانو أمامه والذي بدا عليه التوتر؛ فقد كانت تلك الليلة بالفعل مزعجة لمونتالبانو؛ فلم يستطع أن يغفو وراح يقرأ رواية فرويلكنير. كذلك مهندس المساحة الذي لديه ابن مشاغب معتاد ممارسة الأفعال الطائشة والتشاجر وركوب الدراجات البخارية، لم يعد إلى المنزل في تلك الليلة. شحب وجه مهندس المساحة وبدأت يدها ترتعش، لاحظ مونتالبانو ردة فعل الرجل عند رؤيته، وظن وقوع أمر سيئ، صحيح أن مونتالبانو شرطي غير أنه يقرأ تعبيرات الوجه جيدًا.

-يوجد هنا بعض الأشياء المخبأة.

-أي أشياء؟

هكذا سأل تومينيلو متأهبًا لأن يسمع خبر القبض على نجله وربما يكون هذا الخبر من حسن الطالع أو أنه أخف ضررًا؛ فرمما يكون أيضًا قد ذبحه أحد رفاقه.

-أنا بحاجة لمعلومات عن عملية مصادرة.

فتلاشى توتر تومينيلو بشكل ملحوظ، لم يستطع مونتالبانو أن يمنع نفسه من سؤاله قائلاً:

-هل زال عنك الخوف؟

فاعترف بصراحة مهندس المساحة:

-أجل؛ فأنا قلق على ولدي، لم يرجع المنزل ليلة أمس.

-أيفعل ذلك كثيرًا؟

-أجل، حيث أنه يتردد على أصـ.

-لا تقلق إذا.

هكذا قاطعه مونتابانو فقد كان لا يريد أضاءة الوقت في مشكلة الشباب وقال:

-أود الإطلاع على أوراق بيع أو مصادرة الأراضي التي أنشئ بها نفق جبل «كراستو»، إنه أمر من اختصاصكم، أليس كذلك؟

-أجل سيدي من اختصاصنا، لكن من غير المجدي الإتيان بالأوراق؛ فأنا أعلم كل شيء عن تلك الأمور، فلتخبرني سيادتكم ماذا تود معرفته تحديداً.

-أريد معرفة معلومات عن أراضي عائلة رينزيتانو.

-كنت أتصور هذا، عندما علمت بأمر العثور على الأسلحة ثم العثور على القتيلين تساءلت: لكن أليست تلك الأماكن تابعة لعائلة رينزيتانو؟ لقد ذهبت للإطلاع على الأوراق.

-وبماذا أفادت الأوراق؟

-عليّ أن أخبرك بتلك المقدمة: لقد كان عدد مالكي الأراضي الذين -كما يقال- سيتضررون من أعمال إنشاء الطريق والنفق خمس وأربعون.

-عجباً، أينها العذراء!

-اسمع، كان يوجد أيضًا رقعة أرض مساحتها ألفي متر مربع وهي تركه يمتلكها خمسة أفراد. كان لا يمكن إخطار الورثة في وقت واحد، كان لابد من إخطار كل فرد منهم على حدة، بعد الحصول على أمر رئيس البلدية عرضنا على المالكين مبالغ منخفضة فيما يخص معظم الأرض الزراعية. فيما يتعلق بكالوجيرو ريتزيتانو -المالك المزعوم- حيث أنه لا يوجد مستند يثبت ملكيته، أقصد القول أنه لم يتم إجراء نقل التركة، ووالده قد مات دون أن يكتب وصية، فكان علينا أن نطعن بالمادة ١٤٣ من قانون الأحوال المدنية والتي تختص بغياب المالك، فكما تعرف أن المادة ١٤٣ تفيد بأن..

-لا يهمني، منذ متى قد قمتم بهذا لإخطار؟

-منذ عشر سنوات.

-إذًا فمنذ عشر سنوات وكالوجيرو ريتزيتانو يعتبر متغيب.

-وربما أكثر من ذلك، لأن من أصل خمس وأربعون مالكًا قام أربع وأربعون بالطعن على المبلغ الذي عرضناه عليهم وصدر الحكم لصالحهم.

-والمالك الخامس والأربعون الذي لم يطعن هو كالوجيرو ريتزيتانو.

-بالطبع، نحن قمنا باستقطاع الأموال المستحقه له ووضعناها منفصلة، لأنه بالنسبة لنا لازال على قيد الحياة وفقًا لكل المؤشرات؛ فلم يطلب أحدًا استخراج شهادة وفاة مزعومة، وعندما سيظهر ثابته سيأخذ المال.

قال مهندس المساحة «عندما سيظهر ثابته»، غير أن كل شيء يشير إلى افتراض أن لو ريتزيتانو ليس لديه أي رغبة في الظهور ثانية، أو من المحتمل افتراض أنه لم يعد قادرًا على ذلك، كان الناظر بوجو والمأمور يعتبران أنه من المؤكد أن لو قد حملته شاحنة حربية

وهو مصاب ونقلته لمكان ما في ليلة التاسع من يوليو هذا إن كان قد نجى. لكنهما لا يعرفا حتى مدى خطورة إصاباته؛ فربما يكون قد قضى نجه في الطريق أو في المستشفى، هذا أيضًا إن كانو قد أخذوه إلى المستشفى.

لماذا يصر مونتاالبانو على وجود شخص مختفي؟ ربما كان المبتان في كهف الحمل -وقت العثور عليهما- في حال أفضل من حال للو ريتزيتانو الآن؛ فعلى مدار خمسون سنة وأكثر لم يكتب كلمة أو سطر ولا شيء، ولم يسمع عنه شيئًا حتى بعد أن صادروا حقله وهدموا بقايا فيلته وممتلكاته.

التواءات المتاهة التي أراد أن يدخلها انتهت الآن بحائط سد، وربما كانت المتاهة كريمة معه ومنعته من التقدم للأمام وانتهت به أمام الحل الطبيعي الأكثر منطقية.

كان العشاء خفيفًا، كان الطعام كله عبارة عن شريحة الخبز تلك التي نادرًا ما يمنحها الله لعباده المصطفين، لم يشكر المأمور زوجة رئيس المباحث بل اكتفى بالنظر إليها نظرة كلب ضال لقي عطفًا، ثم انزوى الرجلان كي يتجاذبا أطراف الحديث. بدت له دعوة رئيس المباحث بمثابة طوق النجاة أُلقي إلى شخص على وشك الغرق ليس في بحر ووسط عاصفة بل في قارب الكسل والملل الهادئ.

تحدثا أولًا عن كاتانيا واتفقا على أن إقحام مباحث كاتانيا بالتحري عن برانكاتو كان من أول نتائجه هو القضاء على برانكاتو نفسه. قال رئيس المباحث في ألم:

-نحن فشلة؛ لانقوم باتخاذ خطوة إلا ويعلم بأمرها خصومنا؛ تسبب برانكاتو في مقتل إنجراسيا الذي كان قلقًا جدًّا، وعندما علم من بيدهم مقاليد الأمور بأن برانكاتو تحت ملاحظتنا، تدبروا أمر القضاء عليه وهكذا تم محو الأثر الذي كنا بالكاد نتبعه بالشكل الملائم.

كان غاضبًا فانتشار الجواسيس في كل مكان أزعجته وآلمه أكثر من خيانة أحد أفراد عائلته له. وبعد توقف طويل لم يتفوه فيه مونتالبانو بكلمة، سأل رئيس المباحث:

-كيف تسير تحرياتك عن قتيلى كهف الحمل؟

أدرك المأمور من نبرة صوت رئيسه أنه يعتبر هذا التحقيق تسلية ومضيعة للوقت، يتعامل معه على أنه مجرد إحماء قبل العودة إلى التعامل مع الأمور الجادة. فقال المأمور نكايّة في رئيس المباحث:

-لقد نجحت في معرفة حتى اسمه.

فانتفض رئيس المباحث مندهشًا ومنتهبًا:

-أنت هائل! إحك لي.

حكى له المأمور كل شيء حتى تلك المسرحية التي قام بها مع ديدومينييس واستمتع بذلك رئيس المباحث كثيرًا، لكن المأمور ختم حديثه بكلام محبط: إلى الآن لم يصبح للبحث معنى، ربما لأن لا يمكن لأي أحد أن يجزم بموت لوريتزيتانو، وبعد أن تأمل رئيس المباحث الحديث قال:

-لكن إذا كان لور هو من يعتمد الاختفاء فسينجح التحقيق، فكم مرة حدث أن أشخاص اختفوا تمامًا وفجأة يظهروا؟ لا أريد أن أستشهد ببيرانديلو لكن على الأقل شاشا^{٦٠} هل قرأت كتيبه عن اختفاء عالم الفيزياء هكتور ماريجوانا؟

-بالطبع.

-أنا اقتنعت أن ماريجوانا -كما اقتنع شاشا في النهاية- أراد الاختفاء ونجح في ذلك ولم يكن الأمر انتحار؛ فقد كان شديد الإيمان.

-أتفق معك.

60- ليوناردو شاشا: كاتب وصحفي وروائي وسياسي إيطالي. (المترجم)

-ثم أنه، أليست بالقريبة جدًا واقعة ذلك الأستاذ الجامعي الذي خرج من منزله ذات صباح، ولم يعثر له على أثر بعد ذلك؟ وبحث عنه الجميع: الشرطة والمباحث حتى تلاميذه المحبين له، فقد خططوا لاختفائه ونجح في ذلك.

-هذا صحيح.

قالها مونتالبانو ثم تأمل فيما قاله، ونظر إلى رئيسه:

-يبدو لي أن سيادتك تدعوني للاستمرار في التحريات، بينما كنت قد وبختني من قبل لانشغالي بتلك القضية.

فأجاب رئيس المباحث:

-وما دخل هذا بذاك؟ أنت اليوم لازلت في مرحلة النقاهة، أما المرة السابقة كنت في الخدمة، أرى أن هناك فرق شاسع.

عاد مونتالبانو إلى المنزل، تنقل من غرفة لأخرى، بعد لقائه بمهندس المساحة كاد أن يكون حسم أمره بترك هذا التحقيق نهائيًا، بعد أقناعه بأن ريتزيتانو قد مات وانتهى أمره، إلا أن رئيس المباحث كأنه أحيأ به الأمل من جديد، أيمن أن المسيحيين القدامى كانوا يستخدمون كلمة نوم للإشارة إلى الموت؟ كان من الوارد جدًا أن يكون ريتزيتانو قد راح في النوم كما يقول الماسونيين، أجل لكن إذا كان الأمر هكذا فلا بد من إيجاد طريقة لإخراجه مرة أخرى من ذلك البئر الذي اختبأ فيه. لكن لابد من حدث جلل، يحدث ضجيجًا واسعًا جدًا وتحدث عنه الصحف والقنوات التلفزيونية في كل أنحاء إيطاليا، لابد من القيام بضربة لكن ما عساها أن تكون؟ لابد

من التخلي عن المنطق واللجوء إلى الخيال.

كان الوقت لايزال مبكرًا على الذهاب للنوم، فتمدد على الفراش مرتديًا ملابسه لقراءة كتاب (اليوم يبدأ الطيران):

(في منتصف الليلة الماضية توقفت طائرة صغيرة ذات ثلاث مقاعد، قوة محركها ثمانين حصان والتي يمكنها المناورة بحيث تطير فوق سطح الماء وتعود دون أن تتضرر، توقفت عن البحث عن جثمان روجيرو شومان، طيار السباق الذي غرق في البحيرة عصر يوم السبت، وذلك بعد أن أُلقت تاج من الزهور فوق الماء على بعد ما يقرب من ثلاثة أرباع ميل عن البحيرة حيث يفترض وجود جثمان شومان...)

تبقت سطور قليلة جدًا على ختام الرواية، غير أن المأمور وجد نفسه يقف في منتصف الفراش وعيناه كأنهما ممسوستان من جن، وقال: «إنه جنون لكنني سأفعله»

...

-هل السيدة إنجريد موجودة، أعرف أن الوقت متأخر لكن لابد أن أتحدث معها.

-السيدة لا بمنزل، قل أنت وأنا أكتب.

تتكبد عائلة كاردوموني مشقة كي يتفردوا بالذهاب للبحث عن الخادومات في أماكن لم تكن لدى تريستان دا كونا الشجاعة كي يطأها، قال لها المأمور:

-ماناو توباباو.

-لا أفهم.

ما قاله هو اسم لوحدة للفنان جويجوين، من المستبعد أن تكون تلك الخادمة من «بوليزينيا»^{٦١} أو من مناطق محيطة بها.

-هل أنتِ تكوينين مستعدة للكتابة؟ السيدة إنجريد.. إتصل السيد مونتابانو.. عندما تعود هي للمنزل.

وصلت إنجريد إلى مدينة «مارينيل» بعد الثانية صباحًا وهي ترتدي فستان سهرة به فتحة حتى المؤخرة، فلم تتأخر طرفة عين عن الاستجابة للمأمور عندما طلب أن يراها فورًا.

-معذرة لكنني أردت ألا أضيع الوقت في تغيير الملابس، لقد كنت في حفل استقبال ممل جدًا.

-ما بك؟ لا يعجبني شكلك، أهذا فقط لأنك مملت من حفل الاستقبال؟

-لا، لقد صح تخمينك؛ لقد عاد حمايا لمضايقتي، الليلة الماضية جاء فجأة إلى غرفتي، بينما كنت لا زلت في فراشي، وأراد أن يعاشرني فورًا، لكنني نجحت في إقناعه بالانصراف بعد أن هددته بأنني سأصرخ.

فقال المأمور مبتسمًا:

-إذًا فلا بد من إعداد العدة.

-وكيف ذلك؟

-سنعطيه جرعة أخرى من الصدمات.

عندما نظرت إليه إنجريد نظرة مستفهمة، فتح درج مكتبه المغلق

61- بولنيزيا هي مجموعة كبيرة لأكثر من ١٠٠٠ جزيرة مبعثرة في المحيط الهادي المركزي والجنوبي. (المترجم)

بالمفتاح والتقط ظرفًا وأعطاه لها، عندما رأت إنجريد الصور التي تصورها عندما كان حماها يعاشرها، شحب لونها في بادئ الأمر ثم احمر بعد ذلك.

-لقد كنت أنت؟

فكر مونتالبانو جيدًا للإجابة؛ ورأى إن قال لها أن من التقط الصور سيدة، من الممكن أن تذهبها إنجريد:

-أجل أنا من التقط الصور.

كان مونتالبانو يتوقع الصفعة العنيفة التي تلقاها من هذه المرأة السويدية، والتي أحدثت دويًا بداخل رأسه، وقال لها:

-لقد أرسلت ثلاثة صور منها إلى حماك، فخاف وتوقف لفترة عن إزعاجك، سأرسل إليه الآن ثلاثة صور أخرى منها.

فهبت إنجريد وألصقت جسدها بجسد مونتالبانو وقبلته بالقوة وداعب لسانها لسانه، مونتالبانو أحس أن ركبته ترتخي، ولحسن الحظ ابتعدت إنجريد وقالت:

-إهدأ إهدأ، لقد انتهى الأمر، لقد كان هذا مجرد شكر.

كتب مونتالبانو خلف ثلاث صور اختارتهم إنجريد بنفسها: (كف عن كل ما تفعل، وإلا سنكشف سترك المرة القادمة في التلفاز)

وقال المأمور:

-سأحتفظ ببقية الصور هنا، أخبريني عندما تحتاجينها.

-أتمنى أن يكون هذا في أبعد وقت ممكن.

-صباح غدًا سأرسلها إليه، وعلاوة على ذلك سأقوم بمكالمة هاتفية من شخص مجهول مصاحبة للصور كي يصاب بسكتة قلبية، الآن اسمعيني: لابد أن أقص عليك قصة طويلة، وفي النهاية سأطلب منك خدمة.

استيقظ في السابعة صباحًا، لأنه بعد أن انصرفت إنجريد لم يستطع أن يغفو، نظر في المرأة ووجد أن وجهة يبدو عليه الإعياء ربما أكثر مما أصابه عندما اطلقوا النار عليه، كان لابد أن يذهب للمستشفى في زيارة للفحص، وجدوا أنه في حالة ممتازة وأمروه بالاستمرار في تناول دواء واحد فقط من الخمس أدوية التي وصفوها له، ثم ذهب إلى صندوق توفير «مونتلوزا» حيث يودع النقود القليلة التي استطاع أن يدخرها، وطلب لقاء على إنفراد بالمدير:

-أنا بحاجة لعشرة ملايين.

-هل المبلغ في حسابك أم أنك تريد قرض؟

-أمتلك المبلغ في حسابي.

-معذرة ما المشكلة إذن؟

-المشكلة أنني أحتاج المال لمأمورية شرطية أريد أن أنفذها بمالي الخاص دون المخاطرة بأموال الدولة، وإذا ذهبت الآن إلى الخزينة لأطلب عشرة ملايين من أوراق فئة المائة ألف ليرة سيكون طلب غريب؛ لذلك لابد من أن تساعدني.

بعد أن تفهم المدير الموقف، وشعر بالفخر للمشاركة في عملية شرطية وبالغ في إكرام مونتالبانو.

أوقفت إنجريد سيارتها بجوار سيارة مونتالبانو تحديدًا تحت اللافتة

الموجودة عند بوابة الخروج من «مونتلوذا» وتشير إلى الطريق السريع إلى باليرمو، أعطاهها مونتالبانو ظرف منتفخ به العشرة ملايين فوضعتها في حقيبة يدها.

-اتصلي بي بمجرد أن تنتهي من الأمر واحترسي من أن يُسرق المبلغ.

فابتسمت له وأرسلت له قبلة على طرف أصابعها وأدارت محرك السيارة.

في «فيجاتا» اشترى لفافات التبغ، وأثناء خروجه من متجر التبغ رأى إعلاناً كبيراً أخضر اللون عليه حروف سوداء، تم تعليقه مؤخراً ويدعو المواطنين لحضور سباق الدرجات البخارية خارج الطرق الممهدة الذي سينطلق يوم الأحد بداية من الساعة الثالثة عصرًا في مكان يسمى سهل الحمل، لم يحلم مونتالبانو بتلك المصادفة. أتريد أن ترى المتاهة تشفق على مونتالبانو وتتحرك لتفتح له طريق آخر؟



الفصل الرابع والعشرون

سهل الحمل ليس له حظ كبير من مواصفات السهول، فهو يمتد من بداية الحاجز الصخري، وتجعل منه المنخفضات وقمم الجبال ومستنقعات الوحل مكاناً مثاليًا لسباق بري للدرجات بخارية، كان يومًا يعبر بقوة عن بداية فصل الصيف، ولم ينتظر الناس للثالثة عصرًا كي يذهبوا إلى السهل، بل بدأوا في التوافد منذ الصباح، حضر جدود وجدات وأطفال وشباب، حضر الجميع بغرض الاستمتاع بفرصة رحلة برية أكثر منه كسباق.

اتصل مونتابانو في الصباح الباكر بنيكولو زيتو:

-هل ستحضر السباق البري للدرجات البخارية الذي سيعقد عصر اليوم؟

-أنا؟ ولماذا؟ لقد أرسلنا من قناتنا صحفي أخبار رياضية ومصور.

-لا، أقصد أن نذهب سوياً أنا وأنت للتسلية.

وصلا إلى السهل في حوالي الثالثة والنصف ووقتها لم يكن السباق قد بدأ بعد، بل كان يسمع دوي شديد صادر عن محركات قرابة الخمسون دراجات بخارية تتم تجربتهم وتسخين المحركات وأيضاً ضجيج صادر عن مكبرات الصوت التي تصدر بأعلى صوتها موسيقى صاخبة.

سأله زيتو مندهشاً:

-لكن منذ متى وأنت تهتم بالرياضة؟

-من حين لآخر أتابعها.

لأنهم كانوا في الهواء الطلق، كان عليهما رفع صوتهما أثناء الحديث. عندما ظهرت طائرة صغيرة تعلق في ذيلها لافتة إعلانية فوق قمة جبل الحمل كان لم يلتفت إليها إلا القليل وكانت الضوضاء التي تصدرها الطائرة هي ما يجعل الأعين ترتفع إلى السماء تلقائياً وتحجب صوت الناس عن بعضهم البعض، ربما أدرك الطيار أنه بهذا الشكل لن يجذب الانتباه أبداً، لذا بعد أن قام بثلاث لفات ضيقة حول قمة جبل الحمل، توجه صوب السهل فوق الجمهور وحلق فوق رؤوس الناس على ارتفاع منخفض جداً وهو ينبه مسامعهم بأناقة. بالفعل أجبر الناس على قراءة اللافتة وأن يتبعوه بأنظارهم أثناء دورانه حول القمة ثلاث مرات أخرى بعد أن انطلق لأعلى بشكل رأسي، وكان ينخفض حتى يكاد أن يلمس الأرض أمام مدخل كهف الأسلحة، ويلقي أثناء ذلك مطراً من أوراق الزهور.

صمت الجمهور بأسره، وكان قد تذكر قتيلي كهف الحمل،

بينما كانت الطائرة تغير اتجاهها لتعود من جديد لتحلق على مقربة من الأرض وتلقي في هذه المرة آلاف البطاقات، بعد ذلك ابتعدت واختفت في الأفق، هكذا أثار ما كان مكتوبًا على اللافتة فضولًا كبيرًا؛ حيث أنها لم تكن تعلن عن مشروب ولا عن مصنع أثاث، بل كان عليها إسمين فقط: (ليزتا وماريو) ، كما أن إلقاء أوراق الزهور أشعل حماس الجمهور، كما أن قراءة البطاقات -المتطابقة كلها- جعلتهم يسقطون في حيرة من الظنون والافتراضات وغرقوا في التخمينات؛ فما معنى عبارة: (ماريو وليزتا يعلنان عن استيقاظهما ثانيةً)؟ فلم يكن هذا دعوة لحضور زفاف ولا حتى لتعميد^{٦٢}، ما هذا إذًا؟

وسط تزاحم الأسئلة كان الناس متأكدون من أمر واحد: هو أن الطائرة وأوراق الزهور والبطاقات واللافتة لها علاقة بقتلى كهف الحمل.

بعد ذلك بدأت السباقات وانشغل بها الناس وراحوا يتابعونها، عندما كانت الطائرة تلقي أوراق الزهور، طلب نيكولو زيتو من مونتالبانو ألا يتحرك من مكانه ثم اختفى هو وسط الجمهور، ثم عاد بعد ربع ساعة ويتبعه مصور لقناة «ريتي ليبرا»:

-أتسمح لي بلقاء تليفزيوني؟

-بكل سرور.

هذه الموافقة التي كان ميوّسًا منها، أكدت للصحفي الشك الذي ساوره في أن مونتالبانو هو من وراء قصة الطائرة من الألف إلى الياء.

-منذ قليل أثناء التحضيرات للسباق البري للدراجات البخارية -الذي يقام في «فيجاتا»- عاينًا طائرة إعلانية صغيرة...

62 - طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان في الحياة المسيحية، وتكون باغتسال المعمد بالماء

بطريقة أو بأخرى. (الترجم)

هنا استكمل وصف ما قد حدث.

-وحيث أن الصدفة السعيدة هي من ساقط المأمور سالفو مونتابانو لحضور السباق، فنود أن نوجه إليه بعض الأسئلة: في رأي سيادتكم، من هما ليزتا وماريو؟

فقال المأمور بصراحة:

-ربما أخرج عن سؤال حضرتك إذا قلت لك أنني لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر؛ ربما يكونا عروسين أرادا الإحتفال بزفافهما بطريقة مبتكرة، غير أنني أناقض بتفسييري هذا ما تضمنه البطاقات والتي لا تشير إلى زفاف بل إلى استيقاظ، لذا يمكنني الإجابة بصراحة عن سؤالك: إن ليزتا وماريو هما القتيلين اللذان وجدا في كهف الحمل هذا المرتفع الصخري الموجود أمامنا.

-لكن ماذا يعني كل هذا؟

-لا يمكنني أنا الرد، عليك أن تسأل من دبر أمر تلك الرحلة الجوية.

-كيف توصلت إلى تحديد هوية القتيلين؟

-بالصدفة.

-أيمكنك أن تخبرنا بلقبيهما؟

-لا، أنا أعرف لقبيهما لكن لن أفصح عنهما، يمكنني أن أكشف عن أن الفتاة كانت شابة من هذه البلدة، والشاب كان بحار من شمال إيطاليا، أود أن أضيف شيئاً لمن أراد إحياء ذكرى العثور على الجثتين بهذه الطريقة السوقية والتي قال عنها أنها استيقاظ: لقد نسي أمر الكلب المسكين الذي هو أيضاً له اسمًا، إنه يدعى قطمير وقد كان كلباً عربياً.

-لكن لماذا قام القاتل بتلك المسرحية؟

-لحظة؛ من قال لك أن القاتل هو من قام بتلك المسرحية؟ فأنا مثلاً لا أعتقد هذا.

قال له نيكولو زيتو وهو يوجه إليه نظرة غريبة.

-سأذهب بسرعة لعمل المونتاج لهذا الشريط.

بعد ذلك حضر صحفيو قناة «تيلي فيجاتا»، ومعدّون نشرة الأخبار المحلية في قناة «الراي» وصحفيون من قنوات تليفزيونية خاصة أخرى، وأجاب مونتالبانو عن كل الأسئلة بلطف وبطلاقة مصطنعة مراعاةً لمكانته كمأمور.

شعر بجوع شديد، فملاً بطنه من مشهيات المأكولات البحرية في مطعمه سان كالوجيرو ثم أسرع إلى المنزل وقام بتشغيل التلفاز ثم جاء بقناة «ريتي ليبرا» وكان نيكولو زيتو وهو من يقدم خبر الطيران الغامض، قام بتهويله بالشكل الكافي وتضخيمه بكل الطرق الممكنة وما زاد الطين بلة اللقاء الصحفي الذي أجراه وتمت إذاعته كاملاً، وكذلك اللقاء الغير متوقع للمأمور مع مدير وكالة «بوبي دوييلا» للإعلان بباليرمو، الذي عثر عليه زيتو بسهولة حيث أنه الوحيد من بين مالكي وكالات الإعلانات الذي يستخدم طائرة للإعلان في غرب صقلية.

كان المدير لازال متحمساً بشكل ملحوظ وقال أن امرأة شابة في غاية الجمال قد حضرت إلى الوكالة منذ أربعة أيام ويالها من امرأة، بدت وكأنها دمية، تشبه عارضات الأزياء التي تظهرن على صفحات المجلات، أيها المسيح يال جمالها! من الواضح أنها أجنبية لأنها كانت تتحدث الإيطالية بشكل سيئ (هل قلت سيئ؟ لقد أخطأت؛ فلغتنا

على شفاتها بدت كالعسل). لا لايمكن تحديد جنسيتها، ربما ألمانية أو انجليزية، حضرت تلك السيدة إلى الوكالة -ويال جمال طلعتها!- وأوضحت بالتفصيل ما يجب أن يكون مكتوبًا على اللافتة القماشية وعلى البطاقات، أجل هي من أرادت أوراق الزهور. بالمناسبة، لقد كانت دقيقة ومحددة جدًا فيما يتعلق بـمكان الإعلان. ويقول المدير: تصرف الطيار من تلقاء نفسه؛ فبدلاً من أن يلقي بالبطاقات على طول الساحل بشكل عشوائي، فضّل إلقتها على تجمع من الجمهور كان يتابع السباق، قامت تلك السيدة (أيتها العذراء! من الأفضل ألا أتحدث عنها بعد ذلك وإلا فستقتلني زوجتي) قامت بالدفع مقدماً وكاش وتم كتابة الفاتورة بإسم روزميري أنطوربين وعنوانه ببروكسيل.

لم يسأل المدير السيدة المجهولة (يا إلهي!) عن شيء آخر، وما الداعي لذلك أصلاً؟ فهي لاتطلب إلقاء قبلة! إنها رقيقة ولطيفة ومبتسمة، كأنها حلم.

استمتع مونتالبانو بذلك، فقد كان أوصى إنجريد:

-لابد أن تكوني أكثر جمالاً، فهكذا عندما يراك الناس لن يفهموا شيئاً.

انقضّت قناة «تيلي فيجاتا» على السيدة الفاتنة الغامضة وأسمتها «نفرتي العائدة للحياة» وألفوا قصة خيالية تجمع الأهرامات بكهف الحمل غير أنه كان من الواضح أنها تتبع الأخبار التي نشرها نيكولو زيتو على القناة المنافسة، كذلك اهتمت قناة «الراي» المحلية بالموضوع على نطاق واسع.

ها هو مونتالبانو يحصل على ما كان يبحث عنه من ضجيج وصخب

ودوي، واتضح له أن الفكرة التي خطرت له كانت فكرة راجحة.

...

-مونتالبانو؟ أنا رئيس المباحث، لقد فهمت للتو قصة الطائرة،
أهنتك إنها فكرة عبقرية.

-إن الفضل لك؛ فأنت من نصحتني بالإصرار، أتذكر ذلك؟ أنا
أحاول إخراج رجلنا من وكره، إذا لم تأتي عنه أخبار خلال وقت
قريب فهذا يعني أنه لم يعد على قيد الحياة.

-أهنتك، وافني بالأخبار، بالمناسبة هل دفعت أنت إيجار الطائرة؟

-بالطبع، فأنا على يقين من أنني سأخذ العلاوة التي بشرتني بها.

...

-أيها المأمور، أنا الناظر بورجو، أنا وزوجتي معجبين بتصرفك.

-نتعشم أن يتم الأمر على خير.

-أؤكد عليك سيدي المأمور: إذا جاءت أخبار عن لولو فلتخبرنا بها.

في نشرة أخبار الظهيرة أفرد نيكولو زيتو مساحة أكبر للخبر،
وعرض صور قتيلى كهف الحمل وراح يقرب الصور ويركز على
التفاصيل.

حدّث مونتالبانو نفسه قائلاً: «تكرم ياكوماتسي المجتهد ومنحهم تلك
الصور.»

عرض نيكولو صور جسم الشاب المدعو ماريو بشكل مفرد، ثم
جسم الشابة ليزتا ثم الطائرة وهي تلقي بأوراق الزهور وهنا أبرز
العبارة المكتوبة على البطاقات، وبدأ في تأليف قصة غامضة بقدر ما

هي مؤثرة، ولا تمثل أسلوب قناة «ريتي ليبرا» بقدر ما تمثل أسلوب قناة «تيلي فيجاتا»: لماذا قُتل هذين الشابين العاشقين؟ أي قدر بئس قادمهم إلى هذه النهاية؟ من وضعهم سويًا برفق في الكهف؟ أيمن أن تكون تلك السيدة الفاتنة التي ذهبت إلى وكالة الإعلانات عادت من الماضي بحثًا عن الانتقام بإسم القتيلين؟ وما علاقة تلك الحسنة بالشابين منذ خمسين عامًا؟ ما معنى كلمة (استيقظا ثانية)؟ وكيف استطاع المأمور مونتالبانو أن يتعرف حتى على اسم الكلب الفخاري؟ ماذا يعرف عن اللغز؟

...

-سالفو؟ أنا إنجريد، آمل ألا تكون ظننت أنني هربت بما معي من نقود.

-العفو! ولكن لماذا تقولين هذا؟ هل تبقى شيئًا من المال؟

-لقد تكلف الأمر أقل من نصف ما أعطيتني من المال، وما تبقى لازال معي وسأعيده إليك بمجرد عودتي إلى «مونتلوزا».

-من أي مكان تتحدثين؟

-من مدينة «تاورمينا»، لقد قابلت شخصًا ما وسأعود في غضون أربعة أو خمس أيام. هل كنت ماهرة؟ هل تم كل شيء كما تريد؟

-لقد كنت ماهرة جدًا، استمتعي بوقتك.

...

-مونتالبانو، أنا نيكولو، هل أعجبتك التقارير الصحفية؟ فلتشكرني إذا.

-علي ما أشكر؟

-لقد فعلت ما تريده بالضبط.

-أنا لم أطلب منك شيئاً.

-هذا صحيح؛ لم تطلب مني شيئاً بشكل مباشر، ولأنني لست غيبياً؛ فقد فهمت أنك تريد أن يحظى الخبر بدعاية ضخمة، فقدمته بشكل يسحر الجمهور، لقد قلت أشياء أخجل منها في الظروف الاعتيادية.

-أشكرك، وأكرر لك أنني لا أعرف سبب الشكر الذي تطلبه مني.

-أتدري؟ لقد دُمر مركز الاتصالات الخاص بنا من كثرة المكالمات، وطلبت التقرير الصحفي المسجل كلاً من قنوات الراي وقنوات «فينيفيست» ووكالة «أنسا» الإعلامية، وكل الصحف الإيطالية، لقد قمت بضربة قوية، أيمكنني أن أطرح عليك سؤال؟

-بالتأكيد.

-كم كلفك تأجير الطائرة؟

نام مونتالبانو نومًا هنيئًا، أو كما يقال كنوم العريس ليلة زفافه، لقد فعل ما يمكن بل وفعل المستحيل أيضًا، والآن لم يبق إلا انتظار الرد، لقد أرسل الرسالة بشكل معين قد يجعل شخص ما يفك شفرتها ويتحدث عنها مع ألسيدي مارافنتانو. كانت أول مكالمة جاءت في الساعة صباحًا وقد كان لوتشانو أكواسانتا من جريدة «ميتزوجورنو» والذي كان يريد أن يطمأن إلى رؤية: «هل من الممكن أن يكون الشابان قد دُبحا كقرايين في إحدى الطقوس الشريرة؟»

فقال مونتالبانو بلطف ودبلوماسية: «ولما لا؟»

جاءت المكالمة الثانية بعدها بربع الساعة، وطبقًا لوجهة نظرسيتفانيا كواتريني من جريدة «إيسري دونا»، فإن ثمة امرأة غيرة قد باغتت ماريو وهو يمارس الحب مع ليزتا-فالبحارة معروفون بتعدد علاقاتهم، أليس كذلك؟- وقامت تلك السيدة بقتل الاثنين،

ثم فرت هاربة إلى خارج البلاد، بعد ذلك وهي في النزع الأخير، باحت بالسر إلى ابنتها والتي بدورها كشفت لابنتها ما اقترفته الجدة من ذنب، ولكي تصلح الفتاة الموقف بشكل ما، ذهبت إلى باليرمو -وقد كانت تتحدث بلكنة أجنبية، أليس كذلك؟- ودبرت أمر الطائرة.

فقال مونتالبانو بلطف ودبلوماسيّة: «ولما لا؟»

وجاءه افتراض كوزيمو زابالا من المجلة الأسبوعية «عش حياتك!» في تمام الساعة السابعة وخمس وخمسون دقيقة: اعتاد كلّاً من ليزتا وماريو وهم تحت تأثير نشوة الحب والشباب أن يتنزها عراة في الحقول وهما ممسكان بيد بعضهما البعض كآدم وحواء، فاجأتهما سرية عسكرية ألمانية منسحبة، وكانو هم بدورهم تحت تأثير الخوف والهمجية؛ فقامو بالاعتداء عليهما وقتلتهما، وعندما كان أحد الجنود الألمانيين في النزع الأخير.. وهنا ترابطت القصة بشكل غريب مع ما ذكره ستيفانيا كواتريني.

فقال مونتالبانو بلطف ودبلوماسيّة: «ولما لا؟»

في تمام الثامنة طرق فاتسيو الباب، فكما أمرة مونتالبانو الليلة الماضية أحضر إليه جميع الصحف التي تصل إلى «فيجاتا»، وأخذ يتصفحها وهو يتلقى الاتصالات، وقد ذكرت جميعها الخبر على مختلف ما أولته له من أهمية، كان عنوان مقال صحيفة «الكورييري» هو أكثر عنوان أسعده، وكان العنوان هو: (مأمور يكشف عن هوية كلب فخاري مات منذ خمسون عاماً). فكل شيء له استخدامه حتى السخرية.

اندهشت أديلينا عندما لم تجده خارج المنزل كالمعتاد.

-أديلينا، سأظل في المنزل لبضعة أيام؛ فأنا أنتظر مكالمة هاتفية مهمة،

فلتحاولي إذاً أن تجعلي محبسي هذا مُترَفًا.

-لم أفهم شيئًا مما تقوله سيادتك.

عندئذٍ شرح لها مونتالبانو أن عليها مهمة تخفيف عنه وطأة حبسه الاختياري بمزيد من الإبداع في طهي طعام الغداء والعشاء.

في حوالي الحادية عشرة اتصلت به ليفيا:

-ماذا يجري؟ الهاتف دائمًا مشغول؟!

-معذرةً، كنت أتلقي الكثير من الاتصالات حول موضوع الـ.

-أعرف هذا الموضوع، لقد رأيته في التلفاز، لقد كنت لبقًا وردودك جاهزة؛ فقد بديت وكأنك شخص آخر، من الواضح أنه عندما أغيب أنا تكون في حالة أفضل.

اتصل بفاتسيو في المكتب ورجاه أن يأتيه بالخطابات البريدية في المنزل وأن يشتري له وصلة هاتف، وأضاف أن الخطابات لابد أن تُسلم له في المنزل يوميًا بمجرد وصولها وأن يخبره عمن يسأل عنه من خلال مركز اتصالات المكتب، ولابد أن يعطيه رقمه الخاص بدون أن يكثر في الحديث.

قبل أن تمر ساعة حضر فاتسيو ومعه بطاقتان بريديتان لا قيمة لهما وكابل الهاتف.

-ماذا يقال في المكتب؟

-وما عساه عن أن يقال؟ لا شيء، سيادتك من يجذب إليه الأمور العظيمة، أما القائد أوجيلو فيجذب إليه التفاهات: جرائم نسل وسرقات بسيطة أو بعض المشاجرات.

-ما معنى أنني أجذب الأمور العظيمة؟

-يعني ما أقول، سأوضح أفضل: يخاف الناس من الفئران، إذًا لابد أن تصدقني، إذا استدعيتهم فسيذهب كل واحد إلى حال سبيله.

ظل مونتالبانو ثمانٍ وأربعون ساعة كأنه مربوط بسلسلة كالكلب ومجال حركته كان يمتد بقدر ما كان يسمح به طول كابل الهاتف؛ لذا لم يكن مسموح له بالتريض على الشاطئ ولا الجري، بل كان يجعل الهاتف دوماً إلى جواره حتى وهو في المرحاض، ومن حين لآخر كان يرفع سماعة الهاتف ويضعها على أذنه كي يتحقق مما إذا كان الهاتف في الخدمة أم لا؛ خوفاً من أن تمر عليه الأربع وعشرون ساعة، وفي صباح اليوم الثالث خطرت له فكرة: «ما حاجته للاستحمام إذا لم يتمكن من الخروج؟» ثم كانت الفكرة التالية مرتبطة بشدة بالفكرة الأولى: «ما فائدة حلاقة الذقن إذًا؟»

في صباح اليوم الرابع أفرغ أديلينا؛ فقد كان متسخاً كثيف الشعر يرتدي خف وقميص لم يغيرهما منذ فترة:

-أييتها السيدة العذراء! أيها القائد، ماذا جرى لك؟ هل أنت مريض؟
-أجل.

-ولما لا تستدعي الطبيب؟

-مرضي ليس من اختصاص الطبيب.

...

ظهر مطرباً عظيماً، له شعبية في كل أنحاء العالم، من المفترض أن يغني في تلك الليلة على مسرح دار الأوبرا المصرية بالقاهرة، ذاك المسرح القديم الذي لم تكن النيران قد التهمتته بعد، وكان يعرف جيداً أن بعد فترة ستلتهمه النار. طلب من عامل بالمسرح أن

يخبره بمجيء السيد جيجه فور وصوله وجلسه في مكانه، في المقعد الخامس من اليمين في الصف الثاني، كان يرتدي البذة الرسمية وقد انتهوا من إعطائه اللمسات الأخيرة للمكياج ثم سمع، النداء «حان دورك».

لم يتحرك، بل جاء العامل وهو مرتبك، ليقول له أن السيد جيجه لم يظهر بعد -وكان من المعروف أنه لم يُقتل بل فرّ هاربًا إلى القاهرة- أسرع إلى خشبة المسرح ونظر إلى صالة العرض من خلال فتحة صغيرة من بين الستار، وقد كان المسرح مقتطًا عن آخره والمكان الخالي الوحيد هو المقعد الخامس من اليمين في الصف الثاني، عندئذ أخذ قرار فوري بالعودة إلى غرفته فخلع البذة الرسمية وارتدى ملابسه مرة أخرى، ولم يمس المكياج وهو عبارة عن لحية رمادية طويلة وحاجبين أبيضين كثيفين، فلن يتعرف عليه أحدًا بعد ذلك وبالتالي فلن يغني، وأدرك جيدًا أن مستقبله المهني قد انتهى وأن عليه أن يستعد كي يفلت بحياته، غير أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل في هذا الموقف؛ فبدون جيجه لن يمكنه أن يغني.

استيقظ وهو غارقًا في عرقه، كان قد ألف على طريقته حلم كلاسيكي فرويدي^{٦٣}. ذلك المقعد الخالي ماذا يعني؟ أيعني أن انتظاره الغير مجدي للو ريتزيتانو سيدمر حياته؟

...

-أيها المأمور، أنا الناظر بورجو، إننا لم نتحدث سويًا منذ فترة، أليدك أخبار عن صديقنا المشترك؟

-كلا.

كان عليه أن ينهي المكالمات الطويلة الغير مجديه بشكل مقتضب وسريع، وفي سبيل ذلك يظهر بأنه قليل الذوق، فربما إذا قرر ريتزيتانو

63- نسبة إلى مذهب العالم فرويد في التحليل النفسي. (المترجم)

الاتصال به ووجد الهاتف مشغولاً، قد يعيد التفكير مرة أخرى.

-أنا أظن أن الآن الطريقة الوحيدة التي بقيت أمامنا كي نتحدث مع لـو -ومعذرة في تلك النكتة السخيفة- هو اللجوء لجلسات تحضير الأرواح.

تشاجر مع أديلينا شجاراً كبيراً: بمجرد أن دخلت الخادمة في المطبخ سمع صراخها، ثم رآها فجأة في غرفة النوم:

-ألم تأكل سيادتك لم تتناول الغذاء ولا العشاء أمس!

-لا شهية لدي للطعام يا أديلي.

-وهل أنا أرهق نفسي كي أعد لك أصناف شهية ثم تنفر منها!!

-أنا لا أنفر منها، لكن كما قلت لك: لقد فقدت شهيتي.

-ثم أن هذا المنزل قد أصبح كحظيرة خنازير! سيادتك لا تريد أن أنظف الأرضية ولا الأثاث! منذ خمسة أيام وأنت ترتدي نفس القميص ونفس السروال الداخلي! هل أنت تريد أن تتعفن!

-معذرة أديلين، فأنت ترين ما أمر به.

-إذاً فلتخبرني عندما تشفى مما أنت فيه لأعود، أنا لا يمكنني أن أبقى في هذا المكان بعد ذلك، عندما تتحسن حالتك اتصل بي.

خرج إلى الشرفة وجلس على المقعد ووضع الهاتف إلى جواره وراح ينظر إلى البحر؛ فلم يكن بوسعة فعل أي شيء آخر، لا أن يقرأ ولا يفكر ولا أن يكتب، كان يعي وهو ينظر للبحر أنه يضيع في بئر ليس له قرار من هيمنة تلك الفكرة عليه. استعاد في مخيلته فيلم كان قد شاهده ربما كان مقتبساً عن رواية دورمات، يحكي عن مأمور يُصرّ على انتظار قاتل سيمر في مكان معين من الجبل غير أن هذا القاتل لم يمر أبداً، لكن المأمور لم يكن يعرف ذلك وكان

ينتظره ويستمر في انتظاره وهم الأيام والشهور والسنين..

في حوالي الحادية عشرة من نفس اليوم رن الهاتف، لم يكن أحدًا قد اتصل بعد مكالمة الناظر الصباحية، لم يرفع مونتالبانو سماعة الهاتف؛ فقد كان كأنه مشلولًا، كان يعرف بيقين تام -ولا يمكنه أن يفسر السبب- الشخص الذي يتصل به.

جاهد نفسه أن يرفع السماعة :

-ألو، المأمور مونتالبانو؟

سمع صوتًا رخيماً جميلاً رغم أنه صوت رجل عجوز، فقال المأمور:

-أجل أنا المأمور.

ولم يستطيع المأمور من أن يمنع نفسه من أن يقول:

-أخيراً!

فردد الرجل العجوز:

-أخيراً.

ظلا لبرهة ينصتان إلى أنفاسهما:

-ها أنا قد وصلت إلى مطار «بونتارايسي»، قد أصل إلى «فيجاتا» عند الواحدة والنصف على أقصى تقدير، إذا سمحت فلتوضح لي أين ستنظرني بالتحديد؛ فأنا بعيد عن البلدة منذ أمد بعيد، منذ خمسين عامًا.



الفصل الخامس والعشرون

قام بنفض الغبار والكنس وغسل الأرضية بسرعة في حركات كوميدية سريعة كتلك التي في السينما الصامتة، ثم دخل دورة المياه واغتسل جيداً، لم يستحم بمثل هذه الطريقة إلا مرة واحدة في حياته، عندما كان عمره ستة عشر عاماً وذهب لأول موعد غرامي، استحم استحماماً طويلاً جداً وعطر ما تحت إبطيه وذراعيه ورش سائر جسده في النهاية بالكولونيا كنوع من الإحتياط، كان يعرف أنه مضحك لكنه انتقى أفضل ملابس عنده، ورباط العنق الأكثر جدية كما ملّع حذائه حتى بدا وكأن بداخله مصباح، ثم خطرت له فكرة: أن يعد المائدة لكن بمقعد واحد، صحيح أنه يشعر بجوع متوحش الآن، لكنه متأكد من أنه لن يقدر أن يبتلع شيئاً.

أخذ ينتظر وينتظر طويلاً جداً، تجاوزت الساعة الواحدة والنصف

وشعر بتعب، كان شعورًا يشبه افتقاد شيئًا ما. قام بصب مقدار ثلاثة أصابع من الويسكي السادة، وابتلعها بسرعة، ثم جاء الإنقاذ: صوت سيارة تسير في الممر الضيق المؤدي إلى مدخل الفيلا، أسرع كي يفتح البوابة، وجد سيارة أجرة تحمل لوحة مرور باليرمو، نزل منها عجوز أنيق ويده عصا وفي اليد الأخرى حقيبة سفر صغيرة. دفع أجرة السيارة وبينما كانت السيارة تجتاز المنعطافات نظر حوله، هو رجل مستقيم القامة رأسه مرتفعة وبدأ عليه شيئًا من الخوف. على الفور بدا لمونتالبانو كأنه قد رأى الرجل في مكانٍ ما، وتقدم لاستقباله، فسأله العجوز:

-هل كل ما هنا منازل؟

-أجل.

-قديمًا كان لا يوجد هنا شيئًا، فقط شجيرات ورمال وبحر.

لم يتبادلا التحية ولم يقدم كلاً منهما نفسه للآخر؛ فقد كانا يعرفان بعضهما.

قال العجوز وهو جالسًا على مقعد الشرفة:

-أنا أكاد أكون أعمى؛ أرى بصعوبة كبيرة، لكن يبدو لي أن المكان هنا جميل للغاية ويسوده الهدوء.

عندئذٍ فقط أدرك المأمور أين رأى العجوز، لم يكن هو تحديدًا لكن شخص يشبهه تمامًا: كان في صورة فوتوغرافية على ظهر غلاف كتاب وهو جورج لويس بورجيس.

-أتريد تناول شيئًا من الطعام؟

فقال العجوز بعد تردد:

-أنت كريم جدًا، لكن اسمع: أريد فقط سلطة وقطعة جبن منزوع الدسم وكأس من النبيذ.

-تفضل إلى الحجرة الأخرى، لقد أعدت المائدة.

-حضرتك ستأكل معي؟

كان مونتالبانو يشعر بأن فم معدته مغلق، ورغم كل شيء كان يشعر بأثارة غريبة، كذب وقال:

-لقد تناولت غذائي.

-إذًا، إن لم يكن لديك مانع، هل يمكنني فرش المائدة هنا؟

«فرش» أي إعداد المائدة، قال ريتزيتانو هذا الفعل الصقلي كأجنبي يحاول جاهدًا أن يتحدث لغة المكان الذي يوجد فيه.

قال ريتزيتانو وهو يأكل ببطء:

-لقد أدركت أنك قد فهمت كل شيء تقريبًا من مقالة في صحيفة الكورييري، فكما تعلم أنني لم أعد قادرًا على مشاهدة التلفاز؛ حيث أنني أرى ظلالًا تتسبب في إيلام عيني.

-كذلك أنا أيضًا رغم أنني أرى بشكل ممتاز.

-قد علمت أنك قد عثرت على ليزتا وماريو. لدي من الأبناء اثنين ذكور: أحدهما مهندس والآخر أستاذ جامعي مثلي، وكلاهما متزوجان، والآن إحدى زوجتي نجلي ناشطة نقابية حادة الطباع، وهي بلهاء لا تطاق لكنها تحبني وتعتبرني حالة استثنائية؛ إذ أنها ترى أن كل أهل الجنوب مجرمين أو على الأقل عاطلين، لذا لا تفتأ تقول لي: أتعرف يا أبي: في بلادك -وبلادي تمتد من صقليه حتى

روما- قد قتلوا فلاناً واحتجزوا علاناً وألقوا القبض على ترتان.

وقد وضعت قنبلة هناك، تحديداً في بلدتك عثروا على شابين في داخل كهف قد قُتلا منذ خمسين عاماً..

-فقاطعه مونتابانو:

-كيف هذا؟ هل يعرف أفراد عائلتك أنك من «فيجاتا»؟

-بالطبع يعرفون ذلك، لكنني لم أخبر أحداً -ولاحتى المرحومة زوجتي- أن لازالت لدي ممتلكات في «فيجاتا»، ما حكيته لهم أن والداي وعدد كبير من أقاربي قد لقوا حتفهم بعد أن سقطت عليهم القنابل، فلم يتثنى لهم بأي شكل من الأشكال أن يكتشفوا ثمة علاقة بيني وبين قتيلي كهف الحمل ؛ فلم يكونوا يعرفوا أنها قطعة أرض ملكي أنا. أما أنا عند سماعي ذاك الخبر أصابني الإعياء والحمى، فكل شيء عاد بقوة للوجود، أنا أحدثك عن مقالة صحيفة «الكورييري»، كانت تقول: أن مأمور «فيجاتا» وهو نفسه الذي عثر على القتيلين، لم ينجح فقط في كشف هوية الشابين القتيلين بل أنه اكتشف أن الكلب الفخاري يسمى قطمير، عندها تيقنت من أنك نجحت في أن تعرف موضوع بحث تخرجي، ثم بعثت لي سيادتك برسالة، أضعت وقتاً في إقناع أولادي بأن آتي بمفردي، وقلت لهما أنني أريد قبل أن أموت أن أرى الأماكن التي ولدت وعشت شبابي فيها.

كل هذا لم يرض مونتابانو؛ فعاد مرة أخرى لسؤاله:

-إذاً فجميع من بمنزلك كانوا يعرفون أنك من «فيجاتا»؟

-ولماذا أخفي هذا الأمر؟ أنا لم أغير اسمي أبداً ولم أزور أوراقي الشخصية.

-أيعني هذا أنك اختفيت بدون قصد؟

-بالضبط، فالواحد منّا يظهر عندما يحتاجه الناس بشدة أو أن يتعمدوا العثور عليه.. على كل حال لا بد أن تصدقني عندما أقول لك أنني عشت طيلة حياتي بإسمي ولقبتي، شاركت في مسابقات وفزت بها واشتغلت بالتدريس وتزوجت ورزقت بأبناء ولدي أحفاد يحملون لقبتي، وأنا الآن متقاعد على المعاش ومعاشي بإسم كالوجيرو ريتزيتانو المولود في «فيجاتا».

-لكن على حد علمي كان عليك أيضاً مراسلة البلدية والجامعة للحصول على المستندات اللازمة.

-بالطبع، لقد كتبت إليهم ذلك، وأرسلوا لي الأوراق، أيها المأمور لا تغالط التاريخ؛ فلم يكن هناك أحداً في ذاك الوقت يبحث عني.

-أنت حتى لم تسحب الأموال التي كانت البلدية محقه لك بها مقابل مصادرة أراضيكم.

-هنا مربط الفرس: أنا منذ ثلاثون عاماً انقطعت علاقتي «بفيجاتا»، لأن مع مرور العمر تصبح مستندات محل الميلاد أقل أهمية، لكن الأوراق اللازمة لاستلام أموال المصادرة أصبحت خطرة؛ فقد يفترض أن يتذكرني أحد ما، وأنا قد أغلقت الباب على صقليه منذ أمد بعيد، فلم أكن أريد ولا زلت لا أريد أن تكون لي أي علاقة بصقليه، بل سأكون ممتناً إذا أمكن أن أسحب الدم الذي يجري في عروقي بجهاز خاص.

بعد أن انتهى العجوز من تناول الطعام سأله مونتابانو:

-أتود التنزه على شاطئ البحر؟

مرت خمس دقائق وهما يتنزهان، والعجوز يسير مستندًا إلى عصاه
وذراعه الأخرى يشبكها بذراع المأمور عندما سأل ريتزيتانو:

-هل لك أن تخبرني كيف تعرفت على ليزتا وماريو؟ وماذا فعلت
كي تفهم أن لي علاقة بال موضوع؟ إعذرني لكن المشي والكلام
يجهدني جدًا.

بينما كان مونتالبانو يقص عليه كل شيء، كان العجوز من حين
لآخر يلوي فمه دلالة على اعتراضه على ما يقال، ثم شعر مونتالبانو
بازدياد ثقل ذراع العجوز على ذراعه ، ففي خضم الحديث لم يلاحظ
أن العجوز قد أجهده المشي:

-أتريد أن نعود للمنزل؟

هكذا جلسا من جديد على مقعد الشرفة، وقال مونتالبانو:

-حسنًا، هل يمكنك أن تخبرني كيف سارت الأمور بالضبط؟

-بالتأكيد؛ فأنا هنا لأجل هذا، لكن الكلام أرهقني جدًا.

-سأحاول أن أوفر عليك المجهود، فلن فعل كالتالي: أقول لك ما
تصورته أنا، وحضرتك تصح لي إن كنت مخطئًا.

-موافق.

-حسنًا، في يوم من أوائل شهر يوليو لعام ١٩٤٣ حضر كلاً من ليزتا
وماريو لزيارتك في فيلتك عند سفح جبل «كراستو»، حيثما كنت
تسكن وقتها بمفردك، ليزتا هربت من بلدة «سراديفالكو» كي تلحق
بحبيبها ماريو كونش، وهو بحار ضمن طاقم سفينة الدعم باتشينو
التي كان من المفترض أنها ستبحر خلال أيام..

رفع العجوز يده، فقطع المأمور حديثه:

-معذرة، لم تحدث الأمور بهذا الشكل؛ فأنا أتذكر كل شيء بأدق التفاصيل؛ فذاكرة كبار السن كلما مر الزمن تصبح أكثر صفاءً ونشاطاً؛ في ليلة السادس من يوليو في حوالي الساعة التاسعة سمعت طرق شديد على الباب، ذهبت لأفتح فوجدت ليزتا أمامي وكانت هاربة بعد أن أغتصبت.

-أُغتصبت خلال رحلتها من «سراديفالكو» إلى «فيجاتا»؟

-كلا، إغتصبها والدها في الليلة السابقة.

لم يستطع مونتاالبانو أن يفتح فمه.

-هذه مجرد بداية؛ فالأسوء قادم: ليزتا باحت لي بسر أن والدها -العم ستيفانو كما كنت أناديه فقد كنا أقارب- أنه من حين لآخر تسول له نفسه هذا الفعل المشين، ذات يوم بعد أن خرج ستيفانو موساكاتو من السجن ونزح مع أفراد عائلته إلى «سراديفالكو»، اكتشف أمر الخطابات التي أرسلها ماريو إلى ابنته، فأخذها إلى الحقل وألقى الخطابات في وجهها ثم ضربها واغتصبها، هذا الرجل الذي كانت تعيش معه ليزتا لم يكن إنساناً على الإطلاق؛ لم يكن يشعر بالخزي بل كانت أعصابه باردة جداً، في اليوم التالي فرت ليزتا هاربة بكل بساطة وجاءت لزيارتي؛ فقد كنت بالنسبة لها أكثر من أخ، في صباح اليوم التالي ذهبت إلى ماريو لإخباره بقدوم، وصل ماريو لمنزلي مع بداية عصر ذاك اليوم فتركتهما بمفردهما وذهبت للتنزه في الحقول وعدت للمنزل في حوالي السابعة مساءً، وكانت ليزتا بمفردها وقد عاد ماريو على متن سفينة باتشينووي. تناولنا العشاء ثم أطللنا من النافذة لمشاهدة غارة على «فيجاتا» بدت كأنها ألعاب نارية، ثم ذهبت ليزتا لتنام في الغرفة العلوية فيما بقيت أنا بالطابق السفلي أقرأ كتاب على ضوء مصباح جازولين، حدث بعدها أن..

قطع ريتزتانو حديثه بعد أن شعر بالتعب وأخذ نفسًا طويلاً.

-أتريد كوبًا من الماء؟

يبدو أن العجوز لم يسمع السؤال واستطرد:

- ...حدث بعدها أن سمعت شخصًا يصيح قائلاً شيئًا ما من بعيد، أو بالأحرى بدا لي في البداية أنه حيوان يتوجع ككلب ينبج، بيد أنه كان العم ستيفانو ينادي ابنته، صوته أصاب جلدي بقشعريرة فقد كان هذا الصوت متألم ومؤلم في آن واحد، صوت عاشق هُجر بقسوة، ويعاني ويصيح من الألم بشكل حيواني، لم يكن صوت أب يبحث عن ابنته، ارتبكت وفتحت الباب فوجدت ظلام دامس، وصحت قائلاً إنني بالمنزل بمفردتي، لماذا يأتي ويبحث عن بنته عندي؟ ثم وجدته أمامي فجأة كمقزوف المنجنيق، دخل المنزل كالمجنون وهو يرتعش ويسبني أنا وليزتا، وعندما حاولت تهدئته، اقترب مني ولكمني في وجهي فسقطت على ظهري بعد أن شعرت بدوار.

لاحظ أنه وقتها كان بيده مسدس، وكان يهدد بقتلي، أخطأت عندما عنفته قائلاً بأنه يريد ابنته ليغتصبها مجددًا؛ فأطلق النار عليّ لكنه لم يصبني فقد كان مضطربًا بشدة، ثم حدد هدفه بشكل أفضل لكن في تلك اللحظة انطلقت طلقة أخرى، أنا أحتفظ في غرفة نومي بجوار الفراش بندقية صيد، فأخذتها ليزتا وأطلقت النار على والدها من أعلى الدرج، فأصيب العم ستيفانو في إحدى كتفيه وبدأ يترنح وسقط السلاح من يده. ببرود وحزم أمرته ليزتا بالإنصراف وإلا ستقضي عليه، وأنا كنت على يقين من أنها لن تترد في أن تفعل هذا.

نظر العم ستيفانو طويلاً إلى عينا ابنته ثم بدأ يأنّ وشفثاه مغلقتان، لا أظن أنه كان يأنّ فقط من الإصابة، ثم التفت وخرج من المنزل. بعدها قمت بغلق المتاريس على الأبواب والنوافذ، وكنت في حالة

هلع وليزتا هي من كانت تطمئنني وتشد من أزرِي، وأغلَقنا المنزل علينا حتى صباح اليوم التالي. في حوالي الثالثة عصرًا جاء ماريو فأخبرناه بما حدث مع العم ستيفانو، عندئذٍ قرر أن يبيت تلك الليلة معنا، ولم يرد أن يتركنا بمفردنا؛ فمن المؤكد أن والد ليزتا سيعاود الكَرَّة.

في حوالي منتصف الليل أمطرت «فيجاتا» بقصف رهيب، غير أن ليزتا كانت مطمئنة لأن حبيبها ماريو معها، وفي صباح يوم التاسع من يوليو ذهبت إلى «فيجاتا» كي أتُحقّق مما إذا كان المنزل الذي مُتلكه هناك لا زال قائمًا أم لا، وأوصيت ماريو بعدم فتح الباب لأي أحد وأن يجعل دائماً البندقية في متناول يده.

ثم قطع ريتزتانو حديثه وقال:

-حلقي جاف.

أسرع مونتاالبانو إلى المطبخ وعاد ومعه كوب وإبريق به ماء بارد، فأمسك العجوز الكوب بيديه الاثنين وهو يرتجف من رعشة أصابته، انتاب المأمور ألم حاد وقال:

-إذا أردت فلنتوقف قليلاً ونواصل فيما بعد.

-فأوماً العجوز برأسه أن لا:

-إذا توقفت فلن أكمل بعد ذلك. ظللت في «فيجاتا» حتى آخر النهار، لم يكن المنزل قد تهدم، لكن كانت هناك ثمة فوضى عارمة: الأبواب والنوافذ مكسرة بسبب شدة الهواء؛ الأثاث متساقط؛ الزجاج مهشم، فرتبت الأمور بقدرما استطعت وظللت أرتب حتى الليل، ولم أجد الدراجة عند الباب فقد سُرقت، فتوجهت سيرًا على الأقدام باتجاه جبل «الكراستو» واستغرق الطريق إلى هناك ساعة، كان يجب عليّ أن أسير على جانب الطريق السريع؛ فقد كانت

السيارات الحربية الإيطالية والألمانية تسير بكثافة في الاتجاهين. وعندما وصلت تحديدًا إلى المدق المؤدي إلى الفيلا، ظهرت فجأة ست طائرات أمريكية قاذفات قنابل وبدأت في القصف وإلقاء القنابل، وكانت تطير على ارتفاع منخفض جدًا محدثة صوت كدوي الرعد، ألقيت بنفسي في حفرة، تقريبًا بعدها مباشرةً أصابني شيء بقوة كبيرة في ظهري ظننت للوهلة الأولى أنه حجر ضخّم قذف إثر انفجار قنبلة، إلا إنها كانت بيادة عسكرية بداخلها قدم مبتورة من فوق العقب بقليل، هببت واقفًا وسلكت المدق، وكان لابد أن أتوقف كي أتقيأ، ولم تقوى قدماي على حملي فسقطت مرتان أو ثلاثة بينما كان صوت الطائرات يبتعد من خلفي لكن كان يسمع بوضوح أكثر صياح وعويل وتضرع وأوامر من بين الشاحنات المحترقة.

بمجرد أن وطأت قدمي مدخل منزلي سمعت دوي طلقتين ناريتين من الطابق العلوي بينهما مدة زمنية قصيرة جدًا: فحدثت نفسي بأن العم ستيفانو قد نجح في دخول المنزل وأتم انتقامه، بالقرب من الباب كانت يوجد قضبان حديدي كنا نستخدمه في مترسة الباب، إلتقطت هذا القضيب الحديدي وصعدت دون إحداث صوت، كان باب غرفة نومي مفتوح وبها رجل يقف بعد عتبة الغرفة بقليل ولازال يمسك بالمسدس ويعطيني ظهره.

حتى الآن لم يرفع العجوز عيناه في وجه المأمور، لكنه نظر في عيناه مباشرةً وقال:

-هل ترى أن وجهي وجه قاتل؟

-كلا، وإن كنت تقصد أنك قتلت الرجل الذي بداخل الغرفة وييده السلاح، فاطمن؛ لقد كان رد فعلك في حالة ضرورة الدفاع الشرعي عن النفس.

-القتل هو القتل على كل حال، ما تقوله لي لا يعدو كونه صيغ

قانونية قد ينظر لها فيما بعد، المهم هو الرغبة في تلك اللحظة، وانا أردت قتل هذا الرجل مهما كان فعل بليزتا وماريو. قمت برفع القضيب الحديدي ووجهت ضربة إلى مؤخرة رأسه بكل ما أوتيت من قوة آملاً أن تحطم تلك الضربة رأسه. بعد أن سقط الرجل كشف لي عن منظر الفراش: وكان عليه ماريو وليزتا وكلّاً منهما متشبث بالأخر وهما غارقان في دمائهما، لابد وأن القصف الذي كان قريباً جداً من المنزل قد فاجأهما وهما يمارسان الحب؛ فجعلهما الخوف يتعانقا بهذا الشكل، لم يكن بيدي ما أفعله لهما، لكن كان هناك ما يمكن أن أفعله بذاك الرجل الممد على الأرض خلفي ويحتضر، رفعت وجهه بركلة من قدمي وكان أحد مرتزقة العم ستيفانو، بعدها قمت بتدمير رأسه بالكامل مستخدماً القضيب الحديدي. عندئذٍ جننت: بدأت أتنقل من غرفة لأخرى وأنا أغني، هل سبق لك أن قتلت إنساناً؟ -أجل للأسف.

-سيادتك تقول للأسف، وبالتالي لم تشعر بالرضا عما فعلت، أما أنا فلم أشعر بالرضا وحسب، بل بالسعادة؛ لقد كنت سعيداً حقاً، كما قلت لك أنني رحت أغني. بعدها انهزت على مقعد وتملّكني الرعب؛ رعب من نفسي فقد كرهت نفسي، لقد استطاعوا أن يجعلوني قاتلاً وأنا لم أفلح في المقاومة، بل أنني كنت سعيداً بهذا. الدم الذي بداخلي كان ملوئاً على الرغم من أنني حاولت أن أطهره بالعقل والتربية والثقافة وكل شيء يخطر ببالك، فما بداخلي هو دم؛ دم جدي ودم أبي، دم رجال كان الأشخاص حسني السمعة يفضلوا ألا يتحدثون عنهم، كنت أنا مثلهم أو ربما أسوأ منهم.

بعد ذلك وتحت تأثير هذيان، ارتأيت حلاً ممكناً: إذا استمر ماريو وليزتا في نومهما فلن يحدث كل هذا الرعب وهذا الكابوس والحلم المفزع.. عندئذٍ..

بالفعل لم يكن العجوز قادرًا على مواصلة الحديث، فخاف مونتالبانو أن يصاب الرجل بأزمة.

-سأكمل أنا: قمت حضرتك بأخذ جثتي الشابين ووضعتهما في الكهف وجعلتهما في الوضع الذي كانا فيه في الغرفة.

-أجل، لكن الكلام سهل، كان عليّ أن أحملهما إلى داخل الكهف فردًا فردًا، فقد أنهكت وغرقت في الدماء بمعنى الكلمة.

-أكان الكهف الثاني -الذي وضعت فيه الجثتين- هو أيضًا يستخدم لتخزين بضاعة السوق السوداء؟

-لا، كان والدي قد أغلق مدخل هذا الكهف بوضع بعض الحجارة فوق بعضها، وقمت أنا بإزالتها ثم أعدتها لمكانها بعد أن انتهيت، واستخدمت مصباح جازولين كي أرى وأنا بداخل الكهف فقد كان لدينا منها الكثير في الحقل، عندئذٍ كان عليّ أن أجد رموز النوم التي ذكرتها الأسطورة: كان الأمر بسيطًا بالنسبة للإبريق والصحن الذي به النقود، لكن ما بال الكلب؟ في آخر عيد ميلاد للمسيح قضيته في «فيجاتا»...

-أعرف كل شيء عنه: عندما أقيم المزاد، إشتري الكلب أحد أفراد عائلتك.

-أبي من اشتراه، لكن حيث أنه لم يعجب أمي فقامت بوضعه في مخزن بداخل حانة، لا زلت أذكره. عندما انتهيت وأغلقت الكهف الكبير بالصخرة المستخدمة كباب، كنت في آخر الليل وتقريبًا شعرت بهدوء نفسي؛ فليزتا وماريو الآن ينامان بالفعل ولم يحدث شيئًا؛ لذلك لم تعد تؤثر فيّ الجثة التي وجدتها في الطابق العلوي؛ ففي مخيلتي -المضطربة بسبب الحرب- لم

تكن تلك الجثة موجودة، ثم وقعت نهاية العالم: إهتز المنزل بسبب القذائف التي كانت تسقط على بعد أمتار، لكن لم يُسمع صوت طائرات، فقد كانت السفن تطلق القذائف المدفعية من البحر.

خرجت مسرعًا خشيت أن أدفن تحت الانقراض إذا أصابت القذائف المنزل، بدا الفجر يبرز في الأفق، فما هذا الضوء؟ لقد كانت الفيلا تنفجر بالفعل من خلفي وأصابتني شظية في رأسي وسقطت مغشيًا عليّ، عندما فتحت عيناى مرة أخرى كان ضوء الأفق أكثر سطوعًا، وكان يسمع صوت دوي متواصل من بعيد، استطعت أن أزحف على الطريق ورحت ألوح وأؤشر، غير أنه لم تتوقف أي سيارة وكانت تهرب جميعًا، خاطرت بأن تدهسني شاحنة وتوقفت أمامها، فتوقفوا ورفعني جندي إيطالي على متنها، فهمت مما كانوا يقولوه أن الأمريكان على وشك إنزال قواتهم، فتوسلت إليهم أن يأخذوني إلى حيث سيذهبون، وفعلوا ذلك. ما حدث لي بعد ذلك أظن أنه لا يهكم، مرهق للغاية.

-أتود أن تستلقي على الفراش قليلًا؟

أضطر مونتابانو إلى أن يسحبه رغماً عنه، وساعده على خلع ملابسه، وقال له:

-سامحني، لأنني أيقظت النائمان وأعدتك للواقع.

-كان لابد أن يحدث هذا.

-صديقك بوجو -الذي ساعدني كثيراً- سيسر برؤيتك.

-وأنا لن تسرني رؤيته، وإن لم يكن هناك ما يمنع، عليك أن تتصرف كأنني لم آتِ.

-بكل تأكيد، ليس هناك ما يمنع.

-أتريد شيء آخر مِنِّي؟

-لا شيء، فقط أريد أن أقول أنني ممتنًا لك، لأنك لبيت ندائي.

لم يكن لديهما شيئًا آخر ليقولانه، نظر العجوز في ساعة يده وبدأ كأنه سيدخلها في عينيه وقال:

-ما سيحدث كالتالي: سأنام حوالي ساعة، ثم تيقظني وتحضر سيارة أجرة، لأتجه إلى مطار «بونتارايسي».

فقام مونتالبانو بإغلاق شيش النافذة وتوجه نحو الباب.

-لحظة من فضلك سيدي المأمور.

أخرج العجوز صورة من حافظة أوراقه التي وضعها فوق الكومودينو وأعطاهما للمأمور، وقال:

-هذه هي أصغر حفيدة لي، عمرها سبعة عشر عامًا واسمها ليزتا.

كانت الصورة كانعكاس لليزتا في المرآة؛ لولا البنطال الجينز الذي كانت ترتديه والدراجة البخارية التي كانت تستند عليها ليزتا هذه، لكانت مماثلة تمامًا وصورة طبق الأصل لليزتا الأخرى، ثم أعاد الصورة لريتزيتانو.

-سامحني للمرة الثانية، هل أحضر لك كوب ماء؟

بعد أن جلس في الشرفة، أجاب مونتالبانو على الأسئلة التي

طرحها عقله كشرطي: جثة القاتل، بالرغم من أنهم وجدوها تحت الأنقاض، إلا أنه من المؤكد أنهم لم يتمكنوا من تحديد هويتها؛ والدا لولو، إما أنهما ظنا أن تلك الرفات هي رفات ابنتهما، أو كما جاء في رواية الفلاح أن الجنود قد أخذوه معهم وهو في النزاع الأخير، لكن بما أنه لم ترد أخبار عنه بعد ذلك فلا بد وأنه قد مات في مكان ما، ويرى ستيفانو موسكاتو أن هذه هي رفات القاتل، الذي بعد أن أتم مهمته أي بعد قتل ليزتا وماريو ولولو وأخفى جثثهم عاد للفيلا كي يسرق بعض الأشياء، لكن القصف مزق أحشائه، وبعد أن تأكد ستيفانو من مقتل ليزتا أشاع قصة الجندي الأمريكي، إلا أن صهره الذي كان من «سراييفالكو» عندما حضر إلى «فيجاتا» لم يصدق تلك القصة وقطع علاقته بـ ستيفانو.

ابتسم عندما أعادت الصورة التي عرضها عليه العجوز إلى ذهنه المونتاج الفوتوغرافي؛ فالتشابه المصطنع كان بمثابة لعبة ساذجة مقارنة بالصفات الوراثية التي لا يمكن فهمها والتي يمكنها أن تعيد الشكل والجسم والروح إلى إنسان أصبح ذكرى. نظر في ساعة يده فهب واقفاً؛ فقد مر كثير من الوقت، دخل إلى غرفة النوم، وكان العجوز يستمتع بنوم هادئ ويتنفس بهدوء ووجهة منبسطة ومسترخي؛ فقد كان يسافر في بلد النوم بدون الانشغال بالحقائب، كان يحتاج أن ينام لمدة طويلة. فوق الكومودينو كانت توجد الحافظة وما بها من نقود وبجوارها كوب مياه. تذكر أمر الكلب المخملي الذي اشتراه لليفيا من مدينة «بانتييليريا»، وجده فوق الكومودينو متوارياً خلف علبة، فأخذه ووضعته عند آخر الفراش، ثم أغلق الباب خلفه بهدوء شديد.

تم بحمد الله - القاهرة - منتصف ليل الثلاثاء ٢٥ فبراير ٢٠١٤.

